جامعة اليرموك
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم أصول الدين
برنامج التربية في الإسلام



العرض التأريخي للآثار التربوية من خلال كتاب البدايـــة والنهايـــة للحافظ ابن كثير

إعداد الطالب:
زاهي نمر سعيد عبد الله

إشراف :

الدكتور عبد الناصر أبو البصل	مشرفاً شرعياً
الدكتور محمد فخري مقدادي	مشرفاً تربوياً

السنة الدراسية ١٩٩٧/١٩٩٨

جامعة اليرموك
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم أصول الدين
برنامج التربية في الإسلام



العرض التأريخي للآثار التربوية من خلال كتاب البداية والنهاية للحافظ ابن كثير

إعدادالطالب
زاهي نمر سعيد عبدالله

أعضاء لجنة المناقشة
الدكتور عبد الناصر ابو البصل .... رئيساً ومشرفاً شرعياً
الدكتور محمد فخري مقدادي .... عضواً ومشرفاً تربوياً
الاستاذ الدكتور محمد الألفي .... عضواً
الدكتور فاروق عبد المجيد السامرائي .... عضواً

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول
على درجة الماجستير في التربية في الإسلام من جامعة اليرموك – الأردن
في السنة الدراسية ١٩٩٧/١٩٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ربِّ إني لما أنزلتَ إليّ من خيرٍ فقير ﴾

سورة القصص : آية ٢٤

الإهـــداء

إلى من أنبتاني منبتاً طيباً.. وسقياني ماءً سلسبيلا.. وأنشآني نشأة صالحة ورعياني وسهرا عليّ الليالي.. إلى من أمطراني بوابل من دعوات الخير.. إلى من أجلساني على عرش المحبة لأصل إلى درجة من العلم.. والديَّ الحبيبين..

إلى توأم روحي.. إلى قرة عيني، إلى من رزقنيه عز وجـل ليشـدّ أزري.. ويشركني في أمري.. إلى أخي وبلسم جرحي.. هاني.

إلى شقيقات القلـب.. ورفيقـات الـدرب.. أخواتـي الكريمـات في بقيـة السرب.. سرب الأسرة الفاضلة.

إلى كل هؤلاء أهدي هذه الرسالة..

شكر وتقدير

بعد أن منّ الله عليّ بإتمام هذه الدراسة، لا يسعني إلا أن أتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان إلى كل من أعانني ووقف بجانبي خلال إعدادي لهذه الدراسة.

وأخص بالشكر فضيلة الدكتور عبد الناصر أبو البصل على ما قدمه من عناية ورعاية، وما بذله من جهدٍ ووقت لمتابعة هذه الدراسة وفي مختلف مراحلها، مما ترك طيب الأثر على هذه الدراسة، فله من الله عظيم الأجر وجزيل الثواب ومني كل الحب والتقدير والوفاء.

كما وأتقدم بالشكر والتقدير إلى الدكتور الفاضل محمد فخري مقدادي على تكرمه بالإشراف تربوياً على هذه الدراسة وعلى ملحوظاته السديدة التي أثرت هذا البحث.

وكما أتقدم من أستاذنا الفاضل الدكتور فاروق السامرائي بالشكر والعرفان على صحبته لنا في هذا البرنامج معلماً فاضلاً، وعلى توجيهه إياي لاختيار عنوان هذا البحث إذ كان مرشداً ناصحاً، وعلى تفضله بأن يكون لهذه الدراسة مناقشاً.

وأتقدم من الأستاذ الدكتور محمد الألفي بالشكر والتقدير على تفضله بقبول مناقشة هذه الدراسة.

كما وأتقدم بالشكر للمشرف الشرعي السابق الدكتور حسيب السامرائي على ما قدمه من توجيهات في بدايات هذا البحث.

وأتقدم كذلك بالشكر إلى جميع العاملين في هذا الصرح العلمي الكبير ـ جامعة اليرموك ـ.

وإلى أولئك الذين ساعدوني على تنقيح هذا البحث ونسخه وطباعته كل الحب والتقدير.

ثبت المحتويات

العرض التأريخي للآثار التربوية
من خلال كتاب البداية والنهاية للحافظ ابن كثير

إعداد الطالب : زاهي نمر سعيد عبد الله
إشراف : الدكتور عبد الناصر أبو البصل (مشرفاً شرعياً)
الدكتور محمد فخري مقدادي (مشرفاً تربوياً)

الملخص :

هدفت الدراسة إلى الإجابة عن ثلاثة أسئلة، وهي :

- كيف تطورت عناصر العملية التربوية الإسلامية خلال القرون الثمانية الأولى للهجرة ؟
- ما هي التغيرات التي طرأت على المؤسسات التربوية التعليمية خلال الفترة نفسها ؟
- ما هي العوامل التي أثرت على الحركة التربوية التعليمية خلال تلك القرون ؟

وقد اعتمدت الدراسة على كتاب **البداية والنهاية للحافظ ابن كثير**.

وجاءت الإجابة في فصلين رئيسين يسبقهما فصل تمهيدي وتتبعهما خاتمة.

وقد خصص **الفصل التمهيدي** للتعريف بالحافظ ابن كثير ومنهجه في تأليف البداية والنهاية

وأما **الفصل الأول** فقد خصص للحديث عن الآثار التربوية الإسلامية في القرون الثلاثة الأولى، لتشمل عصر النبي (ﷺ)، وصحابته رضوان الله عليهم، والتابعين ومن تبعهم، وتضمنت الحديث عن أهداف التعلم وطرائقه، ومؤسساته والعوامل الفاعلة في الآثار التربوية، والسمات العامة للتعليم خلال القرون الثلاثة الأولى.

وتناول **الفصل الثاني** الآثار التربوية الإسلامية من القرن الرابع حتى أواخر القرن الثامن، وتضمن الحديث عن المؤسسات التي ظهرت في هذه المرحلة، وشملت المدارس بشكل عام والمدارس النظامية بشكل خاص، ودور الحديث والقرآن، والترب والربط، والمشاهد والزوايا، والخوانق والمكتبات، والجوامع والمساجد، ومؤسسات تعليم الصبيان، وتضمن أيضاً الحديث عن مواد وطرائق التعليم، والدور التعليمي للمرأة، والعوامل الفاعلية في الآثار التربوية، والألقاب العلمية التي ظهرت.

وأما **الخاتمة** فقد تضمنت أهم النتائج والتوصيات التي توصلت إليها.

وكان من أهم النتائج التي سجلتها وجود تمايز بين مرحلتين : الأولى وتشمل القرون الثلاثة الأولى للهجرة، والثانية وتمتد من مطلع القرن الرابع وحتى الثلث الأخير من القرن الثامن الهجري.

وأما أبرز مظاهر هذا التمايز فقد تمثل في الجهود التي بذلت خلال المرحلة الأولى في حفظ أحاديث النبي (ﷺ) وفتاوى الصحابة وآرائهم، واجتهادات التابعين وتابعيهم، ثم تدوينهم بعد ذلك، لتصبح العلوم والمعارف التي تم حفظها وتدوينها في هذه المرحلة مصدراً يعتمد عليها كل من جاء بعد ذلك من أهل العلم وطلبته.

وأما المرحلة الثانية فقد تميّزت بظهور مؤسسات لم تكن معهودة في القرون الثلاثة الأولى كالمدارس، ودور الحديث والقرآن، والترب والخوانق، والربط والمشاهد، وغير ذلك.

وأما أبرز التوصيات التي خرجت بها فهي إجراء العديد من الدراسات التربوية التاريخية لأمهات كتب التاريخ الإسلامي مثل تاريخ الأمم والملوك للطبري، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي، وتاريخ دمشق لابن عساكر، وذلك للخلوص إلى صورة دقيقة جلية عن الآثار التربوية التعليمية، بعيداً عن الوهم والخطأ الذي قد يقع بسبب عدم دقة اختيار الروايات والأخبار، وتركها دون تمحيص.

المقدمة

تمهيد

أهميّة الدراسة

سبب اختيار الدراسة

أهداف الدراسة

محدّدات الدراسة

الدراسات السابقة

مشكلة الدراسة

منهجيّة الباحث

خطّة الدراسة

المقـــدمة

تمهيد :

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن سار على نهجهم وتبع خطاهم إلى يوم الدين، وبعد :

فإن دراسة التاريخ عموماً، ودراسة التاريخ الإسلامي خصوصاً تعدّ من الدراسات المهمة تربوياً والغنية علمياً.

ولا يخفى أن مثل هذه الدراسات تعدّ من العوامل الرئيسة في عملية البناء الحضاري للأمة الإسلامية، لأن إعادة أمتنا إلى سيادتها ومكانتها بين غيرها من الأمم يستلزم دراسة واعية ودقيقة لتراثنا التاريخي، هذه الدراسة التي تهدف إلى استيعاب الماضي وذلك باستخلاص العناصر الفاعلة والمؤثرة في حركة أمتنا وتطورها عبر القرون الماضية، ذلك الاستخلاص القائم على الدقة في النقل والاقتباس، والموضوعية في تفسير الأحداث واستخلاص العبر والانتقائية في صياغة النتائج ووضع الخطوات المستقبلية.

ويجب أن تأخذ هذه الدراسات بعين الاعتبار تجريد التاريخ من الدسائس الباطلة، والروايات المزخرفة، والأحداث الموضوعة، ويلي ذلك كلّه توظيف هذه الدراسات في بناء علوم إنسانية إسلامية، تأخذ دورها في نهضة الأمة، وعودتها إلى التمسك بدينها، والتصدي للعلوم الإنسانية الغربية الماديّة، وتقديم البديل الحق للإنسانيّة جمعاء.

وتأتي مثل هذه الدراسات التربوية بصفتها جزء من الدراسات التاريخية والتي تهدف إلى التعرف على الآثار التربوية في تاريخنا الإسلامي بشقيها المؤسسات والممارسات، فتعمل على استقرائها وصياغتها، ومن ثمّ تقديمها بصورة جديدة تبين جهود السابقين وآثارهم التربوية، ليتم التواصل بين ماضي التربية الإسلامية وحاضرها المعاصر وبناء أصولٍ متينة ترتكز عليها في المستقبل.

لذلك فإن هذه الدراسة تمثل محاولة أخرى من المحاولات العديدة السابقة في مجال الدراسات التاريخية التربوية.

ويعدّ كتاب البداية والنهاية من كتب التاريخ الموسوعيّة، إذ ضمّ بين دفتيه بالإضافة للأحداث التاريخية كثيراً من الأحاديث النبويّة ومعاني الآيات القرآنية، وتم فيه تسجيل كثيرٍ من الآثار التربويّة، وتراجم المشاهير والأعيان، وذكر شيء من حكمهم ومواعظهم وآثارهم.

لذلك قمت بدراسة هذا السفر الكبير من جانبه التربوي، وذلك باستخلاص الآثار التربوية التاريخية التي سجلها ابن كثير في كتابه، ثم صياغتها في أطر موضوعية وفق خطة رسمتها، بحيث تعكس هذه الدراسة معظم الجوانب والآثار التربوية في كتاب البداية والنهاية.

أهمية الدراسة :

تعدّ الدراسات التراثية التاريخية من الدراسات المهمة في المجال التربوي، وذلك لما تقدمه من صورة متكاملة عن التربية الإسلامية ونشأتها، وتطور الأفكار والمبادئ والممارسات والمؤسسات التربوية عبر التاريخ الإسلامي.

وتبرز أهمية هذا الدراسة من خلال استعراضنا للنقاط التالية :

١- إنّ السنن الجارية، والأحداث الواقعة، والتفاعلات المختلفة، والناتجة عن تعرض هذه الأمة عبر مسيرتها ثمانية قرون لتغيرات عديدة، ومن ذلك انتقالها من درجات القوة والعمران إلى دركات الضعف والخسران، وما صحب ذلك من ملابسات لتشكل تجربة غنية حقيقة بالدراسة، لذا فقد تناولت الدراسة هذه التجربة من جانبها التربوي، وذلك بتتبع واستخلاص الآثار التربوية التي ضمها كتاب البداية والنهاية.

٢- إنّ أغلب الدراسات التربوية التاريخية السابقة كانت تقوم على دراسة الآثار التربوية إما زمنياً، وذلك من خلال دراسة قرون محددة، وإمّا موضوعياً وذلك بدراسة موضوع بعينه، كالمجالس التربوية أو الوسائل أو غيرها من الجوانب، وإمّا القيام بدراسة أحد أعلام التربية الإسلامية، أو عمل دراسة لإحدى المؤسسات التربوية، وذلك بتتبّع تطورها واستقصاء عناصرها، وأمّا الدراسات التي تقوم على استقراء كتاب من كتب التاريخ واستخلاص الآثار التربوية منه فتكاد تكون نادرة، لذلك توجهت لإضافة دراسة جديدة تستند إلى واحد من هذه الكتب التربوية التاريخية.

٣- يعدّ كتاب البداية والنهاية لابن كثير من الكتب الجامعة تاريخياً، فقد حوى علوماً عديدة : من تاريخ، وتفسير، وحديث، وأدب، وتراجم، وهو كتاب متأخر نسبياً، إذ أرّخ فيه ابن كثير حتى الثلث الأخير من القرن الثامن الهجري، إلا أن هذا الكتاب لم يحظ بعناية الباحثين، ولم تشمله دراساتهم خصوصاً الجانب التربوي منه.

يضاف لذلك أن مؤلفه الحافظ ابن كثير من كبار علماء عصره، ونال رتبة حافظ في الحديث، وقد شهد له معاصروه بذلك، مما أدى إلى انعكاس ذلك على منهجه في تصنيف

كتابه من حيث دقة اختيار الروايات، والتعرض للحكم عليها، وإيرادها دون تهويل أو تطويل.

٤- إن العرض التأريخي للآثار التربويّة عبر ثمانية قرون يبيّن بصورة واضحة جليّة التغيرات التي طرأت، والتحولات الرئيسة التي حدثت على مسيرة الحركة التربويّة التعليميّة، والعوامل المؤثرة في ذلك سواءٌ خلال مرحلة القوة والازدهار، أم مرحلة الضعف والجمود، وهذا ما حاولت تسجيله من خلال هذه الدراسة باستقراء الآثار التربوية في مراحلها المختلفة، وتقلباتها العديدة.

سبب اختيار الدراسة :

إن النقاط الأربعة السالفة الذكر هي من الأسباب المهمة التي دفعتني لاختيار هذا العنوان، ويضاف لذلك الرغبة الشديدة لديَّ أن أُلمّ بشيء من التاريخ الإسلامي عموماً والتاريخ التربوي خصوصاً، ومن شأن ذلك أن يعود على طالب الدراسات العليا في هذا التخصص بالعديد من الفوائد، ويساعده على توسيع مداركه وزيادة معارفه العلمية التربوية.

وقد التقى كلّ ذلك مع توجيهات الدكتور الفاضل فاروق السامرائي، حيث أشار عليَّ باختيار هذا الموضوع فما هو إلا أن رأيت أن الله قد شرح صدري لذلك فأخذت بالإعداد له، وخصوصاً أنه لا توجد دراسات علمية تربوية تتعلق بكتاب البداية والنهاية.

أهداف الدراسة :

لقد سعيت من خلال هذه الدراسة إلى تحقيق الأهداف التالية :

١ ـ العرض التأريخي لعناصر العملية التربوية وتشمل أهداف التعليم، ومواد الدراسة، وطرائق التدريس، والتراتيب الإدارية، ويضاف لذلك السمات العامة للتعليم في كل مرحلة من خلال كتاب البداية والنهاية لابن كثير.

٢ ـ العرض التأريخي للمؤسسات التربوية الإسلامية وتطورها وما طرأ عليها من تغيرات عبر القرون، مع توضيح لتراتيبها الإدارية، وهيئاتها التدريسيّة، والمواد التي تدرّس فيها، وذلك من خلال الكتاب.

٣ ـ دراسة العوامل المؤثرة في تاريخ الأمة الإسلاميّة، ومدى انعكاس هذه العوامل على الآثار التربويّة، سواءٌ أكانت هذه العوامل دافعة للحركة العلميّة، أم معيقة لها.

٤ - المقارنة بين الآثار التربويّة في القرون الثلاثة الأولى، وبين الآثار التربويّة في القرون التالية حتى الثلث الأخير من القرن الثامن الهجري.

محددات الدراسة :

يمكننا صياغة حدود البحث من جانبين :

الجانب الأول : تحديد عناصر الموضوع وتشمل :

١. العرض التأريخي لعناصر العمليّة التربويّة : (الأهداف، المواد، الأساليب، المعلمين، الطلبة) وعبر قرون عديدة.
٢. العرض التأريخي للمؤسسات التربوية الإسلامية وما صاحبها من تطور وما طرأ عليها من تغيير.
٣. العوامل المؤثرة في الآثار التربوية الإسلامية.

الجانب الثاني : تحديد مصادر الموضوع، ويمكن تحديدها بما يلي :

١- تستند هذه الدراسة في غالبها على كتاب البداية والنهاية للحافظ ابن كثير.
٢- استعان الباحث بعددٍ من المصادر والمراجع، التي ساعدت على إتمام البحث، وفي جوانب عديدة منه.
٣- وبما أن الدراسة تختص بالآثار التربوية الإسلامية، فقد تتبع الباحث الآثار التربوية منذ بعثة النبي (ﷺ) وحتى الثلث الأخير من القرن الثامن الهجري، ودون التطرق لما سوى ذلك من تاريخ الأقوام السابقين، وقصص الأنبياء والمرسلين، الذين بعثوا قبل نبينا محمد (ﷺ)، وكذلك استثنى الباحث الجزء الأخير من كتاب البداية والنهاية، وهو كتاب نهاية البداية والنهاية، والذي خصصّه ابن كثير للحديث عن الفتن والملاحم و أهوال الساعة.

الدراسات السابقة :

بعد قيامي بتقصي الدراسات التي اختصت بكتاب البداية والنهاية من خلال المكتبة العامة لجامعة اليرموك، ومكتبة كلية الشريعة في الجامعة، وبعد البحث في مركز إيداع الرسائل الجامعيّة في الجامعتين اليرموك والأردنية لم أعثر على دراسة مستقلة تتعلق بكتاب البداية والنهاية، أو بمؤلفه الحافظ ابن كثير سواءً في الجانب التربوي أم في أي جانب آخر. وأمّا كتب التراجم والتاريخ فقد أوجزت ترجمته، وقد ترجم له بعض محققي كتبه، بحيث يقدم المحقق ترجمة موجزة له تشمل : المولد والنشأة والحياة العلمية، وأشمل دراسة هي التي قدمها الدكتور أحمد أبو ملحم، أحد

محققي كتاب البداية والنهاية، وقد جعلها مقدمة لكتاب البداية والنهاية، وجاءت في بضع عشرة صفحة، وقد تحدث فيها عن شخصيته، وشملت : الاسم، والمولد، والنشأة، وشيوخه، وأخلاقه، وآثاره، سواءٌ المطبوعة أم المخطوطة أم المفقودة، وتحدثت أيضاً عن أسلوب ابن كثير ومنهجه في التأليف، وقد قدّم لذلك بالحديث عن الأوضاع السياسيّة والاقتصاديّة التي شهدها عصر ابن كثير.

أما الحديث عن الآثار التربويّة فقد أشار إليها تحت عنوان : "السمات العقليّة في عصر ابن كثير" فذكر مراكز العلم، وقلّة المكتبات، وفكرة المدارس، ودَور التعليم في التأهيل للمناصب الكبيرة، وذلك بإشارة سريعة عابرة.

فجاءت هذه الدراسة لتتوسّع في الحديث عن الآثار التربويّة الإسلاميّة في كتاب البداية والنهاية بما في ذلك عصره الذي عاش فيه.

مشكلة الدراسة :

تتلخص مشكلة البحث في الإجابة عن الأسئلة التالية :

١. كيف تطورت عناصر العمليّة التربويّة التعليمية خلال القرون الثمانية الأولى للهجرة من خلال كتاب البداية والنهاية ؟

٢. ما التغيرات التي طرأت على المؤسسات التربوية التعليميّة الإسلامية في القرون الثمانية الأولى من خلال البداية والنهاية لابن كثير ؟

٣. ما العوامل التي أثرت على الحركة التربوية التعليميّة في القرون الثمانية الأولى من خلال كتاب البداية والنهاية لابن كثير ؟

منهجية الباحث :

استخدمت في هذه الدراسة منهج الاستقراء التاريخي، وذلك بتتبع الآثار التربوية في كتاب البداية والنهاية ضمن الخطوات التفصيلية التالية :

١. قمت بقراءة متأنية شاملة لكتاب البداية والنهاية ابتداءً من بعثة النبي (ﷺ) وحتى سنة سبع وستين وسبعمائة من الهجرة.

٢. قمت باستخلاص الآثار التربوية التي عثرت عليها وتدوينها ضمن أطر موضوعية.

٣. قمت بوضع خطة تتضمن الآثار التربوية عبر مرحلتين شملت المرحلة الأولى القرون الثلاثة الأولى، والمرحلة الثانية بقية القرون حتى نهاية الثلث الأخير من القرن الثامن الهجري، بحيث

اعتمدت سنة ثلاثمائة للهجرة كحد فاصل بين المرحلتين، سواءٌ في الأحداث أم التراجم فمن كانت وفاته قبل الثلاثمائة أدرج ضمن المرحلة الأولى وان كان بعد الثلاثمائة أدرج مع المرحلة الثانية.

وقد ضمت الآثار التربوية : السمات العامة للتعليم، والعوامل الفاعلة في الحركة العلمية، ومواد الدراسة، وطرق التدريس، وأبرز المؤسسات التعليمية في المرحلتين، وقد وظّفت الآثار التي استخلصتها وجمعتها لتوضيح هذه النقاط، فكان إذا تعددت الأدلة اكتفيت بما يدل على الغرض دون الاستطراد في ذكرها جميعها، وإنما ما يكفي للاستدلال عليها.

٤. التزمت في تراجم الرجال ذكر سنة الوفاة لغير الصحابة وعند ورود الاسم في المرة الأولى، مع الإشارة إلى مكان ترجمته في أحد كتب التراجم، وتم وضع إشارة (*) إذا وردت الإحالة والترجمة في موضعٍ واحد وأمّا الصحابة فقد اكتفيت بشهرتهم.

٥. قمت بعزو الحديث إلى مصدره، فإن كان في الصحيحين أو في أحدهما اكتفيت بذكر المصدر، وإن كان الحديث في غير الصحيحين قمت بتخريجه وبيان صحته من ضعفه.

٦. قمت بتحليل النصوص الواردة في حدود مدلولها مستخدماً المنهج التحليلي، دون تكلف أو تحميل النص مالا يحتمل، وقمت بتوظيف هذه النصوص ضمن مجالاتها التي تحتملها، وقد سعيت إلى تقديم صورة حقيقية عن الآثار التربوية في كتاب البداية والنهاية، بحيث تكون الدراسةُ انعكاساً لواقع الكتاب، فقد فصّلت حيث فصّل المصنف، واختصرت حيث اختصر، وبينت حيث شرح ووضح، وأجملت حيث أجمل.

٧. قمت بعزو النصوص المقتبسة إلى مصادرها ومراجعها الأصلية، وتحري الدقة والموضوعية والأمانة العلميّة في ذلك.

٨. ذكرت في الحاشية اسم المؤلف، والكتاب، والصفحة، وقد فصّلت بقية المعلومات في ثبت المصادر والمراجع.

٩. قمت برتيب فهارس خاصة بالآيات القرآنية، والأحاديث النبويّة، والأعلام والمؤسسات التعليمية، وثبت للمصادر والمراجع وفهرس للمحتويات.

وقد اعتمدت على نسخة كتاب البداية والنهاية التي طبعتها دار الكتب العلمية، وقام بتحقيقها د. أحمد أبو ملحم وآخرون، وطبعت سنة (١٩٩٢)، والسبب في اختيارها دون

غيرها: وضوح خطها، وجودة تحقيقها، ومجلد الفهارس الذي أُلحق بها، وضم فهارس الأحاديث النبوية والأعلام والشعوب والقبائل والأماكن وقوافي الشعر، مما سهل كثيراً عليَّ أثناء دراستي للموضوع، ومطابقة هذه النسخة في عدد أجزائها للنسخة الأصلية لكتاب البداية والنهاية، يضاف لذلك توافرها في مكتبة الباحث.[1]

خطة الدراسة :

قمت بتقسيم البحث إلى فصلين رئيسين، قدمت لهما بفصلٍ تمهيدي، اشتمل **الفصل التمهيدي** على التعريف بكتاب البداية والنهاية ومنهج مؤلفه في تصنيف الكتاب.

وتناول **الفصل الأول** الحديث عن الآثار التربوية في القرون الثلاثة الأولى، والتي شهد لها النبي (ﷺ) بالخيرية، ولأن هذه المرحلة اشتركت في سمات عديدة، فهي مرحلة الرواية والتدوين، وتمثل مرحلة قوّة الخلافة وتماسك دولة المسلمين.

وأما **الفصل الثاني** فقد شمل الآثار التربوية من القرن الرابع وحتى الثلث الأخير للقرن الثامن ـ نهاية كتاب البداية والنهاية ـ وذلك لاشتراك هذه المرحلة أيضاً بسمات مشتركة لعل أبرزها تعدد مؤسسات التعليم وتنوعها بشكل كبير، وتمثل أيضاً مرحله رمزية الخلافة، وتقسيم دولة المسلمين إلى دويلات متعددة سياسياً وفكرياً، لذا جاءت هيكلة البحث على النحو التالي :

الفصل التمهيدي : ويضم ستة مباحث، هي :

المبحث الأول : التعريف بالحافظ ابن كثير : المولد، النشأة، الوفاة.

المبحث الثاني : حياته العلمية : شيوخه، تلاميذه، مؤلفاته.

المبحث الثالث : مشاركته في الحياة العامة.

المبحث الرابع : وفاته وثناء العلماء عليه.

---

[1]. وقد طبع الكتاب طبعات عديدة غير هذه الطبعة، منها الطبعة التي حققها الأستاذ أحمد عبد الوهاب فتيح، وقامت بطبعها دار الحديث سنة (١٩٩٢)، إلا أن هذه الطبعة خلت من التقديم للكتاب والتعريف بالمؤلف، كما خلت من فهارس عامه للكتاب. وظهرت طبعة أخرى بتحقيق الأستاذ أحمد صدقي العطار، وطبعتها دار الفكر سنة (١٩٩٦)، وتميزت بألوانها، ولم تختلف كثيراً عن نسخة دار الكتب العلمية، اللهم إلا الاختلاف في عدد أجزائها، ومما يؤخذ عليها صغر خطها، ومقاربة سطورها، مما يرهق القارئ، وقد ظهرت هذه الطبعة بعد أن شرعت في الدراسة.

المبحث الخامس : الحياة السياسية في عصر ابن كثير.

المبحث السادس : منهج ابن كثير في تأليف البداية والنهاية.

الفصل الأول : العرض التاريخي للآثار التربوية والإسلامية في القرون الثلاثة الأولى، ويضم ستة مباحث وهي :

المبحث الأول : الآثار التربوية في عصر النبي (ﷺ)، وفيه أربعة مطالب.

المبحث الثاني : السمات العامة للآثار التربوية في عصر الصحابة.

المبحث الثالث : السمات العامة للتعليم في عصر التابعين ومن تبعهم حتى نهاية القرن الثالث.

المبحث الرابع : مواد التعليم في القرون الثلاثة الأولى.

المبحث الخامس : طرائق التعليم في القرون الثلاثة الأولى.

المبحث السادس : أماكن التعليم في القرون الثلاثة الأولى.

الفصل الثاني : العرض التاريخي للآثار التربويّة من القرن الرابع حتى أواخر القرن الثامن، ويضم ستة مباحث، وهي :

المبحث الأول : المؤسسات التعليميّة، وفيه اثنا عشر مطلباً، وهي :

المبحث الثاني : مواد التعليم.

المبحث الثالث : طرائق التعليم.

المبحث الرابع : الدور التعليمي للمرأة.

المبحث الخامس : العوامل المؤثرة في العمليّة التعليميّة.

المبحث السادس : العرض التاريخيّ للألقاب العلميّة.

وقد مهّد الباحث بمقدمة وأنهى بحثه بخاتمة تضم أبرز النتائج والتوصيات التي سجّلها وتبع ذلك فهارس تشمل الآيات، والأحاديث، والمؤسسات، الأعلام، والمصادر، والمراجع، والموضوعات.

الفصل التمهيدي

التعريف بالحافظ ابن كثير ومنهجه في تأليف البداية والنهاية

ويضم ستة مباحث، وهي :

المبحث الأول : التعريف بالحافظ ابن كثير.

المبحث الثاني : حياته العلمية، وفيه ثلاثة مطالب، وهي :

المطلب الأول : شيوخه.
المطلب الثاني : تلاميذه.
المطلب الثالث : مؤلفاته.

المبحث الثالث : مشاركته في الحياة العامّة.

المبحث الرابع : وفاته وثناء العلماء عليه.

المبحث الخامس : الحياة السياسية في عصر ابن كثير.

المبحث السادس : منهج ابن كثير في تأليف البداية والنهاية، وفيه مطلبان هما :

المطلب الأول : مضمون الكتاب.
المطلب الثاني : أبرز السمات في منهجية تأليف الكتاب.

تمهيد :

شهد القرن الثامن ـ وهو العصر الذي عاش فيه الحافظ ابن كثير ـ ظهور عدد كبير من العلماء الذين برزوا في عصرهم، وامتدت آثارهم العلميّة ومؤلفاتهم الموسوعيّة لتنعكس على القرون التي تلت القرن الثامن فينهل منها أهل العلم وطلبته، ومن مشاهير علماء هذا القرن : شيخ الإسلام ابن تيمية (ت : ٧٢٨)، وابن سيد الناس(ت : ٧٣٤)، والحافظ علم الدين البرزالي(ت : ٧٣٩)، وابن الجزري (ت : ٧٣٩) والحافظ المزي (ت : ٧٤٢)، ومؤرخ الإسلام الذهبي (ت : ٧٤٨)، وتقي الدين السبكي (ت : ٧٥٦)، وولده تاج الدين عبد الوهاب (ت : ٧٧١)، والحافظ ابن كثير (ت : ٧٧٤).[1]

ولما كان الهدف من هذا البحث تتبع الآثار التربويّة في كتاب البداية والنهاية للحافظ ابن كثير فإن التعرض لدراسة حياته يعدُّ أمراً مكملاً لهذه الدراسة لتكون مقدمة بين يدي البحث.

---

[1]. انظر ترجمة ابن تيمية، البداية والنهاية، ١٤١/١٤، وابن سيد الناس، ١٧٨/١٤، والبرزالي، ١٩٦/١٤، وتقي الدين السبكي، ٢٦٤/١٤، وانظر ابن الجزري في شذرات الذهب، ١٢٤/٢، والحافظ المزي في البدر الطالع، ٣٥٣/٢، والذهبي في البدر الطالع، ١١٠/٢، ومقدمة سير أعلام النبلاء، ١٢/١، و تاج الدين عبد الوهاب السبكي في البدر الطالع، ٤١٠/١.

المبحث الأول :

التعريف بالحافظ ابن كثير

هو أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضو بن ضو بن كثير بن ضو بن درع القرشي من بني حصلة [1].

ولد ابن كثير سنة إحدى وسبعمائة في قرية مجدل من أعمال دمشق، وهذا ما نص عليه ابن كثير بعد ذكره لوفيات سنة إحدى وسبعمائة فقال : "وفيها ولد كاتبه إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي المصري الشافعي"،[2] وفي ذلك قطع للخلاف الذي دار حول سنة ولادته.[3]

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٣/١٤، وينتسب ابن كثير إلى الأشراف وقد وقف الحافظ المزي على نسبه فاعجب به وصار يكتب في نسبه القرشي. (انظر ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٣/١٤).

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٢/١٤.

[3]. وقد وقع خلاف بين من ترجم له حول تحديد تاريخ ولادته فذهب بعضهم إلى أنها سنة سبعمائة منهم ابن حجر العسقلاني في إنباء الغمر، ٤٥/١، وابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب، ٢٣١/٦، وعمر كحالة في معجم المؤلفين، ٢٨٣/٢. وذهب آخرون إلى أنها سنة إحدى وسبعمائة منهم الحسيني في ذيل تذكرة الحفاظ ص ٥٧، وابن قاضي شهبة في طبقات الشافعية ٨٥/٣، والداوودي في طبقات المفسرين ١١٢/١ والشوكاني في البدر الطالع : ٩٥/١. وترك الذهبي الامر دون تحديد فقال : "بعد السبعمائة أو فيها". تذكرة الحفاظ : ١٥٠٨/١.

النشـــأة :

نشأ ابن كثير يتيماً فقد توفي والده وهو ابن ثلاث سنين، ولما بلغ عمـره سبع سـنين ارتحـل مـع أسرته إلى دمشق في صحبة أخيه كمال الدين عبد الوهاب (ت : ٧٥٠)، الذي تولى رعايته وتعليمه، وقد أثنى عليه ابن كثير فقال : "وقد كان لنا شقيقاً بنا رفيقاً شـفوقاً... فاشـتغلت علـى يديـه في العلـم فيسّر الله منه ما يسر وسهل منه ما تعسر". [١]

والتحق في تعليمه الأساسي بإحدى كتاتيب دمشق ، حيـث أتمّ فيـه حفـظ القـرآن سـنة إحـدى عشرة وسبعمائة على الشيخ ابن غيلان البعلبكي الحنبلي (ت : ٧٣٠)،[٢] واستمر كذلك حتى أتمّ علوماً عديدة من فقه وحديث وتفسير وتاريخ ونحوها على أيدي كبار العلماء.

وقد تزوج ابن كثير من زينب بنت الحافظ المزي، إذ كان المزي يحب ابن كثير ويعدّه مـن أفضـل تلاميذه، [٣] وقد أنجب من زينب العديد من الأبنـاء عـرف منهـم عمـر (ت : ٧٨٣)، [٤] وعبـد الرحمـن (ت: ٧٩٢)، [٥] وأحمد (ت : ٨٠١)، [٦] ومحمد (ت : ٣٨٠)، [٧] وعبد الوهاب (ت : ٨٤٠). [٨]

وسكن ابن كثير المدرسة النجيبية وفي ذلك يقول : "وبها إقامتنا جعلها الله دارًا تعقبها دار القرار في الفوز العظيم".[٩]

---

[١]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٤/١٤.

[٢]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٥٦/١٤ * وانظر ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٢٧/١٤٠.

[٣]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٠٣/١٤.

[٤]. ابن حجر، أحمد بن علي : إنباء الغمر بأنباء العمر، ٧٥/٢. *

[٥]. انظر ترجمته المصدر السابق، ٣٩/٣.

[٦]. انظر ترجمته المصدر السابق، ٣٩/٤.

[٧]. انظر ترجمته المصدر السابق، ٣٢١/٤.

[٨]. انظر ترجمته المصدر السابق، ٤٤١/٨.

[٩]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٥٨/١٣. المدرسة النجيبية : تنسب إلى واقفها الأمير جمال الدين النجيبي (ت:٦٧٧) الذي جعلها وقفاً على الشافعيّة وتمّ افتتاحها سنة سبع وسبعين وستمائة ودرس بها وقتذاك ابن خلكان. (ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٩٦/١٣).

المبحث الثاني :

حياته العلميّة

لقد بدأ ابن كثير حياته العلميّة مبكراً حيث درسَ على أخيه عبد الوهاب ، ثمّ التحق بالكتاب، وأتمّ فيه حفظ القرآن، ولا شك أنّ رحلته إلى دمشق كان لها دور فاعل في حياته العلميّة ، حيث كان علماء دمشق أكثر من غيرهم وإليهم تشدّ الرحال، وسبق أسرة ابن كثير في الهجرة نحوها أُسرٌ عديدة : منها أسرة المقادسة الذين هاجروا سنة إحدى وخمسين وخمسمائة،[1] وأُسرة ابن تيمية الذين هاجروا إليها سنة سبع وستين وستمائة،[2] فبيت العلم الذي ينتسب إليه ابن كثير ، وبلد العلم التي هاجر إليها، وأهل العلم الذين اشتهروا في عصره ومصره وأخذ عنهم، كلها عوامل ساعدت على التنشئة العلمية لابن كثير مما أدى إلى اتساع حفظه وإتقانه، وتعدد علومه وانتشار مصنفاته، وستتناول في حديثنا عن حياته العلمية شيوخه وتلاميذه ومصنفاته.

المطلب الأول :

شيوخه

انعكس كثرة العلماء في دمشق على ابن كثير إذ تعدد شيوخه، ومن أبرز شيوخه الذين كان لهم أثر بالغ في شخصيته العلمية شيخ الإسلام ابن تيمية، حيث كانت له خصوصية به ومناضلة عنه واتباع له في كثير من آرائه فأمتحن بسبب ذلك وأوصى أن يدفن بعد موته إلى جانبه في مقبرة الصوفية.[3]

ومنهم الحافظ جمال الدين المزّي، حيث كان ملازماً له فكتب نسخة من كتاب تهذيب الكمال وقرأها على مصنفها وكتب سماعه للجزء السادس من الكتاب في نهايته فقال : "قرأت هذا الجزء بكماله على مؤلفه الإمام الحافظ جمال الدين أبي الحجاج المزّي ـ أثابه الله الجنة ـ

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٠٧/١٣.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٦٩/١٣.

[3]. الداوودي، شمس الدين محمد بن علي : طبقات المفسرين، ١١٣/١.

فـــي مجلسين"،[1] ونسخ كذلك بخطـه "تحفـة الأشراف بمعرفـة الأطـراف" للمـزي وقـد اعتمدهـا ابـن الحسباني (ت : ٨٠٥) في مقابلة نسخته عليها.[2]

ونسخ كذلك من كتب شيخه المزي كتاب (لحق الأطراف) الـذي جعلـه المصنـف ذيـلاً علـى كتابه تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف،[3] وقد آلت العلاقة بينهما إلى المصاهرة فتزوج ابن كثير مـن ابنتـه زينب.[4]

ومنهم مؤرخ الإسلام الذهبي وقد ذكر ابن كثير هؤلاء الثلاثة فقال : "وأشـياخنا الذيـن منهـم جهبذ الوقت شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية والجهبذ أبو الحجاج المزي ومـؤرخ الإسـلام أبـو عبـد الله الذهبي".[5]

وسمع أكثر من خمسمائة جزء بالإجازات والسماع على الشيخ الحجار ابـن الشـحنة (ت : ٧٣٠).[6]

وسمع سنن الدار قطني من الشيخ محي الدين بن الفاضل (ت : ٧٢٤)،[7] والموطـأ علـى الشـيخ نجم الدين علي بن محمد (ت : ٧٢٩)،[8] وسمع شيئا مـن سـنن البيهقـي علـى الشـيخ محمـد بـن عمـر الصقلي(ت : ٧٢٥) الذي سمع بدوره من ابن الصلاح (ت : ٦٤٣)،[9] وأخذ الفقه عن شيخ الشـافعية في دمشق برهان الدين الفزاري (ت : ٧٢٩) ، إذ كان مدرساً بالمدرسـة البادرائيـة،[10] وتفقـه أيضـا على ابن قاضي شهبه (ت : ٧٢٦)،[11] وذكرنا ختمه القرآن على ابن غيلان البعلبكي وقد قرأ شيئا مـن القراءات على الشيخ محمد بن جعفر (ت : ٧٢٤)،[12] واشتغل في النحو على الشيخ عبد الله الزربنـدي

---

[1]. المزّي، جمال الدين يوسف : تهذيب الكمال في أسماء الرجال، مقدمة المحقق، ١٠٣/١.

[2]. المصدر السابق، ١٢٠/٢، انظر ترجمة ابن الحسباني، طبقات الشافعية، ١١١/٣.

[3]. ابن حجر : النكت الظراف على الأطراف (بهامش تحفة الأشراف)، مقدمة المؤلف، ٥/١.

[4]. ابن حجر : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ٤٥/١ . وانظرابن كثير : البداية والنهاية، ٧٥/١٤.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٠٣/١١.

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٥٧/١٤. *

[7]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١١٩/١٤. *

[8]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٥١/١٤. *

[9]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢٣/١٤ * وانظر ترجمةابن الصلاح في سير أعلام النبلاء، ١٤٠/١٣.

[10]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٥٢/١٤ * والمدرسة البادرائيـة : وقفهـا نجـم الديـن عبـد الله بـن محمـد البـادرائي (ت : ٦٥٥) علـى الشافعية وقد درّس بها هو ثم ابنه من بعده، واشترط على الدارس فيها العزوبه وعدم الالتحاق بغيرها من المدارس ليجمـع بذلـك هـمّ الطالب وهمته على التحصيل. (انظر ابن كثير : البداية و النهاية، ٢٠٩/١٣).

[11]. ابن قاضي شهبة، أبوبكر أحمد : طبقات الشافعية، ٧٢/٤. *

[12]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٤ / ١١٨. *

النحوي (ت : ٧٢٣) [1]وأخذ شيئاً من علم الكـلام والأصـول عـن الشـيخ الأصفهـاني (ت : ٧٤٩)،[2] وأخذ الحساب عن الحاضري،[3] وكان يقابل كتبـه ويصححهـا علـى الشيخ ابـن المتـنزه (ت : ٧١٧) حيث حدد مكاناً في الجامع الأموي ليصحح عليه الناس، وقد صحـح ابـن كثير عليـه كتـاب العمـدة وغيره من الكتب. [4]

هذا عرض مجمـل لشيوخه إذ تعـددوا وتنوعـت علومهـم لتشـمل القـرآن وتفسـيره والحديـث وعلومه والفقه وأصوله والحساب والخط والتاريخ وغير ذلك من العلوم والمعارف.

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٤ /١١١. *

[2]. ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية، ٣ / ٨٥. *

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٤ / ٤١.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٤ / ٨٦. *

المطلب الثاني :

تـــلاميـــذه

إن طبيعة النظم التعليمية وكثرة المؤسسات التربوية والوظائف العلمية التي شغلها ابن كثير لتدل بشكل قاطع على تعدد طلبته وتلاميذه، حتى أن بعضهم كان يرتحل إليه من خارج الشام، منهم ذلك الشاب التبريزي الذي التقى ابن كثير وقال له : "أنا ما خرجت من بلادي إلا إلى القصد إليك وأن تجيزني وذكرك في بلادنا مشهور". [1]

لكن المصادر التاريخية والكتب التي ترجمت لابن كثير التي عثرت عليها لا تعين على استقصائهم اللهم إلا بعض التلاميذ نذكر منهم :

- شهاب الدين أحمد بن حجي (ت : ٨١٦) ، حيث أخذ الحديث عن ابن كثير وكتب ذيلاً على البداية والنهاية. [2]

- أبو بكر عماد الدين الذاذيخي الذي ارتحل إلى دمشق وأخذ عن ابن كثير، وأصبح بعدها مفتياً بحلب، وقد توفي في فتنة تيمور لنك سنة ثلاث وثمانمائة. [3]

- الحسيني الدمشقي (ت : ٧٦٥) صاحب كتاب ذيل طبقات الحفاظ، كان مؤرخاً حافظاً سمع الحديث من ابن كثير. [4]

- سعد الدين سعد بن يوسف النواوي الدمشقي، الذي قرأ على ابن كثير مصنفه في علوم الحديث، وأذن له بالفتوى، وقد توفي سنة خمس وثمانمائة. [5]

- أحمد بن محمد بن أحمد الحريري المعروف بالسلاري الشافعي حيث سمع من ابن كثير وابن رافع (ت : ٧٧٤) وتوفي سنة ثلاث عشرة وثمانمائة. [6]

وأما من أخذ عنه من أولاده فهم :

- عمر فقد عني بالفقه وكتب تصانيف أبيه، وولي الحسبة مراراً ودرس بعدة أماكن. [7]

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٠٩/١٤ والتبريزي نسبة إلى بلدة تبريز أشهر مدن أذربجان. (الحموي، ياقوت : معجم البلدان، ١٣/٢).

[2]. ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية، ١٤/٤. انظر ترجمته في طبقات الشافعية، ١٠/٤.

[3]. المصدر السابق، ٨/٤ . * والذاذيخي نسبةً إلى قرية ذاذيخ إحدى قرى حلب. (الحموي : معجم البلدان، ٣/٣).

[4]. الحسيني الدمشقي : ذيل تذكرة الحافظ، المقدمة، ص ٥٨.

[5]. النعيمي : عبد القادر بن محمد ـ الدارس في تاريخ المدارس : ٢٤١/١.

[6]. ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ١٠٠/٧.

ـ عبد الرحمن حيث كتب كثيراً من تصانيف والده بخطه كذلك، وقد ذيل على تاريخ أبيه.[١]
ـ محمد الذي درس بتربة أم صالح بدمشق بعد وفاة أبيه ومات بالرملة فاراً من تيمور لنك.[٢]
ـ عبد الوهاب وقد سمع الكثير وحدّث بالكثير.[٣]

[٧]. ابن حجر : إنباء الغمر، ٢/٧٥.
[١]. المصدر السابق، ٣/٣٩.
[٢]. المصدر السابق، ٤/٣٢١.
[٣]. المصدر السابق، ٨/٤٤١.

المطلب الثالث :

مؤلفاتـــه

اتخذت بعض مؤلفات ابن كثير المنحى التقليدي، إذ لم يخرج عن مألوف عصره فيها : من شرح لمختصر أو اختصار لمطوّل أو تخريج لأحاديث كتاب بعينه، أو جمع عدة مصنفات في كتاب جديد، كما أن بعضها الآخر كان فيه سبّاقًا فاق فيه من سبقه، وفيما يلي نورد أهم هذه المصنفات :

١ ـ تفسير القرآن العظيم : وهو من أجلّ كتب التفسير ولا غنى لطالب العلم عنه، وهو نوع من التفسير بالمأثور حيث فسّر القرآن بالقرآن أولاً ثم القرآن بالسنة والآثار المسندة مع الكلام عليه جرحاً وتعديلاً، لذا قال عنه السيوطي (ت : ٩١١) : "إنه لم يؤلف على نمطه مثله"،[1] وقد كتب له مقدمة في كتاب منفرد سماه فضائل القرآن، قام بتحقيقه واختصاره عبد المقصود عسكر، وقد نشرته جامعة الأزهر سنة ١٩٩٢م.

٢ ـ التكميل في أسماء الثقات والضعفاء والمجاهيل : جمع فيه تهذيب المزي وميزان الاعتدال مع زيادات وتحريرات عليها في الجرح والتعديل ولم يطبع بعد.[2]

٣ ـ جامع المسانيد والسنن الهادي لأقوم السنن : جمع فيه أحاديث الكتب الستة مع مسند البزار ومسند أبي يعلي الموصلي ومسند الإمام أحمد والمعجم الكبير للطبراني، وقد تم تحقيقه وطباعته، فقد حققه عبد المعطي قلعجي، وطبعته دار الفكر في بيروت سنة ١٩٩٤م.

٤ ـ مختصر ابن الصلاح : اختصر فيه كتاب علوم الحديث لابن الصلاح، وقد قام بشرحه الشيخ أحمد شاكر، وسماه الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث.[3]

٥ ـ تحفة الطالب في معرفة أحاديث مختصر ابن الحاجب : خرج فيه أحاديث مختصر ابن الحاجب،[4] وقام بدراسته وتحقيقه الدكتور عبد الغني بن حميد الكبيسي، وطبعته دار ابن حزم ـ بيروت.

---

[1]. الذهبي، محمد حسين : التفسير والمفسرون، ٢٤٤/١.

[2]. خليفة، حاجي : كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون، ٤٧١/١.

[3]. انظر شاكر، أحمد : مقدمة كتاب الباعث الحثيث، ص ٢-٤، وطبع استقلالاً من قبل دار الفكر ـ بيروت.

[4]. ابن حجر : إنباء الغمر، ٤٦/١.

٦ـ مسند الشيخين : ذكر فيه سيرة أبي بكر وعمر كلٌّ في مجلد على حده، وترجم لهما ذاكراً المولد والفضائل والشمائل، وما رواه كل منهما عن النبي صلى الله عليه وسلم، والمسائل الفقهية التي أفتوا بها.[١]

٧ ـ شرح التنبيه : والتنبيه كتاب في الفقه الشافعي لأبي إسحاق الشيرازي (ت : ٤٧٦) شيخ الشافعية في زمانه قام ابن كثير بشرحه وهو من أول الكتب التي صنفها، ووقف عليه شيخه برهان الدين الفزاري فأعجبه الكتاب، وله كتاب آخر في التنبيه، وهو إرشاد الفقيه إلى معرفة أدلة التنبيه، خرّج فيه أدلة التنبيه، وقام بتحقيقه بهجة أبو الطيب وقد طبع سنة ١٩٩٦م.

٨ ـ الاجتهاد في طلب الجهاد : وهو رسالة بعث بها إلى الأمير منجك، عندما حاصر الفرنج قلعة إياس، وبيّن فيه تجرؤ الفرنج على المدن الإسلامية ليستحث نخوة المسلمين، وقد حققه عبد الله عسيلان سنة ١٩٨١م.

٩ ـ وله رسالة مفصلة في السماع تناول فيها حكم الغناء باستخدام المعازف والآلات الموسيقية.[٢]

١٠ ـ طبقات الشافعية : ابتدأه بترجمة شاملة للإمام الشافعي ذاكرًا مناقبه ثم اتبعه بمناقب أصحابه من بعده، حيث قسّمهم إلى طبقات وأحال كثيراً من تراجم علماء الشافعية في البداية عليه.[٣]

١١ ـ الكواكب الدراري : وقد انتخبه ابن كثير من البداية والنهاية.[٤]

١٢ ـ الفصول في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم : حققه الأستاذ محمد الخطراوي.

١٣ـ سيرة منكلي بغا (ت : ٧٧٤) : وهو نائب السلطنة في دمشق.[٥]

وهناك بعض المؤلفات الكبرى التي لم يقدّر لها أن تكتمل ومن أبرزها شرح صحيح البخاري حيث كان يذكر الحديث وفوائده والنكت المعنوية واللفظية عليه، وقد أشار إليه في البداية والنهاية.[٦]

ومنها الأحكام الكبير حيث وصل فيه إلى كتاب الحج ولكنه لم يكتمل، وذكره أيضا في كتاب البداية، وله أيضاً الأحكام الوسطى والصغرى.[٧]

---

[١]. انظر ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٥٢/٥.

[٢]. حاجي خليفة : كشف الظنون، ١٠٠١/٢.

[٣]. انظر ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٥٧/٦.

[٤]. حاجي خليفة : كشف الظنون، ١٥٢١/٢.

[٥]. السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، ص ٨.

[٦]. حاجي خليفة : كشف الظنون، ٥٥٠/١. وانظر ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٦٦/٤.

[٧]. الداوودي : طبقات المفسرين، ١١٢/١. وانظر ابن كثير : البداية والنهاية، ١١٥/٣.

وقد عكف مجموعة من الباحثين على اختيار موضوع بعينه من البداية والنهاية وإفراده في مصنف خاص، ومن ذلك السيرة النبوية، حيث أخذت من كتاب البداية والنهاية، وقام بتحقيقها مصطفى عبد الواحد وآخرون، ومنها قصص الأنبياء قامت بطبعه دار التراث العربي في القاهرة سنة ١٩٨١، "ومنها بداية الخلق" حققه إبراهيم الجمل، "والمسيح عيسى بن مريم" حققه عبد الرحمن حسن محمود وآخرون في ست عشرة صفحة، ومنها "مولد الرسول صلى الله عليه وسلم" اختاره وحققه ياسين محمد ومحمد الأرناؤوط، و "سيرة عمر بن عبد العزيز" اختاره أحمد الشرباصي.

ولابن كثير أيضاً عدد من الأجزاء المفردة نذكر منها : "الشروط العمرية على نصارى الشام"،[١] "وجزء في بيع أمهات الأولاد"،[٢] "وأحاديث قتل الكلاب"،[٣] وغيرها من الأجزاء.

---

[١]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٦١/٧.

[٢]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٩٢/٤.

[٣]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٣٨/١٤.

المبحث الثالث :

مشاركته في الحياة العامة

كانت المشاركة في وظائف الدولة من قضاء وخطابة وإفتاء وتدريس توكل للعلماء، وكغيره من العلماء تولى ابن كثير العديد من الوظائف، فمن وظائف التدريس التي تولاها تدريسه في المدرسة النجيبية سنة ست وثلاثين وسبعمائة،[1] وتولى مشيخة الحديث في تربة أم صالح عوضاً عن الحافظ الذهبي،[2] وتولى تدريس التنكزية التي أنشأها نائب السلطنة تنكز، وتولى مشيخة دار الحديث الأشرفيَّة ثم ما لبث أن أخذت منه،[3] وتولى الخطابة في مسجد بهاء الدين المرجاني بالمزة الفوقانية،[4] وكان أيضاً أحد المفتين بدمشق، فقد دعا نائب السلطنة القضاة وولاة الأمر لبحث مسألة تخريب المنازل التي بالربوة والحمام الذي هناك لتلويثه الماء الذي يشرب منه الناس، فأمر بإحضار المفتين فعلق ابن كثير على ذلك قائلاً: "وكنت فيمن طلب يومئذٍ إلى الربوة".[5]

وكان ابن كثير مشاركاً في الأحداث التي تجري داخل السلطنة آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر، حتى لو كان المسيء نائب السلطنة نفسه، فقد أنكر على نائب السلطنة عندما كلف النصارى بأموالٍ عدا الجزية لعمارة مراكب لغزو الفرنج وكان مما قاله له : " إنهم متى كانوا باقين على الذمة يؤدون الجزية ملتزمين بالذلة والصغار، وأحكام الملة قائمة، لا يجوز أن يؤخذ الدرهم الواحد الفرد فوق ما يبذلونه من الجزية ".[6]

وكان يذهب للسلام على الخلفاء وتهنئة الأمراء، فعندما قدم الخليفة المعتضد بالله أبو الفتح ابن بكر دمشق سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة ذهب ابن كثير للسلام عليه والترحيب به،[7] وعندما

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٩٦/١٣.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٣٦/١٤. وتربة أم صالح: موسسة تعليمية وقفها الصالح إسماعيل بن العادل (ت : ٦٤٨) بدمشق وتضم مدرسة ودار حديث وتعرف أيضا بالمدرسة الصالحية. (ابن كثير : البداية والنهاية، ١٩١/١٣).

[3]. ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية، ٨٦/٣. والمدرسة التنكزية : هي التي وقفها الأمير تنكز نائب دمشق وتضم دار حديث ودار قرآن وقد الحق بها اوقافا كثيرة. النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ٩٣/١-٩٤. ودار الحديث الأشرفية : هي التي وقفها الأشرف مظفر الدين موسى بن العادل بدمشق سنة ثمان وعشرين وستمائة وتولى مشيختها ابن الصلاح (ت : ٦٤٣) . (النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس، ١٥/١).

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٧٣/١٤.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٧٣/١٤.

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٢٩/١٤.

[7]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٥٧/١٤.

تولى الأمير ناصر الدين بن الأقوش نيابة بعلبك سنة أربع وخمسين وسبعمائة توجه ابن كثير لتهنئته بذلك.[1]

هذه نماذج من الوظائف التي شغلها ابن كثير والمشاركات التي ساهم فيها، والتي تدّل على مشاركته في مختلف الجوانب السياسية والاجتماعية والعلميّة وغيرها.

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٤/٢٦٠.

المبحث الرابع :

وفاته وثناء العلماء عليه

توفي ابن كثير ـ رحمه الله ـ في السادس والعشرين من شعبان سنة أربع وسبعين وسبعمائة في دمشق.[1]

ثناء العلماء عليه :

لقد جمع ابن كثير بين كرم الأخلاق ودقة الضبط، والاستحضار وسعة الحفظ، وكثرة التصنيف، ولذا فقد أثنى عليه غير واحد من العلماء الأجلاء، فقد شهد له شيخه الذهبي بسعة علمه فقال: "الإمام المحدث المفتي البارع، فقيه متفنن ومحدث متقن، ومفسر نقال".[2]

وأثنى عليه كذلك ابن حبيب (ت : ٧٧٩)، فقال : "إمام ذوي التسبيح والتهليل وزعيم أرباب التأويل، سمع وجمع وصنف وأطرب الأسماع بقوله، وشنف وحدث وأفاد وطارت أوراق فتاواه في البلاد، واشتهر بالضبط والتحرير وانتهت إليه رئاسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير.[3] ويصفه تلميذه ابن حجي بقوله : "كان أحفظ من أدركناه لمتون الحديث، وأعرفهم بتخريجها وحال صحيحها وسقيمها، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك، وما أعرف أني اجتمعت به على كثرة ترددي إليه إلا واستفدت منه".[4]

ونختم بثناء الحافظ ابن حجر (ت : ٨٥٢) عليه حيث يقول: "كثير الاستحضار جيد الفهم".[5]

---

[1]. ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ٩٧/١١.

[2]. ابن حجر : الدرر الكامنة، ٤٠٠/١.

[3]. ابن حجر : إنباء الغمر، ٤٦/١. وانظر ترجمة ابن حبيب : في طبقات الشافعية، ١١٧/٣.

[4]. ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب، ٢٣١/٦.

[5] ابن حجر : إنباء الغمر، ٤٦/١. انظر ترجمة ابن حجر في شذرات الذهب، ٢٧٠/٧.

المبحث الخامس :

الحياة السياسية في عصر ابن كثير

وتحدد هذه الفترة من مطلع القرن الثامن وحتى نهاية الربع الثالث منه، أي من سنة سبعمائة إلى سنة أربع وسبعين وسبعمائة، وقد خضعت مصر والشام في هذه المرحلة لسلطان دولة المماليك، إذ برزت هذه الدولة واشتد ساعدها بعد قيامها بالتصدي للغزو التتري الذي صوّب سلاحه نحو بلاد المسلمين.

وبلغ هذا الخطر غايته بعد سقوط بغداد سنة ست وخمسين وستمائة، وما تبع ذلك من تقتيل وتشريد ونهب، لتجد هذه الدولة نفسها أمام مواجهة حقيقية تحتاج إلى حملة صادقة وصبر عظيم وإعداد مسبق، فحقق الله على أيديهم النصر في معركة عين جالوت بعد مرور عامين على سقوط بغداد.[1]

وقد تعاقب على تولي الحكم في دولة المماليك أسرتان : الأولى أسرة الظاهر بيبرس (ت : ٦٧٦) التي امتد حكمها من سنة ثمان وخمسين وستمائة إلى سنة ثمان وسبعين وستمائة، والأسرة الثانية أسرة المنصور قلاوون (ت : ٦٨٩) التي حكمت من سنة ثمان وسبعين وستمائة إلى سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة.[2]

وشهد مطلع القرن الثامن استقرارا سياسيا نتج عنه تطور في المجالات الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، وتولى الحكم في السلطنة السلطان الناصر محمد بن المنصور قلاوون، والذي امتد حكمه من سنة ثلاث وتسعين وستمائة وحتى وفاته سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، وقد تخلل فترة حكمه اضطرابات أدت إلى عزله في المرة الأولى واعتزاله في المرة الثانية،[3] وبعد وفاته سنة إحدى وأربعين وسبعمائة عمّ النزاع والشقاق بين أولاده، وغالباً ما ينتهي حكم أحدهم بالقتل أو العزل، ولكن في الثلث الأخير من هذا القرن عاد الاستقرار للدولة وذلك باستمرار الأشرف في الحكم عشر سنين.[4]

---

1. انظر سقوط بغداد، ابن كثير : البداية والنهاية، ٢١٣/١٣-٢٢٣.
2. أحمد شاكر : التاريخ الإسلامي، ٣٧/٧. انظر ترجمة الظاهر بيبرس، ابن كثير: البداية : ٢٩٠/١٣، والمنصور قلاوون : المصدر نفسه، ٣٣٦/١٣.
3. انظر ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٥٤/١٣ و ٣/١٤.
4. أحمد شاكر : التاريخ الإسلامي، ٣٥/٧ - ٣٦.

ونخلص إلى القول بأنّ هذه المرحلة شهدت استقراراً في نصفها الأول وفي آخرها واضطراباً بينهما، وكان من أهم أسباب هذه الاضطرابات تنافس الأمراء وتدخلهم في أمور السلطنة، وضعف السلطان وصغر سنه وانصرافه إلى اللهو واللعب .

أما الخلافة فهي تمثل وحدة الدولة الإسلاميّة وتطبيق الشريعة فيها، وقد أصبحت في هذه المرحلة خلافة رمزية بحيث لا يتعدى دور الخليفة مبايعة السلطان وإعطاء الصفة الشرعية لحكمه، وخصوصاً حكام المماليك وهم اشدّ الناس حاجة إلى سند شرعي يقف خلف ملكهم ويدعمهم بسبب تعرض نسبهم للطعن،[1] وكانت العملة تصك باسم الخليفة ويخطب له على المنابر، وأما المتحكم بشؤون الدولة وجميع وظائفها فالسلطان ونوابه، وللسلطان صلاحيات عزل الخليفة أو نفيه، فقد قام السلطان الناصر محمد بعزل الخليفة المستكفي أبي الربيع سليمان ونفاه إلى جزيرة قوص في مصر بعد ما طلب منه التنازل عن جميع صلاحياته، وبقي فيها حتى توفي سنة أربعين وسبعمائة.[2]

وأما دمشق بلد ابن كثير فهي عاصمة الشام وأكبر مدنها ولها ما لمصر من الوظائف وليس ذلك إلا لدمشق من حيث قضاة المذاهب الأربعة وقاضي العسكر وخزائن السلاح، وقد امتدت نيابات دمشق لتشمل نيابات عديدة منها غزة وأعمالها وبعلبك وأعمالها وحوران وأعمالها وحمص وضواحيها بالإضافة إلى مدن دمشق الداخلية مثل الصالحية والعقيبة وغيرها.

وكان تعيين الوظائف في دمشق يتم بمرسوم سلطاني من القاهرة،[3] وكان لدمشق دور في الأحداث السياسية من حيث تعيين سلطان وعزل آخر.[4]

وأما قلعة دمشق فقد كان لها دور بارز في الدفاع عن الشام، ومنها يجرّد الرجال وأرباب الصنائع إلى جميع قلاع الشام.[5]

---

[1]. المقريزي، أحمد بن علي : الخطط والآثار، ٩/٣.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٩٩/١٤. وانظر ماجد، عبد المنعم : نظم دولة سلاطين المماليك، ٣٧/١ وما بعدها.

[3]. العمري، ابن فضل الله : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ص ١٨١ - ١٨٧ باختصار شديد.

[4]. انظر ابن كثير : البداية والنهاية، ٥٣/١٤ وما بعدها.

[5]. ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار، ص ٦٦.

المبحث السادس :

منهج ابن كثير في تأليف البداية والنهاية

بدأت الكتابة في التاريخ الإسلامي مبكراً، وقد أورد القرآن كثيراً من تاريخ الأقوام السابقين وقصص الأنبياء والمرسلين، وفي القرون الأولى تطورت الكتابات التاريخية لتشمل كتب السير والطبقات والتراجم والمغازي والفتوح، واقتصرت بعض الكتب على التأريخ لأعلام بارزين مثل الخلفاء والملوك والقضاة، واقتصرت كتب أخرى على التأريخ لبلد بعينه، وظهرت الكتب التي تشمل هذا كلّه والتي تسمى كتب التواريخ العامة،[1] ويصنف كتاب البداية والنهاية من ضمنها.

المطلب الأول :

مضمون الكتاب

لقد حدد ابن كثير في مقدمة كتابه البداية والنهاية ما ضمّنه في هذا الكتاب، فقال : "فهذا الكتاب نذكر فيه بعون الله وحسن توفيقه ما يسّره الله بحوله وقوته من ذكر مبدأ المخلوقات من خلق العرش والكرسي والسماوات والأراضين، وما فيهن وما بينهن من الملائكة والجانّ والشياطين وكيفية خلق آدم عليه السلام، وقصص النبيين، وما جرى مجرى ذلك من أيام بني إسرائيل وأيام الجاهلية حتى تنتهي النبوة إلى أيام نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فنذكر سيرته كما ينبغي، فتشفي الصدور والغليل وتزيح الداء عن العليل، ثم نذكر ما بعد ذلك إلى زماننا ونذكر الفتن والملاحم وأشراط الساعة ثم البعث والنشور وأهوال القيامة".[2]

ويمكننا تقسيم هذا الكتاب بناء على هذا النص إلى أربعة أقسام :

القسم الأول : من مبدأ الخلق حتى بعثة النبي (ﷺ)، وقد استغرق هذا القسم من الكتاب الجزأين الأول و الثاني.

القسم الثاني : سيرة النبي (ﷺ) مع مغازيه وشمائله ودلائل نبوته، وقد توسع ابن كثير في ذلك فاستغرق هذا القسم أربعة أجزاء من الثالث إلى ما قبل السابع بقليل.

---

[1]. انظر بتفصيل، السخاوي : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٤/١.

القسم الثالث : من وفاة النبي (ﷺ) حتى سنة سبع وستين وسبعمائة، وقد استغرق ثمانية أجزاء من السابع حتى الرابع عشر.

القسم الرابع : الفتن والملاحم وعلامات الساعة وأهوالها والقيامة وأحداثها والجنة والنار وما أعد الله فيهما، وقد طبع هذا القسم في كتاب مستقل في أغلب الطبعات إلا الطبعة الأخيرة والتي حققها صدقي العطار، وقامت دار الفكر بنشرها سنة ١٩٩٦م، فقد ألحق هذا القسم بالكتاب وقد وسمه مصنفه "بنهاية البداية والنهاية في الفتن والملاحم".

المطلب الثاني :

أبرز السمات في منهجية تأليف الكتاب

يعدّ كتاب البداية والنهاية من الكتب الموسوعيّة والتي تحوي حوادث الزمان وصروفه وتراجم مشاهيره وأعيانه، وأضاف ابن كثير إلى كتابه كثيراً من الأحاديث النبوية والتي بلغت ما يقارب سبعة آلاف وخمسمائة وثلاثين حديثاً، وكان يتكلم على رواتها جرحاً وتعديلاً ويحيلها على الكتب التي خرّجتها مستعيناً بسعة حفظه وإتقانه للحديث، ويورد كذلك المسائل الفقهية بتفصيل أحياناً وبإحالة إلى كتابه الأحكام الكبير أحياناً أخرى، وكذلك في السيرة النبوية وأحداثها يورد الآيات التي نزلت مبيناً سبب نزولها مُحيلاً كثيراً من تفسيرها إلى كتابه تفسير القرآن، وكأنه من خلال هذا الكتاب جمع من كل علم طرفاً وأحال على كل كتاب من كتبه شيئاً. و فيما يلي نورد السمات العامة التي تميز بها منهج المؤلف في الكتاب :

أولاً – استخدام نظام الحوليات في سرد الحوادث :

لقد تسلسل ابن كثير في ذكر الأحداث حسب السنوات الهجرية ذاكراً السنة وأحداثها متبعاً ذلك بأشهر وفَياتها وهذا ما يعرف بنظام الحوليات، ويعدّ ابن جرير الطبري (ت : ٣١٠) أول من دون التاريخ وفق هذا النظام في كتابه "تاريخ الأمم والملوك".[١]

وقد أُخذ على المنهج الحولي تجزئته للحادثة الواحدة الممتدة عبر السنين،[٢] وهذا ما انتقده ابن الأثير (ت : ٦٣٠) في كتابه "الكامل في التاريخ" حيث قال : "ورأيتهم يذكرون الحادثة الواحدة في سنين ويذكرون منها في كل شهر أشياء، فتأتي الحادثة مقطعة لا يُحصل منها على غرض ولا تُفهم إلا

[١]. انظر ترجمة ابن جرير في سير أعلام النبلاء، ٢٦٧/١٤.

[٢]. روزنتال، فرانز : علم التاريخ عند المسلمين، ص ١٠٢.

بعد إمعان النظر، فجمعت أنا الحادثة في موطن واحد وذكرت كل شيء منها في أي شهر أو سنة كانت فأتت متناسقة متتابعة قد أخذ بعضها بركاب بعض". [1]

ونجد أن ابن كثير قد جزّأ الحادثة حسب وقوعها وتطورها، فنجد أن قصة تولي عز الدين أيبك السلطنة بعد شجرة الدر قد جزّأها ابن كثير وذكرها في أحداث سنة سبع وأربعين وثمان وأربعين وستمائة فيذكر في كل سنة منها جزءًا. [2]

ومن جهة أخرى نجد خلافاً بين كتّاب الحوليات في ذكر سند الرواية أو حذفه، فابن جرير الطبري يورد في تاريخ الأمم سند الرواية للتأكد من صحتها وصدق راويها لمن أراد أن يستبين ذلك، بينما يحذف ابن كثير السند من أجل الاختصار والتيسير على القارئ.

وأما الأحداث التي وقعت قبل الهجرة فقد كان ابن كثير يوردها في إطار الموضوع الواحد معتمداً على الراجح في التسلسل الزمني لها، فيذكر مثلاً قصة إبراهيم عليه السلام وكل ما يتعلق به من فضائله وذريته والأحداث التي واجهها، ويعتمد في ترتيب ذلك كله على القرآن الكريم والحديث.

وأما الأخذ من الإسرائيليات فيوضح موقفه منها، حيث يقول : "ولسنا نذكر من الإسرائيليات، إلا ما أذن الشارع في نقله مما لا يخالف كتاب الله وسنة رسول الله (ﷺ)، وهو القسم الذي لا يُصدّق ولا يُكذّب"،[3] وأما الدافع لإيرادها فيشير إليه بقوله : "فنذكره على سبيل التحلّي به لا الاحتياج إليه".[4]

ثانياً – منهجهُ في نقل الأحداث ونقدها :

مع أن كتاب البداية والنهاية يصنف ضمن التواريخ العامة والتي من المفترض أن تشمل أحداث كثيرٍ من الأقطار الإسلامية إلا أننا بقليل من الاستقراء والتتبع نجد أن ابن كثير قد اهتم بنقل الأحداث السياسية بعد عصر السيرة، فقد توسع في نقل أخبار الفتوحات وأورد تفاصيل الفتن التي ابتدأت من خلافة عثمان رضي الله عنه مروراً بالنزاعات بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، وأغلب الثورات والاضطرابات والفتن التي واجهتها دولة الخلافة سواء الأموية أم العباسية.

أما النمو الاقتصادي والتطور الإداري والواقع الاجتماعي فلا يشغل إلا حيزاً بسيطاً مقارنة مع الأحداث السياسية .

---

[1]. ابن الاثير، عز الدين ابو الحسن علي بن محمد : الكامل في التاريخ، ٤/١. وانظر ترجمة ابن الأثير في سير أعلام النبلاء ، ٣٥٣/٢٢.

[2]. انظر ابن كثير : البداية والنهاية، ١٨٨/١٣-١٩٠.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٥/١.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٥/١.

وفي حكم الدولتين الأيوبية والمملوكية اقتصر الكتاب على ذكر أحداث مصر والشام وتراجم أعيانهما غالباً، حيث تركزت أحداث السلطنة في هذين البلدين، وأما أخبار المغرب وإفريقية والجزيرة العربية وبلاد ما وراء النهر فلا ترد إلا نادرًا، وبعبارة وجيزة، أو جملة عابرة، وذلك نتيجة لانقسام دولة الخلافة وتعدد سلاطينها.[1]

ويتسلسل في ذكر حوادث السنة فيبدأ بتسمية الخليفة والسلطان ونوابه والوزراء، مُتبعاً ذلك ذكر أهم الأحداث السياسية والكوارث الطبيعية والنزاعات، سواءً الداخلية بين الأمراء، أم الخارجيّة، متمثلة بالغزو الصليبي أو التتري أو كليهما معًا، وينهي أحداث السنة بذكر وفيات المشاهير والأعيان فيها.

وأما نقد الأحداث فقد تميزت الكتابات التاريخية في القرون الثلاثة الأولى بنقل الروايات دون التعرض لمناقشتها أو نقدها والتعليق عليهما، وأبرز مثال على ذلك تاريخ الطبري.

وبدأ ابن الأثير بنقد الروايات وتوجيهها، و اقتفى أثره بمزيد من التوسع ابن كثير، ثم تكاملت في إطار نظرية تاريخية عند ابن خلدون في كتابه "العبر"، فربط الأسباب بالمسببات في إطار سنن إلهية لا تحيد عنها الأمم.[2]

ومن الأمثلة على نقد الأحداث عند ابن كثير تعليقه على خلع الملك السعيد بن الظاهر بيبرس (ت : ٦٧٨) سنة ثمانٍ وسبعين وستمائة بسبب لهوه ولعبه، فقال : "فإن لعب الملوك والأمراء وغيرهم دليلٌ على زوال النعيم وخراب الملك وفساد الرعية".[3]

ويبيّن أيضًا سنة الله فيمن يسب صحابة نبيه -رضي الله عنهم وهم أهل التشيع والرفض-، فيقول : "لا جرم أن الله لا ينصر أمثال هؤلاء، بل يُديل عليهم أعداءهم لمتابعتهم وتقليدهم سادتهم وكبراءهم وآباءهم وتركهم أنبياءهم وعلماءهم، ولهذا لما ملك الفاطميون بلاد مصر والشام وكان فيهم الرفض، استحوذ الفرنج على سواحل الشام وبلاد الشام كلها حتى بيت المقدس، والنواقيس النصرانية والطقوس الإنجيلية تضرب في شواهق الحصون والقلاع".[4]

وشمل منهجه النقدي، أيضاً الحكم على الروايات، فينقل الرواية مبيناً صحتها أو ضعفها ومُرجحاً بينها وبين غيرها أحيانا، ومن أمثلة ذلك رواية ابن جرير الطبري التي ينسبها لعلي بن أبي

---

[1]. انظر مثالا على ذلك أخبار المغرب، ابن كثير : البداية والنهاية، ١٠٠/١٤.

[2]. روزنثال : علم التاريخ عند المسلمين، ص ١٤١.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٠٤/١٣. انظر ترجمته في البداية، ٣٠٦/١٣.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٥٦/١١.

طالب، والتي تضمنت قوله لعبد الرحمن بن عوف بعد مبايعته عثمان بالخلافة : "خدعتني"، فيرد ابن كثير هذه الرواية حيث يقول : "إلى غير ذلك من الروايات المخالفة لما ثبت في الصحاح فهي مردودة على قائليها وناقليها"،[1] وعن الروايات التي تنقل تلعثم عثمان بن عفان -رضي الله عنه- في خطبته الأولى يقول : "ولكن لم أرَ هذا بإسناد تسكن النفس إليه"،[2] وعن تزوير المغيرة بن شعبة لكتاب معاوية رضي الله عنهما والمتضمن إمرته للحج، يقول ابن كثير عن هذه الرواية : "وهذا الذي نقله ابن جرير لا يقبل ولا يظن بالمغيرة -رضي الله عنه-".[3]

ثالثا – منهجهُ في تراجم الأعيان والمشاهير :

يعّد ذكر تراجم الأعيان أمراً مكملاً للأحداث التاريخية لأنّ هذه الأحداث يصنعها ويقف من ورائها رجال وفي ذكر سِيرهم وهَديهم وحِكَمهم عبرة، إذ لأقوال السلف وقعها في القلوب.

وجلّ كتب التاريخ تورد التراجم، وبعضها اقتصر على ذكر الأعيان سواءٌ كانوا خلفاء أم أمراء أم علماء أم قضاة، وقد سار ابن كثير في ذكر التراجم على نهج من سبقه، بحيث يذكر الترجمة في سنة الوفاة، وهذا هو المنهج المتبع غالباً لإمكانية تحديد سنة الوفاة بدقة، وهذا أيسر بكثير من تحديد سنة الولادة، لذلك اتبع المنهج نفسه جلّ المؤرخين مع اختلاف بسيط بينهم.[4]

والضابط فيمن يترجم له ابن كثير الشهرة ووقوع السؤال عنه دون اعتبارٍ لدينه أو مركزه أو وظيفته، ويذكر في التراجم الاسم وأهم المراتب والألقاب التي برز فيها صاحب الترجمة، مثل ذكر المقري والناظر والنحوي وغيرها من الصفات المميزة له، وقد ينقل شيئاً من الأقوال والعظات البليغة، وإن كان شاعراً أو رد شيئاً من شعره.

وأمّا إن كان صاحب الترجمة ممن أُثيرت حوله شبهات وأقاويل، فإنه يورد ماله وما عليه بمنهج دقيق، دون تحامل أو تعصب ملتزماً بقوله تعالى: **﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين ءامنوا ربنا إنك رؤوفٌ رحيم﴾**.[5]

ففي ترجمة الحجاج (ت : ٩٥) مثلاً يذكر حبه للقرآن وأهله، وما فتح الله على يديه من بلاد مع عدم إغفاله سفكه للدماء فيقول : الحجاج أعظم ما نقم عليه وصح من أفعاله سفك الدماء وكفى

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٥٢/٧.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٥٣/٧.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٧/٨.

[4]. انظر معروف، بشار عواد : الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الإسلام، ص ٣١٩.

[5]. سورة الحشر، الآية : ١٠.

به عقوبة عن الله، وقد كان حريصاً على الجهاد وفتح البلاد، وكان فيه سماحة بإعطاء المال لأهل القرآن فكان يُعطي على القرآن كثيراً.[1]

ويشكك ابن كثير في الروايات التي تتهمه بالكفر وتحكم عليه بسكنى جهنم فيقول : "فإن كان قد تاب منها وأقلع عنها وإلاّ فهو باقٍ في عهدتها ولكن نخشى أنها رويت عنه بنوع من زيادةٍ عليه فإن الشيعة كانوا يبغضونه جداً بوجوه وربما حرّفوا عليه بعض الكلم وزادوا فيما يحكونه عنه بشاعات وشناعات".[2]

وأما يزيد بن معاوية (ت : ٦٤) فيذكر ماله من صفات حسنة، كالحلم، والكرم، والشجاعة، وحسن الرأي في الملك، ولا يُهمل ما أخذ عليه من إقباله على الشهوات، وترك بعض الصلوات في بعض الأوقات، وإماتتها في غالب الأوقات،[3] وأما ما ينقل عنه من زندقة وكفر فيرده قائلاً : "وأمّا الروافض فيشنعون عليه ويفترون عليه أشياء ليست منه، ويتهمه كثيرٌ منهم بالزندقة، ولم يكن كذلك".[4]

ويقول عن مقتل الحسين بن علي بكربلاء في خلافة يزيد : "ولكن لم يكن ذلك من علم منه، ولعله لم يرض به ولم يسؤه"،[5] ومن الأمثلة على إنصافه أيضًا ما ذكره عند ترجمة والده، فبعد أن ذكر فضله وعلمه أشار إلى ما في شعره من مزالق، فعلق على شعره بقوله : "والله يغفر له ما صنع من الشعر".[6]

ومما يؤخذ على ابن كثير في منهجه في التراجم إغفاله تراجم كثيرة لكبار العلماء، أمثال عبد الرحمن بن المهدي (ت : ١٩٨)، وسفيان بن عيينة (ت : ١٩٨)، ويحيى بن معين (ت : ٢٣٣)، وعلي ابن المديني (ت : ٢٣٤)،[7] ويختصر ترجمة آخرين أمثال أبي سلمة الخلال (ت : ١٣٢)، وأبي حنيفة (ت : ١٥٠)، ومالك(ت : ١٧٩)، والبيهقي (ت : ٤٥٨)،[8] وفي الوقت ذاته يطيل تراجم الشعراء،

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣٩/٩. انظر ترجمة الحجاج بن يوسف في البداية، ١٢٣/٩.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣٩/٩.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٣٣/٨. انظر ترجمة يزيد بن معاوية في البداية :، ٢٢٩/٨.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٣٤/٦.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٣٤/٦. انظر ترجمة الحسين بن علي، الذهبي : سير اعلام النبلاء، ٢٨٠/٣.

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٥/١٤.

[7]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٥٥/١٠، ٣٢٥ - ٣٢٦.
انظر تراجمهم : سير أعلام النبلاء، عبد الرحمن بن المهدي، ١٩٢/٩، سفيان بن عيينه، ٤٥/٨، يحيى بن معين، ٧١/١١، علي بن المديني، ٤١/١١.

[8]. ابن كثير /١١٠، ١٨٠و١٢/١٠٠. انظر تراجمهم : سير أعلام النبلاء، أبوسلمة الخلال، ٧/٦، أبو حنيفة : ٣٩٠/٦، مالك، ٤٨/٨، البيهقي، ١٨/ ١٦٣.

أمثال جرير (ت :١١٠)، وأبي نواس (ت : ١٩٥)، وأبي تمام (ت : ٢٣١)، والظرفاء، أمثال أشعب (ت : ١٥٤)، وأبي دلامة (ت :١٦١).[١]

والغريب في الأمر أن ابن كثير نفسه ينتقد ابن خلكان (ت :٦٨١) في سلوكه هذا النهج، فقد عقّب على إغفال ابن خلكان لزندقة بن الراوندي (ت : ٢٩٨)، فقال : "ولا كأن الكلب أكل له عجيناً على عادته في العلماء والشعراء، فالشعراء يطيل تراجمهم والعلماء يذكر لهم ترجمة يسيرة والزنادقة يترك ذكر زندقتهم"،[٢] ولا نجد تعليلاً لهذا الموقف ولعله قد عوّل كثيراً في ذلك على تراجم كتابيه التكميل وطبقات الشافعية.

رابعًا – أسلوبه في الكتابة :

جمع ابن كثير في أسلوبه بين دقة العبارة، وحُسن استخدام السجع، وطريقة التعقيب على المواقف بعبارة موجزة.

فأمّا السجع فقد وضع الكلمات في نصابها وبدقة متناهية، إذ أنّ استخدام السجع يؤدي إلى التكلف أحيانًا، ومن أمثلة سجعه اللطيف قوله في وفاة الظاهر بيبرس: "ولكن البلاد قد فقدت أسدها بل أسدَّها، وأشدّها بل الذي بلغ أشُدّها، وكلما قامت فرقة مارقة من طوائف الطغام إلى حومة الإسلام صدّها وردّها".[٣]

ومن تعقيباته على المواقف ما ذكره في ترجمة ابن الزملكاني (ت : ٧٢٧) عند ذهابه إلى القاهرة ليتولى قضاء قضاة الشام فعاجلته منيته قبل وصوله، فعقّب على ذلك بقوله تعالى : **﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فُعلِ بأشياعهم﴾**،[٤] ومن التعقيبات أيضاً في ترجمة الأمير بهادرآص (ت : ٧٣٠) قوله : "وهو ممن اجتمعت فيه الآية الكريمة : **﴿زُيّنَ للناسِ حبُ الشهواتِ من النساء﴾**،[٥] وكثير هي التعقيبات اللطيفة ولكن نكتفي بما أوردناه.

---

[١]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٠/١١٤،١٣٦. انظر تراجمهم : سير أعلام النبلاء، جرير، ٤/٥٩٠، أبو نواس، ٩/٢٧٩، ابو تمام، ١١/٦٣، أشعب، ٧/٦٦، أبي دلامة، ٧/٣٧٤.

[٢]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١١/١٢١. *

[٣]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣/٢٩٢.

[٤]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٤/١٣٤، سورة سبا، آية ٥٤.

[٥]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٤/١٥٦، سورة النساء، آية ١٤. *

ومما أخذ على ابن كثير في هذا المجال ذكره لكلمات عاميّة دون بيان لمعناها ومن هذه الكلمات "البرواناه"،[1] و "الطبلخانات"،[2] وهي كلمات أصلها تركي وقد استخدمها المماليك.

خامسًا – المصنفات التي استعان بها ابن كثير :

استقى ابن كثير تاريخه من العديد من المصنفات التي ألفها من سبقه، ففي السيرة النبوية أكثر من الأخذ عن ابن إسحاق (ت : ١٥١) مسترشداً بقول الشافعي : "من أراد المغازي فهو عيال على ابن إسحاق"،[3] وأخذ في المغازي عن موسى بن عقبة (ت : ١٤١)، وكان يستأنس أحياناً بروايات الواقدي (ت : ٢٠٧).[4]

وبعد عصر السيرة، اعتمد على تاريخ الأمم والملوك للطبري لما تميّز به من ترتيب وتنظيم وجمع للروايات، وأخذ كذلك عن ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ، وكانت العلاقة بين الكتب الثلاثة – تاريخ الطبري والكامل والبداية ـ تكاملية، فابن جرير يتوسع في بسط الروايات وجمعها، وابن الأثير يقوم بتلخيصها، وابن كثير يعمل على اختصارها، وأكد هذا ابن كثير في أكثر من موضع حيث يقول : "وقد حرره مبسوطًا ابن جرير، ولخصه ابن الأثير، واختصره ابن كثير".[5]

ومن الكتب التي اعتمدها أيضاً المنتظم لابن الجوزي (ت : ٥٩٧)، حيث يقول : "قد أوردنا في كتابنا هذا كثيرًا منه من حوادثه وتراجمه"،[6] وأخذ أيضًا عن ابن عساكر (ت : ٥٧١) في تاريخ دمشق وأبي المظفر سبط ابن الجوزي في كتابه "مرآة الزمان"، حيث وصف ابن كثير الكتاب بقوله : "وهي من أجمع التواريخ وأكثرها فائدة"،[7] وأخذ أيضًا عن الذهبي في كتابه "تاريخ الإسلام"، وابن خلكان في كتابه "وفيات الأعيان"، واعتمد من سنة خمس وستين وستمائة حتى سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة على الانتقاء من تاريخ البرزالي، والذي ذّيل به البرزالي على مختصر تاريخ دمشق لأبي شامة(ت : ٦٦٥). [8]

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٦٧/١٣. وتعني الحاجب، واطلق في دولة السلاجقة على الوزير الأكبر. (دهمان : معجم الألفاظ التاريخية، ص ٢٣).

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٦٣/١٤. وتعني موسيقى الجيش أو الموسيقية السلطانية، دهمان : معجم الألفاظ التاريخية، ص ١٠٦.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٩٣/٣.

[4]. انظر تراجمهم في السير، ابن اسحاق، ٣٣/٧، موسى بن عقبة، ١١٤/٦، الواقدي، ٤٥٤/٩.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٤٦/١١.

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣١/١٣. انظر ترجمة ابن الجوزي في السير : ٣٦٥/٢١.

[7]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٣/١٣.

[8]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٩٥/١٤. انظر في اعتماده هذه الكتب فهارس الأعلام الملحقة بالكتاب، وانظر ترجمة أبي شامة، البداية، ٢٦٤/١٣.

وأشرنا سابقاً إلى منهج ابن كثير الانتقائي للروايات، إذ لا يورد الرواية على غاربها، بل قد يخالف غيره في التأريخ لبعض الحوادث، فقد أرّخ حرق جامع دمشق سنة إحدى وستين وأربعمائة، بينما أرخ ابن الجوزي وابن الساعي (ت : ٦٧٤) والذهبي الحادثة نفسها سنة ثمانٍ وخمسين وأربعمائة.[1]

سادساً – الذيول التي أُلحقت بكتاب البداية والنهاية :

اتفق المؤرخون على أن ابن كثير استمر في كتابة تاريخه حتى سنة ثمانٍ وثلاثين وسبعمائة حيث يقول ابن كثير عقب ترجمة وفيات هذه السنة : "وإلى هنا انتهى ما كتبته من لدن خلق آدم إلى زماننا هذا و لله الحمد و المنة. كتبه إسماعيل بن كثير بن ضو القرشي الشافعي عفا الله عنه آمين"،[2] فالمشهور أن تاريخ ابن كثير انتهى إلى هذه السنة،[3] وهو آخر ما لخصه من تاريخ البرزالي، ولكن الكتاب يحوي حوادث السنين حتى نهاية سنة سبع وستين وسبعمائة.

لذلك تشعبت الأقوال فيمن أكمل الكتاب خصوصاً أن صيغاً وردت تدل على إكماله بعد وفاة ابن كثير، فنقرأ في إحدى العبارات : "شيخنا الحافظ عماد الدين بن كثير ـ رحمه الله ـ"،[4] وأحيانًا أخرى يذكر بصيغة المتكلم، فمثلاً في ترجمة وفيات سنة سبع وستين وسبعمائة نقرأ : توفي الشيخ نور الدين علي بن أبي الهيجاء الكركي، كان معنا في المقري والكتّاب، وختمت أنا وهو في سنة إحدى عشرة".[5]

ومن هنا تتوارد عدة احتمالات فيمن أكمله، فيحتمل أن ابن كثير أملاه على ولده عبد الرحمن بعدما ضعف في آخر عمره، وهذا ما نص عليه السخاوي (ت : ٩٠٢)، حيث يقول في أحداث سنة أربع وسبعين وستمائة في كتابه "وجيز الكلام" : "وفي أثناء شعبانها انتهى تاريخ العماد ابن كثير، وكان من حين ضرره وضعفه يملي فيه على ولده عبد الرحمن"،[6] ويؤكد هذا أن ابن قاضي شهبه (ت : ٨٥١) رأى بخط ابن كثير تكملة البداية من سنة إحدى وأربعين وسبعمائة إلى سنة إحدى وخمسين وسبعمائة وأيضاً سنة تسع وخمسين ومن اثنتين وستين حتى ثمانٍ وستين وسبعمائة.[7]

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٠٤/١٢. انظر ترجمة ابن الساعي، البداية، ٢٨٦/١٣.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية،١٩٥/١٤.

[3]. انظر حاجي خليفة : كشف الظنون، ٢٢٨/١.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٥٧/١٤.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٢٧/١٤.

[6]. السخاوي : وجيز الكلام في الذيل على دول الاسلام، ١٩٢/١.

[7]. حاجي خليفة :كشف الظنون، ٢٨٨/١.

والاحتمال الآخر أنّ تلميذه ابن حجي قد أكمله حيث ذّيل عليه من سنة إحدى وأربعين حتى سنة خمس عشرة وثمانمائة، وكان هذا الذيل مخروماً وبه نقص، فطلب من ابن قاضي شهبه أن يكمل ما نقص من الكتاب، فأكمله وزاد فيه، حتى سنة أربعين وثمانمائة في سبع مجلدات.[1]

ومن هنا فمن المحتمل أن ابن كثير أملى بعض السنين على ولده وهذا يُفَسر الرواية التي وردت بصيغة المتكلم سابقاً، وجاء تلميذه ابن الحجي ومعاونه ابن قاضي شهبه لإكمال التاريخ حتى سنة سبع وستين وسبعمائة، وإكمال الذيل عليه حتى أربعين وثمانمائة. ولا نملك دليلاً يرجّح أحد هذه الاحتمالات على الآخر، لذلك فإن السلامة في التوقف.

وأما الذيول على كتاب البداية فمنها تذييلاً لابن حجي و تذييلاً آخر لولده عبد الرحمن،[2] وأيضاً ذيلاً لولده محمد،[3] وجمع ابن القاضي شهبه ذيلاً لتواريخ الذهبي والبرزالي وابن كثير،[4] وذّيل الطبري (ت : ٨٣٥) عليه أيضًا،[5] وقام البدر العيني (ت : ٨٥٥) بتلخيصه في كتابه "تاريخ البدر في أوصاف أهل العصر"،[6] وقام أيضاً ابن حجر العسقلاني باختصاره.[7]

---

[1]. ابن قاضي شهبه : طبقات الشافعية، ١٣/٤.

[2]. ابن حجر : إنباء الغمر، ٤٠٤/١.

[3]. المصدر السابق، ١٨٤/٢.

[4]. حاجي خليفة :كشف الظنون، ٨٢٩/١.

[5]. زيدان، جورجي : تاريخ آداب اللغة العربية، ٥٠٩/١٤.

[6]. المصدر السابق، ٥١٣/١٤. انظر ترجمة البدر العيني في البدر الطالع، ٢/ ٢٩٤.

[7]. حاجي خليفة : كشف الظنون، ١ /٢٢٨.

الفصل الأول

العرض التأريخي للآثار التربوية الإسلامية في القرون الثلاثة الأولى

ويضم ستة مباحث، وهي :

المبحث الأول : العرض التأريخي للآثار التربوية في عصر النبي (ﷺ)، وفيه أربعة مطالب، وهي:

المطلب الأول : أنواع التعليم في عصر النبي (ﷺ)

المطلب الثاني : الأهداف التربوية التعليميّة

المطلب الثالث : العوامل الفاعلة في الآثار التربويّة في عصر النبي (ﷺ)

المطلب الرابع : السمات العامة للتعليم في عصر النبي (ﷺ)

المبحث الثاني : السمات العامة للتعليم في عصر الصحابة -رضي الله عنهم-

المطلب الأول : انتشار الصحابة في الأمصار

المطلب الثاني : تفاوت الصحابة في تحصيل العلوم الشرعية

المطلب الثالث : البعثات التعليميَّة

المبحث الثالث : السمات العامة للآثار التربوية في عصر التابعين-رحمهم الله-

المطلب الأول : الصحبة والملازمة

المطلب الثاني : الرحلة سمة العلماء

المطلب الثالث : حفظ التلاميذ لعلم شيوخهم

المطلب الرابع : تأثر مسيرة التربية والتعليم ببعض الأحداث والفتن

المطلب الخامس : تدوين العلوم

المبحث السادس : الأماكن التعليمية في القرون الثلاثة الأولى

المطلـــب الأول : المساجد

المطلب الثانـــي : بيوت العلماء

المطلب الثالــث : قصور الخلفاء

المطلب الرابـــع : مكاتب الصبيان

الفصل الأول :

العرض التأريخي للآثار التربوية الإسلامية في القرون الثلاثة الأولى

تمهيد :

تعدّ الآثار التربوية محور الدراسة، وقبل البدء في الحديث عنها لابدّ من بيان المقصود منهـا.

فالأثر لغةً : بقيةُ ما نرى من كل شيء، وذهبت في إثْر فـلان أي استعقبته،[1] وأَثَـرُ الشـيء : حصول ما يدّل على وجوده، ويقال أثَرَ وأثّـر، والجمع الآثار،[2] فالآثار : جمـع أثرٍ وتعني بقيـة مـا يرى في الشيء مما يدّل على وجوده.

ويطلق الأثَـر في الاصطلاح على معان منها الحاصل من الشـيء والعلامـة، وبمعنـى الخبر ومـا يترتب على الشيء.[3]

أمـا التربيـة لغـة : فهـي تعـود إلى أصـــول ثلاثـة : ربـا يربـو بمعنـى نمـا وازداد، وربيَ يَرْبي بمعنى نَشَـأ وترعرع، وربّ يربُّ بمعنى أصلح وساس.

وعلى هذا فالتربية تنطوي على إصلاح الفرد وتنشئته تنشئة تؤدي إلى القوة والزيادة،[4] والتربية تعني : إنشاء الشيء حالاً فحال إلى حدّ التمام.[5]

وأما التربية في الاصطلاح فتعني : تنمية الوظائف النفسـية بـالتمرين حتـى تبلـغ كمالهـا شـيئا فشيئا.[6]

ويمكن تعريف التربية الإسلامية بأنها : عملية مقصودة تستضيء بنـور الشـريعة، تهـدف إلى تنشئة جوانب الشخصية الإنسانية جميعها لتحقيق العبودية لله سبحانه وتعالى، ويقـوم فيهـا أفـراد ذووا كفاءة عالية بتوجيه تعليم آخرين وفق طرق ملائمة مسـتخدمين محتـوى تعليميـاً محـدوداً وطـرق تقويـم ملائمة.[7]

---

[1]. الفراهيدي، الخليل بن أحمد : كتاب العين، ٢٣٦/٨ - ٢٣٧.

[2]. الراغب الأصفهاني، الحسن بن محمد : المفردات في غريب القرآن، ص ٩، وانظر ابن فارس : معجم مقاييس اللغة ، ٥٥/١.

[3]. التهانوي : كشاف العلوم، ١٢٢/١.

[4]. عبد الله، عبد الرحمن صالح : بحث مفهوم التربية وخصائصها، المرجع في تدريس علوم الشريعة ، ص ٥.

[5]. الراغب الأصفهاني : المفردات في غريب القرآن، ص ١٨٤.

[6]. جميل صليبا : المعجم الفلسفي، ٢٦٦/١.

[7]. عبد الرحمن صالح : المرجع في تدريس علوم الشريعة ، ص ٨.

ومن هنا فإن تتبع الآثار التربوية الإسلامية يعني : استقصاء كل ما يتعلق بالعملية التربوية التعليمية الإسلامية من سمات وخصائص ومؤسسات ومناهج ومواد وأساليب تدريس وإدارة للعملية التعليمية والعوامل المؤثرة فيها سلباً أو إيجاباً وما طرأ عليها من تغير والتي ورد ذكرها أو ذكر ما يدل عليها في كتاب البداية والنهاية للحافظ ابن كثير.

تقسيم البحث :

بعد الانتهاء من استقراء الكتاب رأيت تقسيمه إلى فصلين رئيسين :

يتناول الفصل الأول : دراسة الآثار التربوية الإسلاميّة في القرون الثلاثة الأولى.

ويتناول الفصل الثاني: دراسة الآثار التربوية الإسلامية من القرن الرابع حتى الثلث الأخير من القرن الثامن.

وأما سبب هذا التقسيم فهو وجود سمات مميزة لكل فصل تختلف عن الفصل الآخر، فمن أهم السمات المشتركة بين القرون الثلاثة الأولى والمميزة لها عن غيرها من القرون :

١- شهود النبي (ﷺ) لأهل هذه القرون بالخيرية، لما روى البخاري عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- أن النبي (ﷺ) قال : "خير القرون قرني ثّم الذين يلونهم ثّم الذين يلونهم ثّم الذين يلونهم ثّم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته".[1]

فقد نال أهل هذه القرون الخيرية بما قدموه لهذا الدين من حفظ وتدوين وتبليغ، فالنبي (ﷺ) ينقل وحي السماء ويشرح ويفصل ويبين ويضيف، والصحابة رضوان الله عليهم يدونون ويحفظون وينقلون ما وعوه لغيرهم، وقد استقرت الأحكام والآداب في عقولهم وقلوبهم.

وأما التابعون فقد شع عليهم نور النبوة، واقتبسوا علوم الصحابة وآثارهم ووصاياهم، فانطلقوا ليؤدوا الأمانة وينشروا النور الذي أنزل إليهم من ربهم.

ومع امتداد الفتح الإسلامي ودخول الناس في دين الله أفواجا من شتى المنابت ومختلف الثقافات، ومع ظهور الفرق وبروز الخلافات والنزاعات، جاء دور تابعي التابعين في الذب عن بيضة الإسلام والتصدي لأعدائه، بحفظ نصوصه وشرحها وبيانها وتنقيتها مما علق بها من الدسائس والتحريف، ثّم تدوينها مبكراً قبل فقدان شيءٍ منها، ليكون أهل هذه القرون قد أدوا دورهم واستحقوا الخيرية التي بشرهم بها نبينا محمد (ﷺ).

٢- استكمال مرحلتي التدوين والرواية قبل انصرام هذه القرون مما يؤكد الحفظ المبكر لنصوص القرآن والسنة، واجتهادات الصحابة وفتاواهم وآراء التابعين وأقوالهم، لتشمل هذه المرحلة طبقات الرواة

[1]. البخاري، محمد بن إسماعيل : الجامع الصحيح المسند، (مطبوع مع فتح الباري)، كتاب فضل الصحابة، باب فضل أصحاب النبي (ﷺ)، حديث (٣٦٥١)، ٧/ ٥.

حتى نهاية القرن الثالث وهم الصحابة والتابعون وأتباع التابعين، وأتباع أتباع التابعين، وأتباع أتباع أتباع التابعين.[1]

٣- تمثل هذه المرحلة بمجملها مرحلة استقرار سياسي تمثلت بإمساك الخليفة بزمام الأمور، مما أدى إلى ازدهار الحركة العلميّة التربوية.

٤ - ظهور أصحاب المدارس الفقهية وتدوين فقههم في المصنفات لتكتمل أركان المدارس الفقهية الرئيسة في هذه القرون.

٥ - التشابه الكبير في مؤسسات التربية والتعليم، إذ بقي المسجد يحتل المرتبة الأولى بين باقي المؤسسات.

وأمّا أهم سمات المرحلة الثانية، الممتدة من مطلع القرن الرابع حتى الربع الأخير من القرن الثامن، فهي :

أ - ضعف السلطة السياسية وانقسام دولة الخلافة إلى دويلات صغيرة، مما أدى إلى نشوء كثير من الفتن و الثورات والنزاعات بينها، مما أدى إلى انعكاس ذلك على مسيرة التربية والتعليم.

ب - تمثل مرحلة جمود فكري في مراحلها الأخيرة مقارنة مع القرون الأولى، فقد عكف كثير من علماء هذه القرون على نتاج من سبقهم شرحاً واختصاراً وجمعاً وتخريجاً للأحاديث.

جـ - ظهور عدد كبير من المؤسسات التربوية والتي لم تكن معهودة في القرون الأولى كالمدارس ودور القرآن والحديث والربط والخوانق، مما ساهم في انتشار التعليم بين جميع فئات المجتمع.

د - تدمير كثير من المؤسسات العلمية التربوية وقتل أهلها وحرق خزائنها كما فعل التتر والصليبيون في بغداد ودمشق وغيرها من دول الإسلام.

ومع ذلك وجدت بعض العناصر المشتركة بين المرحلتين، ومن حيث مواد التدريس حافظت العلوم الشرعية على مكانتها بين باقي المواد، وأيضاً استمرار أساليب التعليم المعهودة، وغير ذلك من السمات المشتركة.

ولما كان المشهور في القرن مائة سنة،[2] اعتمدت مائة سنة لكل قرن، ويشهد لذلك الحديث الذي رواه مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما حيث قال : "صلى بنا رسول الله (ﷺ) ذات ليلة صلاة العشاء في آخر حياته فلمّا سلّم قام فقال : "أرأيتكم ليلتكم هذه فإن على رأس مائه سنة منها لا

---

[1]. انظر عتر ، نور الدين : منهج النقد في علوم الحديث، ص ١٤٦.

[2]. ابن حجر : فتح الباري شرح صحيح البخاري، ٨/٧.

يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد". قال ابن عمر : فذهل الناس من مقالة رسول الله (ﷺ) تلك فيما يتحدثون من هذه الأحاديث عن مائة سنة، إنما قال رسول الله (ﷺ) : "لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد، يريد بذلك أن ينخرم ذلك القرن "،[1] ففهم ابن عمر من الحديث أن القرن مائة سنة، ولمّا كان ذلك كذلك اعتمدت مائة سنة لكل قرن، فاشتمل الفصل الأول على الثلاثمائة سنة الأولى للهجرة والفصل الثاني من القرن الرابع حتى الثلث الأخير من القرن الثامن وتحديداً حتى سنة سبع وستين وسبعمائة.

[1]. النيسابوري : مسلم بن الحجاج المشهور بالإمام مسلم : صحيح مسلم (مطبوع مع شرح النووي)، كتاب فضائل الصحابة ـ باب قوله (ﷺ) : " على رأس مائة سنة....." حديث (٢٥٣٧) - ١٦/ ٩٠.

المبحث الأول :

العرض التأريخي للآثار التربوية في عصر النبي (ﷺ)

تمهيد :

تمثل بعثة الرسول (ﷺ) مرحلة فاصلة في مسيرة الحركة العلمية التربوية، إذ إن المرحلة الأولى قبل البعثة كانت بعيدة عن الأسس المتينة والأهداف القويمة والمناهج الشاملة الدقيقة، وبعد بعثة النبي (ﷺ) أرسى الإسلام الأسس العقدية التي تنطلق منها العلوم، وهذه الأسس تقوم على ردّ الأمور إلى خالقها، مبينة علاقة العبودية بين الإنسان وخالقه، وعلاقة التسخير بين الإنسان والكون، والرباط الوثيق بين الحياة والدنيا والحياة الآخرة، بحيث تكون الأولى طريقاً ومعبراً للثانية.

وقدّم الإسلام هذه الأسس في منظومة متسقة مترابطة متينة البنيان لا يعتريها خلل أو نقصان، وارتفع بالأهداف من إطارها الضيق المقتصر على أهداف جزئية بسيطة، إلى ميدان رحب واسع تمثل بتحقيق العبودية والخشية لله، وعمارة الأرض بتطبيق شريعته وإقامة أمره ونشر نوره فيها، وكان العلم هو الطريق الرئيس لتحقيق هذه الخشية وشرطاً مهماً لنيل الاستخلاف في الأرض.

وأمّا المناهج والمواد التعليمية فهي حلقة مرتبطة بالأسس والأهداف، فالعلوم التي يقرّها الإسلام هي ما كانت منطلقة من تلك الأسس وتسعى لتحقيق هذه الأهداف.

ومن هنا فقد أقرّ الإسلام بعض العلوم المتعارف عليها قبل بعثة النبي (ﷺ) مثل الفلك والطب، بل أضاف إليها إضافات فريدة توفر على الباحثين الجهد والوقت معاً وحكم هذه العلوم بضوابط شرعيّة لازمه لها.

فبيَّن الله -عز وجل- نعمته على أهل قريش فيما توصلوا إليه من علم بالنجوم، يهتدون بها في حلهم وترحالهم، فقال تعالى : ﴿وعلامت وبالنجم هم يهتدون﴾.[1]

وفي ميدان الطب بين النبي (ﷺ) أنفع الأدوية التي يتداوون بها، فقال (ﷺ) : "إن كان في شيء من أدويتكم خير ففي شرب عسل، أو شرطة محجم، أو لذعة من نار، وما أحبُّ أن أكتوي".[2]

---

[1]. سورة النحل، آية ١٦.

[2]. رواه البخاري : الصحيح بشرح فتح الباري، كتاب الطب، باب الحجامة من الشقيقة، ح (٥٧٠٢)، ١٠/١٦٢.

وأرسى الإسلام أيضاً قواعد المناهج الجديدة التي تمثل أصالته وعدم اعتماده على الآخرين، وشملت هذه المناهج القرآن الكريم والسنّة النبويّة وما تفرع عنها من علوم مساندة أو مساعدة واجتهادات متباينة تعود في مصدرها إلى المصدرين الرئيسين وهما : القرآن والسنّة.

وسنتحدث في هذا المبحث عن أنواع التعليم في عصر النبي (ﷺ) والأساليب المستخدمة في ذلك، والعوامل الفاعلة في الآثار التربوية والتي ساهمت في تنشيط حركة التربية والتعليم في عصر النبي (ﷺ)، ونختم حديثنا بعرض السمات العامة للتعليم في عصره عليه الصلاة والسلام.

المطلب الأول :

أنواع التعليم في عصر النبي (ﷺ)

جاء الإسلام بشريعة وتعاليم غير معروفة في المجتمع الجاهلي، بل وتخالف معتقداتهم وكثيراً من عاداتهم التي ألفوها وورثوها عن آبائهم، لذلك تآزرت النصوص الشرعية وجهود النبي (ﷺ) وصحابته من بعده لتطهير مَن يدخل الإسلام من المعتقدات الوثنية والعادات الجاهلية، وغرس العقائد والقيم الإسلامية، وتوفير القدر اللازم من العلم الضروري بالشعائر والعبادات، لأن دخول الناس في الإسلام كان يعني تبديلاً كلياً يشمل الاعتقاد والسلوك، والقول والعمل، والحقوق والواجبات، هذا التبديل يسبقه علم وفهم لتميز الأحكام الشرعية، ومعرفة ما يحل وما يحرم وما يبقى وما يجب أن يُزال، ويستلزم ذلك كله تربية وتعليماً سريعين، بحيث يتمكن من يدخل الإسلام من التزام هذه الأحكام وأدائها على شكلها الصحيح.

ولم يكن التعليم على درجة واحدة، بل هنالك تعليم خاص سواء لفرد أم فئة، وهناك تعليم عام لكافة المسلمين، واختصت الوفود التي دخلت الإسلام بأنواع وطرق خاصة للتعليم كذلك، وأيضاً هناك تعليم للنساء وآخر للصبيان وسنتحدث عن هذه الأنواع فيما يلي :

أ ـ التعليم الخاص :

وقد شمل هذا النوع من التعليم أفراداً مخصوصين من الصحابة، وأبرز مظاهره تعليم من يأتي معلناً إسلامه خالعاً عبادة الأوثان، فقد روى مسلم عن أبي مالك الأشجعي عن أبيه قال : "كان الرجل إذا أسلم علمّه النبي (ﷺ) الصلاة ثمّ أمره أن يدعو بهؤلاء الكلمات : اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وعافني وارزقني".[1]

ومن ذلك أيضاً تعليم الطُفيل بن عمرو الدوسي حيث أسلم مبكراً في مكة بعد أن عرض النبي (ﷺ) الإسلام، وتلا عليه شيئاً من القرآن، وعلمه بعض الأحكام، وعاد بدوره إلى أهله وعشيرته ليدعوهم إلى الإسلام، ويقول لمن يستجيب له منهم "اذهب واغتسل وطهر ثيابك ثم ائتني حتى أعلمك مما علمت"،[2] فقد علمه النبي (ﷺ) منذ إعلانه الإسلام، وانطلق هو لتعليم من أسلم من قومه ما علمه إياه النبي (ﷺ).

---

[1]. مسلم : الصحيح بشرح النووي، كتاب الذكر والدعاء ـ باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء ـ، حديث (٢٦٩٧)، ١٥/٢٠.

[2]. ابن كثير :البداية والنهاية، ٩٧/٣، وانظر ابن هشام، أبو محمد : سيرة النبي (ﷺ)، ٤٠٧/١ ، وابن الأثير : أسد الغابة في معرفة الصحابة، ٧٨/٣.

وشارك الصحابة رضي الله عنهم في مهمة تعليم هذه الفئة، فعندما أسلم عمير بن وهب بعد غزوة بدر قال النبي (ﷺ) مخاطباً أصحابه رضى الله عنهم : "فقهوا أخاكم في دينه وعلموه القرآن وأطلقوا أسيره"،[١] فبادر الصحابة إلى تعليمه.

ومن مظاهر التعليم الخاص أيضاً تعليمه عليه السلام لآحاد الصحابة، فقد كان النبي (ﷺ) مع عناء السفر وشدة المطاردة في رحلة الهجرة يعّلم بُريدة بن الحصيب سورة مريم،[٢] ويقود عقبة بن عامر الجهني ناقة رسول الله (ﷺ) فيخاطبه النبي (ﷺ) معلماً : "يا عقبة ألا أعلمك سورتين من خير سورتين قرأهما الناس"، قلت : "بلى يا رسول الله"، فأقرأني قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس، ثم أقيمت الصلاة، فتقدم رسول الله(ﷺ) فقرأ بهما، ثم مرّ بي فقال : "اقرأ بهما كلما نمت وكلما قمت" [٣]، وقد تؤدي زيادة محبة النبي (ﷺ) لأحد أصحابه زيادة علم لهذا الصحابي، فالنبي (ﷺ) يقول لمعاذ : "يا معاذ والله إني لأحبك فلا تدعّن أن تقول في دبر كل صلاة اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك".[٤]

ومن أنواع التعليم الخاص تعليمه عليه السلام لفئة بعينها من الصحابة، وأبرز مثال عليها تعليمه للسابقين الأولين بدار الأرقم بن أبي الأرقم، حيث كانت هذه الثلة تجتمع إلى النبي (ﷺ) في هذه الدار عند الصفا فيعلمهم القرآن وأمور دينهم ويواسي مستضعفيهم ويثبت أفئدتهم بذكر قصص السابقين وأخبار الأنبياء المرسلين، وتتوالى على مسامعهم دروس الثبات والصبر والتجرد فتخرّجت من هذه الدار ثلة قامت بأعباء الدعوة والدولة معاً.[٥]

وأيضاً كان النبي (ﷺ) يجلس في مكة مع ضعفاء الصحابة أمثال خباب وعمار وأبي فكيهه وصهيب يعلمهم ويثبتهم.[٦] ونتيجةً للاختلاف بين الصحابة في الملازمة والصحبة والتفرغ وشهود الحوادث والحرص والتتبع وسعة الحفظ ودقة الضبط ومكانة الصحابي من النبي (ﷺ) ودعائه لبعضهم نتيجةً لذلك كله ظهر التفاوت بين الصحابة بين مقل للرواية ومكثر لها، وبين من يبرز في فتاواه

---

١. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣١٤/٣، والحديث رواه الطبراني، سلمان بن أحمد : المعجم الكبير، ٥٨/١٧، قال الهيثمي في مجمع الزوائد. رواه الطبراني مرسلاً وإسناده جيّد، وهو في السير لابن هشام وأكد ابن حجر إرساله في الإصابة ، ٣٦/٣.

٢ ابن كثير : البداية والنهاية، ٢١٩/٨، وانظر الذهبي، شمس الدين : تاريخ الإسلام، السيرة النبوية، ص ٣٣٠.

٣. رواه أبو داود، سليمان بن الأشعث : سنن أبي داود، ـ كتاب الصلاة ـ باب في المعوذتين ـ حديث (١٤٦٢)، ٤٦٢/١ . وصححه الألباني، ناصر الدين : صحيح أبي داود، رقم (١٢٩٩)، ٢٧٥/١.

٤. ابن كثير : البداية والنهاية، ٧ /٩٧، رواه أبو داود : السنن، كتاب الصلاة، باب في الاستغفار ، حديث (١٥٢٢)، ٤٧٧/١، صححه الألباني : صحيح سنن أبي داود، حديث (١٣٤٧)، ٢٨٥/١.

٥. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٩٦/٥.

٦. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٠٢/٣.

ومن لا يُروى في الفتوى عنه شيءٌ، وبين من نجد في مسنده الحديث والحديثين ومن نجد في مسنده مئات بل آلاف الأحاديث، وكان من أبرزهم مولاه أنس وصاحبه أبو هريرة وزوجته عائشة وابن مسعود الذي يلي نعله وطهوره وغيرهم كثير.[1]

ب ـ التعليم العام :

وهو ما بينه النبي عليه الصلاة والسلام للناس عامة، وقد استخدم في ذلك أساليب الخطاب العام، فمنها ما يكون خطاباً للناس كافة، ومنها ما يكون للمهاجرين، ومنها ما يكون للأنصار، وفيما يلي **نعرض لأهم الأساليب التي استخدمها النبي (ﷺ) في التعليم العام :**

١ – الخطبة : لقد كانت الخطبة مدرسة تعليمية دورية يجتمع فيها المسلمون فيبين لهم النبي (ﷺ) أحكام دينهم، ويرغبهم في الخير ويرهبهم من الشر، ولم تقتصر الخطبة على خطبة الجمعة بل كان النبي (ﷺ) يخطب بأصحابه في كل أمر جلل ومناسبة تستدعي ذلك حضراً وسفراً،[2] فقد خطب النبي (ﷺ) قبل غزوة بدر حاثاً الصحابة على الثبات،[3] وفي فتح مكة وقف النبي (ﷺ) في الناس خطيباً موضحاً للناس الأحكام الجديدة،[4] وفي تبوك خطب النبي (ﷺ) إلى نخلة هناك، فبين لهم ما يحل وما يحرم وحثهم على مكارم الأخلاق.[5]

وخطب عليه السلام يوم عرفة في حجة الوداع مبيناً كثيراً من أحكام الإسلام، وذلك لأنها خطبة مودع أولاً ولدخول عدد كبير من قريش وما حولهم من القبائل في الإسلام [6]، وخطب مرة أخرى في منى ومن خطبته عليه السلام : "فإنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا".[7]

واستخدم الصحابة، رضوان الله عليهم من بعد النبي (ﷺ) أسلوب الخطابة لكونه أسلوباً مهماً في التأثير والتعليم والتربية.[8]

---

[1]. انظر ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٩٢/٥، وانظر ٢٨٨/٥..

[2]. انظر الخطيب، محمد خليل : خطب المصطفى (ﷺ).

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٦٣/٣.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣١٦/٤ ـ انظر البخاري : الصحيح بشرح فتح الباري، كتاب المغازي، باب (٥١)، حديث (٤٢٩٥)، ٦١٤/٧.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢/٥.

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٥٢/٥.

[7]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٧٣/٥ رواه البخاري : الصحيح بشرح فتح الباري، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، حديث (١٧٣٩)، ٦٧٠/٣.

[8]. انظر : الخشت ، محمد عثمان : خطب الصحابة ومواعظهم.

٢ – **الحلقات العامة** : وكانت هذه الحلقات تعقد في مسجد النبي (ﷺ) بحيث يجتمع إليه أصحابه ويجلسون على هيئة حلقات، فيلتفت إلى هؤلاء مرة فيحدثهم وإلى هؤلاء مرة فيحدثهم، فقد لا حظ ذلك كعب بن زهير عندما قدم إلى النبي (ﷺ) مسلما، فأناخ راحلته بباب مسجد رسول الله (ﷺ)، فوجد الصحابة متحلقين حول النبي عليه الصلاة والسلام حلقه خلف حلقة، يحدث هؤلاء مرّة وهؤلاء مرّة.[١]

وكانت الموضوعات التي تدّرس في الحلقات تتناول القرآن حفظاً وتفسيراً والفقه والفرائض وغيرها من الموضوعات.

٣ – **أسلوب التعليم بالقدوة** : كان النبي (ﷺ) خلقه القرآن، فكانت أفعاله وأقواله وسكناته كلها محل تتبع ومراقبة من صحابته، يحفظون ما يقول، ويقتدون بما يفعل، فكان (ﷺ) معلماً في كل ما يفعل ويقول وفي جميع حركاته، وأيضاً هناك كثير من العبادات والشعائر كان (ﷺ) إلى جانب الأمر بها والحث عليها يبين كيفيتها ويقوم بأدائها أمام صحابته، ففي الحج والنبي (ﷺ) يؤدي الشعائر خاطب صحابته قائلاً : "خذوا عني مناسككم فلعلي لا أحج بعد عامي هذا".[٢]

٤ – **مجالس الإفتاء** : كان هناك كثير من الأسئلة تدور في واقع حياة الصحابة رضوان الله عليهم، فكانوا يسارعون إلى سؤال النبي (ﷺ) عنها ليفتيهم بها، وهذا من حرص الصحابة على تتبع الحلال وتجنب الحرام حتى يلقوا ربهم وهو عنهم راض، لذلك كان النبي (ﷺ) يجلس إليهم فيسألونه عن أحكام دينهم، فقد جاء عن وابصة رضي الله عنه أنه قال: أتيت رسول الله (ﷺ) وأنا أريد أن لا أدع شيئاً من البر والإثم إلا سألته عنه، وحوله عصابة من المسلمين يستفتونه فجعلت أتخطاهم فقالوا إليك وابصة عن رسول الله، فقلت : دعوني فأدنو منه، فأنا أحب الناس إلى أن أدنو منه، قال : دعوا وابصة أدنُ وابصة مرتين أو ثلاثة قال: فدنوت منه حتى قعدت بين يديه فقال يا وابصة: أخبرك أم تسألني ؟ فقلت : بل أخبرني، فقال: جئت تسأل عن البر والإثم، فقلت : نعم، فجمع أنامله فجعل ينكت بهن في صدري ويقول : يا وابصة استفت قلبك واستفت نفسك ـ ثلاث مرات البر ما اطمأنت إليه النفس والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك".[٣]

---

١. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٧٢/٤ رواه الحاكم، أبو عبد الله النيسابوري : المستدرك على الصحيحين، ـ كتاب معرفة الصحابة ـ ذكر كعب : وبجرا بني زهير ـ وسكت عنه الذهبي : ٥٧٨/٣.

٢. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٥٨/٥ رواه مسلم : الصحيح بشرح النووي، كتاب الحج ـ باب استحباب رمي الجمار يوم النحر ـ حديث (١٢٩٧)، ٤٤/٩، ولفظ الحديث عند مسلم "لتأخذوا مناسككم فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد عامي هذا".

٣. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٩٠/٦ رواه الإمام أحمد في مسنده ٢٢٨/٤. وصححه الألباني : مشكاة المصابيح، ـ كتاب البيوع ـ باب الكسب وطلب الحلال ـ حديث (٢٧٧٤) ـ٨٤٤/٢. بلفظ : "استفت نفسك استفت قلبك".

فبين وابصة أن الصحابة كانوا يجلسون حول النبي (ﷺ) يستفتونه وهم كُثر، وقد جاء يسأل النبي(ﷺ)، وكان في بعض مجالسه عليه السلام يحدثهم في علوم عديدة فقد روي حذيفة -رضي الله عنه- قال : قام رسول الله (ﷺ) فينا مقاماً ما ترك فيه شيئاً إلى قيام الساعة إلا ذكره علمه من علمه وجهله من جهله.[1]

فهذه المجالس والأساليب التي كان من خلالها يعلم النبي (ﷺ) عامة الناس،[2] وهدفت هذه المجالس إلى تكوين الشخصية الإسلامية المتكاملة بتحقيق أهداف عقدية وعبادية وفكرية وجهادية.[3]

ويضاف لذلك وجود مجالس عامّة للصحابة وأخرى عارضة حسب الحوادث والوقائع.[4]

ج - تعليم الوفود :

وقفت أغلب القبائل تنتظر نتيجة المعركة بين معسكر المسلمين بقيادة النبي (ﷺ) ومعسكر قريش، حيث كانت العرب تردد :"اتركوه وقومه فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق" [5]، فلما تم فتح مكة، وانتهت المعركة بظهور دين الله وهزيمة الكفر، ودخول كثير من الناس في الإسلام بادر كل قوم بإسلامهم، وأرسلت أغلب القبائل العربية وفودها لمبايعة النبي (ﷺ) وذلك في السنة التاسعة للهجرة.[6]

وكان النبي (ﷺ) قبل ذلك يرسل بعض أصحابه إلى هذه القبائل ليدعوهم إلى الإسلام، ظهر ذلك من حديث ضمام بن ثعلبة حينما قدم إلى النبي (ﷺ) فقال : "يا محمد أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك، قال : صدق ....".[7]

فهذا نص على أن النبي (ﷺ) كان يبعث الرسل إلى البوادي والقبائل، في أماكن إقامتها لتبليغهم الإسلام وتهيئتهم لتلقي الدين الجديد وكانت دعوتهم تتضمن بيان أركان الإيمان والإسلام بشكل رئيس، وأما طرق تعليم الوفود فنبينها في النقاط التالية :

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٩٩/٦ رواه مسلم : الصحيح بشرح النووي - الفتن - حديث (٢٨٩١) -١٥/١٨.

[2]. انظر في أساليب النبي (ﷺ) التعليميّة، أبو غدة، عبد الفتاح : الرسول المعلم (ﷺ) وأساليبه في التعليم.

[3]. انظر الضامري، عبد الرحمن إبراهيم : مجالس النبي (ﷺ) التربوية في العهد المدني، ص ٢٩، رسالة ماجستير غير منشورة.

[4]. انظر المصدر السابق : ١٤٧ - ٢٢٩.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٢٠/٤ وانظر البخاري : الصحيح بشرح فتح الباري، كتاب المغازي، باب (٥٣)،حديث (٤٣٠٢)، ٦٦٦/٧.

[6]. انظر كتاب الوفود، ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٣/٥-٩٣.

[7]. رواه مسلم : الصحيح بشرح النووي، كتاب الإيمان - باب أركان الإسلام -، حديث (١٢)، ١٦٩/١.

١- بعث رسل من الصحابة مع الوفود : فقد كان النبي (ﷺ) يرسل الرسل مع الوفود لتعليمهم القرآن وتفقيههم بأمور دينهم، وقد يكون ذلك عن طلب الوفد أو رغبة من النبي (ﷺ)، فقد طلب وفد نجران رجلاً أميناً يذهب معهم، فقال النبي (ﷺ) : "لأبعثنّ معكم رجلاً أميناً حقّ أمين، فاستشرف له أصحاب رسول الله (ﷺ) فقال : قم يا أبا عبيدة بن الجراح". [١]

فهذا طلب من الوفد إلى النبي (ﷺ) أن يبعث معهم رسولاً فاستجاب النبي (ﷺ) لهذا الطلب وأرسل معهم أمين هذه الأمة أبا عبيدة بن الجراح.

وأرسل النبي (ﷺ) عمرو بن حزم مع وفد بني الحارث بن كعب ليعلمهم معالم الإسلام والسنة ويفقههم في الدين. [٢]

وقد كان إرسال الرسل لتعليم الناس أمراً معروفاً من بداية الدعوة، فقد قام النبي (ﷺ) بإرسال مصعب بن عمير إلى المدينة المنورة ليعلمهم، وذلك عن طلب الأنصار حيث طلبوا إلى النبي (ﷺ) أن يبعث معهم من يعلمهم أحكام دينهم، فنزل على أسعد بن زرارة.

وقد أوجز النبي مهمته بإقرائهم القرآن وتعليمهم الإسلام وتفقيههم في الدين،[٣] ثم تبعه ابن أم مكتوم فكانا يُقرئان الناس.[٤]

وممن طلب من النبي (ﷺ) معلماً وفد عضل والقارة حيث قالوا : "يا رسول الله إنّ فينا إسلاما فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا في الدين ويقرئوننا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام، فبعث النبي (ﷺ) ستة من أصحابه وذكر البخاري أنهم عشرة وأمّر عليهم عاصم بن ثابت ثم تّم الغدر بهم من قبل عضل والقارة،[٥] والذي يعنينا هنا أن إرسال الرسل مع الوفود كان أمراً مشهورًا تعرفه القبائل.

---

[١]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٤٨/٥ رواه البخاري : صحيح البخاري بشرح فتح الباري، كتاب الغازي، باب قصة نجران، حديث (٤٣٨٠)، ٦٩٥/٧.

[٢]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٨٩/٥، وانظر الهاشمي، عبد الحميد : الرسول العربي، ص ٣٣٨ - ٣٤٤.

[٣]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٤٩/٣.

[٤]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٧١/٣.

[٥]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٦٦/٤ رواه البخاري الصحيح بشرح فتح الباري، كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع، حديث (٤٠٨٦)، ٤٦٢/٧.

وقد كان لليمن النصيب الأوفر من البعثات والرسل، فقد أرسل النبي (ﷺ) أولاً خالداً وعلياً ثم أرسل معاذاً وأبا موسى، وكان على نجران عمرو بن حزم.[1]

ويعود سبب كثرة إرسال الرسل إلى اليمن : اتساعها وكثرة قبائلها ودخول كثير من أهلها في الإسلام.[2]

وكان النبي (ﷺ) غالباً ما يبعث مع رسله كتباً تكون منهاجاً يسير عليه الصحابي في تعليمه للناس، بحيث يتضمن الكتاب الأحكام والواجبات، فقد أرسل (ﷺ) مع معاذ كتاباً حين أرسله إلى اليمن[3]، وأرسل كتاباً آخر مع عمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن أيضاً يفقه أهلها ويعلمهم السنن ويأخذ صدقاتهم.[4]

وقد يكتفي النبي (ﷺ) بكتابة كتاب للوفد دون أن يرسل معهم رسولاً، فقد قدم رئيس وفد باهله مطرف بن الكاهن إلى المدينة بعد الفتح مسلماً، فكتب له النبي (ﷺ) كتاباً فيه الفرائض وشرائع الإسلام، وقام بكتابته عثمان بن عفان – رضي الله عنه –، فعاد به مطرف إلى قومه.[5]

٢ – **تعليم النبي (ﷺ) لأحد أعضاء الوفد** : فقد يختار الوفد أحدهم ليتعلم الأحكام ثم يصبح لهم إماماً، فقد قدم وفد ثقيف على النبي (ﷺ) مسلماً فطلب عثمانُ بن أبي العاص الثقفي بنفسه من النبي (ﷺ) أن يعلّمه فقال :"يا رسول الله علمني القرآن واجعلني إمام قومي"، فأخذ النبي (ﷺ) في تعليمه، فلم يزل دأبه هكذا حتى فقه في الإسلام، وأحبه رسول الله عليه السلام حباً شديدًا، وحينما انتهت مهمته في التعليم وقرر العودة إلى قومه أوصاه النبي (ﷺ) قائلاً : أنت إمامهم فاقتد بأضعفهم.[6]

---

1. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣١١/٦.
2. انظر الآنسي، أحمد علي : البعثات التعليمية إلى اليمن ومنها في عهد النبي (ﷺ)، ص ٤٨-٧١، رسالة ماجستير غير منشورة، ١٩٩٥.
3. ابن كثير : البداية والنهاية، ٦٨/٥، انظر البخاري : الصحيح بشرح فتح الباري، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء ...، حديث (١٤٩٦)، ٣/ ٤١٨.
4. ابن كثير : البداية والنهاية، ٦٩/٥ رواه النسائي، أحمد بن شعيب : سنن النسائي بشرح السيوطي، كتاب القسامة، باب ذكر حديث عمرو بن حزم في العقول، حديث (٤٨٦٨)، ٤٢٨/٨.
5. ابن كثير : البداية والنهاية، ٨٢/٥.
6. ابن كثير : البداية والنهاية ، ٢٧/٥-٢٨ رواه أبو داود : السنن، كتاب الصلاة، باب أخذ أجرة على التأذين، حديث (٥٣١)، ٢٠١/١ وصححه الألباني : صحيح سنن أبي داود، حديث (٤٩٧)، ١٠٧/١.

وبعث وفد خولان في عام الوفود عشرة منهم فتعلموا القرآن والسنن وعادوا إلى قومهم فأحلوا ما أحل الله وحرموا ما حرّم الله.[1]

٣- مبادرة النبي (ﷺ) إلى تعليم الوفود بنفسه : فقد كان النبي (ﷺ) من حرصه على تعليم الوفود يسارع إلى بيان أحكام الدين لهم منذ قدومهم، فمن الأمثلة على ذلك ما رواه ابن عباس رضي الله عنه قال :"إن وفد عبد قيس أتوا النبي (ﷺ) فقال : من الوفد - أو من القوم - قالوا :ربيعة، فقال مرحبا بالقوم - أو بالوفد - غير خزايا ولا ندامى، قالوا : إنّا نأتيك من شقة بعيدة وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر ولا نستطيع أن نأتيك إلا في شهر حرام، فمرنا بأمر نخبر به من وراءنا ندخل به الجنة، فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع : أمرهم بالإيمان با لله عز وجل وحده، قال : هل تدرون ما الإيمان با لله وحده؟ قالوا : ا لله ورسوله أعلم قال شهادة أن لا اله إلا ا لله وأن محمداً رسول ا لله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تعطوا الخمس من المغنم ونهاهم عن الدباء والحنتم والمزفت قال شعبة ربما قال النقير وربما قال المقرّ، قال احفظوه وأخبروا من وراءكم". [2]

فبين النبي (ﷺ) للوفد أحكام دينهم وأركان الإسلام وأمرهم بأخبار من وراءهم، وتعليمهم هذه الأحكام.

وعن مالك بن الحويرث قال : أتيت النبي (ﷺ) في نفر من قومي فأقمنا عشرين ليلة، وكان رحيماً رفيقاً، فلما رأى شوقنا إلى أهالينا قال :"ارجعوا فكونوا فيهم وعلّموهم وصلّوا، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم وليؤمكم أكبركم". [3]

وهذا حديث آخر يبين تعليم النبي (ﷺ) الوفود بنفسه وقد استمر تعليم هذا الوفد عشرين ليلة.

٤- التعليم في البلاد المفتوحة : لقد حرص النبي (ﷺ) على تعليم من أسلم من أهل البلاد التي يتم فتحها، فعندما فتح مكة خلّف عليها معاذ بن جبل يفقه الناس في الدين ويعلمهم القرآن،[4]

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٨٤/٥ وانظر حسن، أمية أحمد : نظرية التربية في القرآن وتطبيقاتها في عهد الرسول علية السلام، ص ١٨٣.

[2]. رواه البخاري : الصحيح بشرح فتح الباري كتاب الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان، حديث (٥٣)، ١٥٧/١. والدباء والحنتم والمزفت والنقير: أوعية توضع فيها الأشربة.

[3]. المصدر السابق، كتاب الأذان، باب ليؤذن في السفر مؤذن واحد، حديث (٦٢٨)، ١٣٠/٢.

[4]. ابن كثير : البداية النهاية، ٣٦٧/٤.

وعندما فتح خالد بن الوليد، رضي الله عنه أرض بني الحارث بن كعب بنجران سنة عشر مكث فيهم أياماً يعلمهم الإسلام وكتاب الله وسنة رسوله عن وصية النبي (ﷺ) بذلك.[1]

وهكذا حرص النبي (ﷺ) على نشر العلم وبيان شرائع الإسلام لتحلّ محلّ عبادة الأوثان ويسود العلم المجتمع المسلم.

د ـ تعليم المرأة :

إن ذات الدوافع والحوافز التي أولت التعليم والتعلم أهمية بارزة لم تفرق بين الرجال والنساء، فالعلم عبادة يشترك في تحصيلها الجميع، فكما يحتاج الرجل لمعرفة ما يحل ويحرم ويتفقه في أحكام دينه فالمرأة كذلك تحتاج ذلك، فهي مطالبة بمعرفة الأحكام الواجبة عليها، والعبادات التي ستقوم بأدائها.

وقد تعددت الجهات التي ساهمت في تعليم المرأة في عصر النبي (ﷺ) فمنها :

١ – **التعلم من النبي (ﷺ) مباشرة :** فقد كان النبي (ﷺ) يتولى تعليم النساء أمور دينهنّ سواء بتخصيص درس لهنّ أم عن طريق الأساليب العامة التي سبق ذكرها ومن ذلك ما روته عمرة بنت عبد الرحمن عن أختٍ لعمرة قالت : "أخذت ق و القرآن المجيد من في رسول الله (ﷺ) يوم الجمعة وهو يقرأ بها على المنبر في كل جمعة".[2]

وقد كانت بعض النساء يبادرن إلى سؤال النبي (ﷺ) عمّا يعترضهن من مسائل ومن الأمثلة على سؤالهّن للنبي (ﷺ) ما ذكرته هند بنت عتبة حينما سألت النبي ﷺ قائله: إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بني فهل عليَّ من حرج إذا أخذت من ماله بغير علمه، قال: خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك.[3]

وكن يسألن عن أمورهن الخاصة لا يمنعهن الحياء عن ذلك فقد روت عائشة –رضي الله عنها– أن أسماء بنت شَكَل سألت النبي (ﷺ) عن غسل الحيض فبيّن لها ذلك.[4]

٢ ـ **تعليم النساء بواسطة رجالهنّ :** كان الرجال أكثر ملازمة للنبي (ﷺ) وأخذاً عنه وسماعاً لحديثه، وفي الوقت نفسه كان النبي (ﷺ) يحث صحابته على أن يبلغّوا ما سمعوه منه إلى من لم يسمعه حتى يسير المجتمع المسلم كله في حركة التعلم والتعليم، فكان الصحابة رضوان الله عليهم حريصين على

---

[1]. ابن كثير : البداية النهاية، ٥/٨٨.

[2]. مسلم : الصحيح بشرح النووي، كتاب الخطبة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، حديث (٨٧٢) – ٦/١٦٠ .

[3]. المصدر السابق، كتاب القضاء باب قضية هند، حديث (١٧١٤)، ١٢ /٧.

[4]. المصدر السابق، كتاب الحيض، باب استعمال المغتسلة من الحيض المسلور، حديث (٣٣٢)، ٤/١٥.

نقل ما سمعوه إلى بيوتهم انطلاقاً من قول الله عز وجل : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها النّاس والحجارة** ﴾،[1] فسارعوا إلى تعليم أهل بيوتهم، وقد أشرنا إلى عودة الطُفيل بن عمرو الدوسي إلى قومه بعد إسلامه فكان يقول لوالده وزوجته بعد استجابتهم له : "... ائتني حتى أعلمك مما عُـلِّمت".[2]

وعندما سَمع أبو سلمة من النبي (ﷺ) حديث "لا يصيب أحداً من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبة ثم يقول : اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها إلا فُعل به "، أسرع إلى زوجته مسروراً بهذا الحديث وحدثها به، قالت أم سلمة : "فحفظتُ ذلك منه، فلما توفي أبو سلمة استرجعت وقلت : من أين لي خير من أبي سلمة ؟ وعندما خطبها النبي (ﷺ) قالت أم سلمة : قد أبدلني الله بأبي سلمة خيراً منه رسول الله".[3]

ولذلك نرى كثيراً من بنات الصحابة قد روين أحاديث رسول الله (ﷺ) عن آبائهنّ، فمن ذلك حديث عائشة بنت سعد بن أبي وقاص الذي ترويه عن أبيها في دعاء النبي (ﷺ) له : "اللهم اشف سعداً وأتم له هجرته".[4]

٣ – **تعلّم النساء من مثيلاتهنّ** : فقد برزت من بين النساء صحابيات عالمات، وقف في مقدمتهنّ زوجات النبي (ﷺ) وذلك لما يُتلى في بيوتهن من الكتاب والحكمة، وكان من أبرزهنّ عائشة رضي الله عنها حيث يقول الزهري في علمها : "لو جُمع علم عائشة للنساء إلى علم جميع أزواجه وعلم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل"،[5] وقد أثمر تعليم عائشة للنساء جيلاً من العالمات اللواتي صحبنها وأخذن عنها أمثال عمرة بنت عبد الرحمن (ت : ١٠٠) وحفصة بنت سيرين وعائشة بنت طلحة.[6]

---

[1]. سورة التحريم، آية ٦.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٩٧/٣.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٩٢/٤ رواه أبو داود : سنن أبي داود، كتاب الجنائز، باب في الاسترجاع، حديث (٣١١٩). ٢٠٨/٢، وصححه الألباني : صحيح أبي داود، رقم (٢٦٧٦)، ٦٠٣/٢ بلفظ "إذا أصابت أحدكم مصيبة فليقل : "أنا لله وإنا إليه راجعون اللهم عندك احتسب مصيبتي فأجرني منها، وأبدل لي بها خيراً منها".

[4]. ابن كثير البداية والنهاية، ٨٧/٨ رواه البخاري : الصحيح بشرح فتح الباري، كتاب المرضى، باب وضع اليد على المريض، حديث (٥٦٥٩).

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٩٥/٨.

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٩٦/٨. * وانظر القضاة : سناء احمد، دور المرأة العربية في الإسلام، رسالة ماجستير غير منشورة، ١٩٩٥.

وقد استدركت عائشة كثيراً من الأحاديث على كبار الصحابة أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وجابر وابن مسعود وغيرهما،[1] لذلك كانت مرجعا يستند إليه الصحابة في السؤال عما التبس عليهم، يقول سفيان الثوري : اعلم الناس بحديث عائشة ثلاثة : القاسم بن محمد وعروة بن الزبير وعمرة بنت عبد الرحمن،[2] وكان عروة يكثر الدخول على عائشة فنال حظاً وافراً من علمها.

وكانت النساء في عصر النبي (ﷺ) يتناقلن الحديث بينهن ويدور في بيوتهن فحديث "استيقظ النبي (ﷺ) من نومه وهو محمر الوجه، وهو يقول : لا إله إلا الله ويل للعرب من شرٍّ قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها"،[3] فهذا الحديث في إسناده أربع صحابيات وهن زينب بنت أبي سلمة وحبيبة بنت أم حبيبة وأم حبيبة بنت أبي سفيان وزينب بنت جحش إذ كانت إحداهنّ تنقل ما تسمع للأخرى.[4]

هـ - تعليم الصبيان :

برز اهتمام النبي (ﷺ) بتعليم الصبيان عندما جعل فداء أسرى بدر أن يعلم كل أسير عشرة من أبناء الأنصار الكتابة.[5]

ولم أعثر على ذكر لكتاب منفرد أو مؤسسة مستقلة تقوم على تعليم الصبيان في المدينة المنورة في حياة النبي (ﷺ) في كتاب البداية، بالرغم من وجود مدارس لليهود يعلّمون فيها التوراة لأبنائهم.[6]

ولكن هناك عدة أمارات تفيد احتمالية وجودها في المدينة، منها ما رواه البخاري معلقاً عن أم سلمة أنها بعثت إلى معلم الكتّاب "ابعث إليّ غلماناً ينفشون صوفاً ولا تبعث إليّ حرا".[7]

فهذا نص صريح في وجود كتاب يتعلم فيها الغلمان، ويتولى أمرها معلّم ولكنّ الحديث لم يبيّن إن كان هذا في حياة النبي (ﷺ) أو بعد وفاته.

ومنها ما ورد عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه عند مشاورته لأهل المدينة فيمن يتولى الخلافة بعد عمر رضي الله عنه، فقد طاف على المدينة ولم يترك أحداً وحتى سأل الولدان في

---

[1]. انظر الزركشي، بدر الدين : الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة، ص ١٢٥.

[2]. ابن عساكر : تاريخ دمشق، ٢٥٣/٤٠.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢١٤/٦ رواه مسلم : الصحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الفتن، حديث (٢٨٨٠)، ١٨/٢.

[4]. انظر مرسي : محمد منير : التربية الإسلامية وتطورها، ص ١٥٧.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٢٩/٣.

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٨٥/٦.

[7]. البخاري : الصحيح بشرح فتح الباري، كتاب الديات، باب من استعان عبداً أو صبياً، ٢٦٤/١٢.

المكاتب،[1] فإثبات وجود هذه المكاتب في خلافة عمر لا ينفي وجودها في حياة النبي (ﷺ)، وأيضاً كانت بعض المؤسسات التي تخص الصبيان منتشرة في ذلك العصر، فبالإضافة لمدارس اليهود كان الصبيان في العراق يتعلمون الإنجيل في الكنيسة،[2] وفي الطائف كان يوسف بن عقيل الثقفي ـ والد الحجاج ـ معلماً للغلمان هناك،[3] وورد أيضاً عن بعض كبار التابعين أنه كان معلم كتاب في المدينة مثل قبيصة بن ذؤيب الخزاعي (ت : ٧٠).[4]

فهذه الإشارات توحي بوجود مؤسسات خاصة تقوم على تعليم الصبيان وإن لم يذكرها ابن كثير. ومن جانب آخر انتشرت العديد من المؤسسات عامّة والمجالس و التي ظهرت في عهد النبي(ﷺ)، وكان الصبيان يتعلمون من خلالها.

فقد كان المسجد مؤسسة يتردد عليها الصبي ليتعلم مما يشاهده ويسمعه سواءٌ في جانب العبادات، أم معاملات أم أخلاق أم غير ذلك، فقد روى مسلم في صحيحه عن جابر بن سمرة قال : "جلست مع الرسول (ﷺ)، بعد صلاة الظهر ثم خرج إلى أهله وخرجت معه".[5] ومعروف أن شهود جابر لذلك كان في المسجد، وكان صغيراً.

وكانت مجالسة الغلمان للنبي (ﷺ) وحضورهم مجالس الكبار تعدّ مصدراً آخرُ للتعليم، يتلقى فيه الغلمان العلم، فيحفظون عن رسول الله (ﷺ) ما يقول، ومن أمثلة حضور الصبيان مجالس الكبار ما رواه البخاري عن ابن عمر قال : قال رسول الله (ﷺ) : "إنّ من الشجر شجرة لا يسقط ورقها مثلها مَثَلُ المسلم فحدثوني ما هي ؟ فوقع الناس في شجر البوادي. قال عبد الله : "ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت، ثم قالوا حدّثنا ما هي يا رسول الله، قال هي النخلة".[6]

فقد حضر ابن عمر وهو صغير هذا المجلس مع أبيه ومنعه صغر سنه من الكلام بحضرة من سبقه في الفضل والسّن.

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٥١/٧، المكاتب : جمع كتّاب، وهو موضع تعليم الكتاب (الصبيان)، المبرد : المكتب. موضع التعليم والمُكتّب : المعَلم، الكتّاب :الصبيان. (ابن منظور : لسان العرب، ٦٩٨/١)، (وانظر تاريخ نشأتها الأهواني، أحمد : التربية في الإسلام، ص ٧).

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٥٤/٦.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٤٢/٩.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣١٦/٨. *

[5]. رواه مسلم : الصحيح بشرح النووي، كتاب الفضائل، ـ طيب ريحه عليه السلام ـ، حديث (٢٣٢٩)، ٨٥/١٥.

[6]. البخاري : والصحيح بشرح فتح الباري، كتاب العلم، ـ باب قول المحدث حدثنا ـ، حديث (٦١) ، ١٧٥/١.

لذلك كان كثيرٌ من غلمان الصحابة وصغارهم يحفظون أحاديث النبي (ﷺ)، فمن ذلك قول سمرة بن جندب :"أنه منعني أن أتكلم بكثير مما كنت أسمع من رسول (ﷺ) أن هاهنا من هو أكثر مني، وكنت ليلتئذ غلاماً، وإني كنت لأحفظ ما أسمع منه".[1]

وحفظ الحسن بن علي رضي الله عنه عن النبي (ﷺ) قوله "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الصدق طمأنينة وإن الكذب ريبة".[2]

وكان النبي (ﷺ) يقوم أحياناً بتعليم الصبيان الصلاة فقد روي الحسن بن علي رضي الله عنه قال : "علّمني رسول (ﷺ) كلمات أقولهن في الوتر.. .".[3]

وكانت الأسرة تمثل مصدراً آخر للتعليم، فزيد بن ثابت قدم إلى النبي (ﷺ)وعمره إحدى عشرة سنة، وقد حفظ بضع عشرة سورة قبل أن يرى النبي(ﷺ)[4] فللأسرة دور بارز في التعليم، فهي توفر جواً تربوياً من خلال التأديب والتوجيه والتعليم.[5]

وإلى جانب تعليم القراءة والكتابة والقرآن كان الصبيان يتعلمون فنون القتال، من رمي، ومصارعة وغيرها ليتمكنوا من المشاركة في الجهاد، فلم يكن النبي(ﷺ) يصطحب معه من هو دون الخامسة عشر، وعندما علم النبي (ﷺ)أن رافعاً رامٍ ماهر اصطحبه معه في أُحُدْ، فلما أُخبر أنّ سَمُرة يصرع رافعاً أجازه أيضاً.[6]

---

[1]. رواه أحمد : المسند، ١٩/٥.

[2]. الترمذي : السنن، كتاب صفة القيامة، باب ٦٠. حديث (٢٥٢٦)، ٢٣٢/٤. قال : وهذا حديث حسن صحيح.

[3]. أبو داود : السنن، كتاب الصلاة، باب القنوت في الوتر، حديث (١٤٢٥)، ٤٥٢/١ وصححه الألباني صحيح أبي داود، حديث (١٢٦٣)، ٢٦٧/١.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٦/٤.

[5]. انظر عبد الرحمن النحلاوي : أصول التربية الإسلامية، ص ١٢٢.

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٠١/٥.

المطلب الثاني :

الأهداف التربويّة التعليميّة

يعدّ تحديد الأهداف التعليميّة أمراً ضروريّاً، فهي التي توجّه العمل التربوي والتعليميّ، ولقد كان لوضوح الأهداف التي جاء بها الإسلام أثر بالغ في دفع حركة التعليم، وبشكل متسارع، وقد بيّنت نصوص القرآن والحديث النبويّ أهداف التعليم الإسلامي، وهي تمثل الغاية ذاتها من خلق الإنسان.

وتمثل الهدف الكلي للتعليم الإسلامي في إعادة صياغة الشخصية الإنسانية لتحقق العبوديّة لله تعالى، سواء في مجال الحياة الفرديّة أم الاجتماعية، ليتمكن من بناء حضارة إنسانيّة متوازنة تستند إلى الإيمان با لله.[1]

وقد تفرّع عن هذا الهدف الكلي أهداف جزئيّة، بعضها يتناول النفس الإنسانيّة، وبعضها يتناول الجوانب الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسيّة من حياة الإنسان.

أولاً – الأهداف التي تسعى لتربية النفس الإنسالية :

وقد سعت هذه الأهداف إلى تربية جوانب عديدة من النفس الإنسانية، ومن هذه الجوانب :

أ– التربية العقدية : وتشمل هذه الأهداف تعميق مفاهيم الخوف، والخشية لله، ومعرفة أسماء ا لله وصفاته، واستكمال أركان الإيمان، وغرس معاني التوكّل والرزق والأجل في قلب المسلم.[2]

وقد تضافرت نصوص الكتاب والسنة لتحقيق هذا الهدف، ففي مجال الرزق يقسم ا لله عز وجل بأن رزق الإنسان في السماء ﴿ **وفي السماء رزقكم وما توعدون، فوربّ السماء والأرض إنّه لحق مثل ما أنكم تنطقون** ﴾.[3]

[1]. انظر النحلاوي : أصول التربية الإسلاميّة، ص ٩٨ .وحسن عبد العال : التربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ص ٨٧.

[2]. انظر عبد الرحمن الضامري : مجالس النبي (ﷺ) التعليمية، ص (٤٧) . و مقداد يالجن : توجيه المتعلم، ص ١٤٨ ـ ١٥٠.

[3]. سورة الذاريات، آية ٢٢ ـ ٢٣.

وفي توقيت الأجل يقول الله عز وجل : ﴿وما كان لنفسٍ أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً﴾.[1] ولا تنحصر أهداف التعليم الإسلامي بتنمية الإيمان عن طريق الغيبيّات فقط بل إن كتاب الكون المفتوح، وما يتوصّل إليه البشر من معارف وعلوم كلّها تنمي الإيمان وتعززه.[2]

ب. التّربية الخلقيّة : وهدف التعليم الإسلامي كذلك إلى غرس الأخلاق الإسلامية في نفس المسلم وسلوكه، وذلك لزرع الوازع الأخلاقي في قلبه ليكون حائلاً بينه وبين الوقوع في مكائد الشيطان،[3] فجاءت النصوص القرآنية لتأمر بالتزام الصدق، والأمانة، والصبر، والحياء، والوفاء، وغيرها من الصفات الحسنة، في الوقت نفسه تنهي عن الكذب، والخيانة، والظلم، وغيرها من الصفات الذميمة، فمن ذلك قوله تعالى في الحث على الصدق : ﴿ **يأيها الذين ءامنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين**﴾.[4]

وفي الأمر بالصبر يقول عز وجل : ﴿ **يأيها الذين ءامنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾،[5] وفي موضع آخر يبين الله -عز وجل- أجر الصابرين فقال : ﴿ **إنّما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب**﴾.[6]

وفي نهيه عز وجلّ عن الخيانة يقول : ﴿ **يأيها الذين ءامنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم و أنتم تعلمون** ﴾.[7]

جـ - التربية العقلية : جاء الإسلام بتعاليم تخاطب العقل والقلب معاً، تطالبه بالتبصّر قبل الحكم على الأمور بالقبول أو الردّ، ونبّه كذلك على المعوّقات التي قد تحول دون استخدام العقل : كالتقليد الأعمى والهوى المتبع والجدل بلا علم.

ووجّه القرآن الإنسان كذلك إلى التدبر في الآفاق الكونيّة، والسنن التي تسير عليها حياة المخلوقات، وعلى وجه الخصوص النفس الإنسانيّة.

وحثّ الإسلام على استخدام الأساليب العلميّة في التفكير كالقياس والاستقراء، ووردت كثير من الفواصل القرآنيّة لتحقيق ذلك، مثل قوله تعالى : ﴿**أفلا تعقلون**﴾ ﴿**أفلا تبصرون**﴾ ﴿**أفلا**

---

[1]. سورة آل عمران، آية ١٤٥.

[2]. اسحق الفرحان : التربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة، ص ٥١.

[3]. المصدر السابق، ص ٣٩.

[4]. سورة التوبة، آية ١١٩.

[5]. سورة آل عمران، آية ٢٠٠.

[6]. سورة الزمر، آية ١٠.

[7]. سورة الأنفال، آية ٥٧.

تذكرون﴾ ﴿أفلا يتدبرون﴾، "ولو ذهبنا نحصي الآيات التي وردت فيها كلمات (تعقلون، يعقلـون) لوجدناهـا (٤٨) آيـة، و (١٧) موضعاً لكلمة يتفكرون و (١٦) موضعـاً وردت فيـه كلمـة يفقهون، وكل هذه الآيات جاءت إما للحضّ على التفكير، وإمّا لمخاطبة العقلاء دون سواهم من الذين لا يريدون أن يعقلوا أو يتفكروا".[1]

وفي مجال توجيه العقل للابتعاد عن الخرافات والأوهام، بيّـن النبيّ (ﷺ) للصحابـة أن الشـمس والقمر آيتان من آيات الله و إنهما لا ينخسفان لموت أحد فقال : إن الشـمس والقمـر مـن آيـات الله وإنهما لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتموهما فكبّروا وادعوا الله وصلّوا وتصدّقوا".[2]

ومن هنا فقد وجه النبي (ﷺ) المسلمين إلى التفسير الصحيـح للظواهـر الكونيـة، ذلـك التفسـير القائم على رد الأمر إلى الله الخالق، ويعقب ذلك شكر الله عز وجل بأنواع الطاعات على هذه النعم.

د - التربية الجسميَّـة : عني الإسـلام بالتربيـة الجسـمية للمسـلم، وذلـك بـالحث علـى تنميـة جسـم الإنسان بالإعداد والتدريب كما في قوله تعالى " وأعدوا لهـم مـا اسـتطعتم مـن قـوّة"،[3] وتفسـير النبي (ﷺ) للقوة بالرمي ، كما بيّن الحديث الذي يرويه عقبة بن نـافع قـال : سمعـت رسـول الله ﷺ وهـو على المنبر يقول " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوّة "، ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي".[4]

وكان النبي (ﷺ) يسابق بين الخيل، لإعدادها وزيادة قوتها، فقد روى ابن عمر أن رسول الله (ﷺ) سابق الخيل أضمرت، من الفيحاء وكان أمدها ثنية الوداع، وسابق بين الخيل الـتي لم تضمـر مـن الثنية إلى مسجد بني زريق، وكان ابن عمر فيمن سابق بها".[5]

ومع اعتناء الإسلام بهـذه الطاقـات، قـام بتوجيههـا نحـو الخير، وحـذر مـن استخدامها في الاعتداء على الغير وقد وجهها بوسيلتين :

١- توجيهها نحو ما يرضي الله، من إغاثة الملهوف وإغاثة الكلّ، والجهاد في سبيل الله.

٢- تحذيرها من كل ما يغضب الله، مع التلويح بالعقوبة لكل بطـش أو أذى أو اعتـداء يقـوم بـه أي إنسان مهما بلغت قوته أو مكانته.[6]

---

١. عبد الرحمن النحلاوي، أصول التربية الإسلامية، ص ١٠٧.

٢. رواه مسلم، الصحيح بشرح النووي، كتاب الخوف، حديث (٩٠١) ٦/٢٠٠.

٣. سورة الأنفال، آية ٦٠.

٤. رواه مسلم، الصحيح بشرح النووي، كتاب الجهاد، باب فضل الرمي، حديث (١١٧)، ١٣/٦٤.

٥. المصدر السابق، كتاب الجهاد، باب المسابقة بين الخيل، حديث (١٨٧٠)، ١٣/١٤.

٦. عبد الرحمن النحلاوي، أصول التربية الإسلامية، ص ١٠٦-١٠٧.

هـ- التربية الانفعالية : تعدّ المشاعر الإنسانية من الجوانب الرئيسة التي أولت التربية الإسلامية العناية بها، فقد عملت التربية على تنمية المشاعر الإنسانية وتوجيهها وجهة صحيحة، فالإسلام يُقر بهذه الانفعالات من حزن وفرح وغضب، وغير ذلك من المشاعر.

فمن الأمثلة على توجيه الإسلام لهذه الانفعالات ما ورد في أنّ الفرح لا يكون مع المعصية، ولا يكون بزخرف الدنيا وزينتها، دون الاستعداد للحياة الآخرة كما هو حال قارون عندما خاطبه قومه بقولهم: ﴿ **لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين**﴾، [1] وإنما يكون الفرح بفضل الله ورحمته كما قال عز وجل : ﴿ **قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون**﴾. [2]

"فالعبادات في الإسلام إن أديت على وجهها تؤدي إلى نضج هذه الانفعالات، فالزكاة مثلاً تنمي حب عمل الخير". [3]

هذه جملة الأهداف التي تتعلق بتنمية النفس الإنسانية، ودفعها نحو عمل الخير والكف عن الشر.

ثانياً – الأهداف التي تتناول علاقة المسلم مع الآخرين :

ومن هذه الأهداف :

أ ـ الأهداف التي تنظم علاقة المسلم مع الدولة والحاكم مع المحكوم :

ويطلق أحياناً عليها الأهداف السياسية، وتشمل هذه الأهداف حث المسلم على طاعة أولي الأمر كما جاء في قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾. [4]

وقول النبي (ﷺ) : "من أطاعني فقد أطاع الله ومن يعصني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعص الأمير فقد عصاني". [5]

وأرسى قاعدة التناصح بين الحاكم والمحكوم، فقد روى تميم بن أوس الداري عن النبي (ﷺ) أنه قال : " الدين النصيحة، قلنا لمن ؟، قال : لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم". [6]

---

[1]. سورة القصص، آية ٧٦.

[2]. سورة يونس، آية ٥٨.

[3]. اسحق الفرحان : التربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة، ص ٣٤.

[4]. سورة النساء، آية ٥٩.

[5]. رواه مسلم، الصحيح بشرح النووي، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء، حديث (١٨٣٥)، ١٢/٢٢٣.

[6]. المصدر السابق، كتاب الإيمان، باب الدين النصيحة، حديث (٥٥)، ٢/٣٧.

وأوضح الإسلام القواعد الرئيسة للحكم كالشورى كما في قوله عز وجل :﴿ **وشاورهم في الأمر** ﴾،[1] وأمْرُهُ عز وجل بالعدل والمساواة كما في قوله : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنّكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى**﴾. [2]

ب ـ الأهداف التي تنظم علاقة المسلم مع غيره :

وتُعرَف بالأهداف الاجتماعية وتعدّ الأسرة أولى لبنات المجتمع، لذلك بيّن الإسلام أسس العلاقات داخل هذه اللبنة، ووزع الحقوق والواجبات بين الزوجين معاً، وبين الآباء والأبناء، وبيّن حقوق المسلمين فيما بينهم، كما جاء في حديث البراء بن عازب قال: "أمرنا النبي (ﷺ) بسبع ونهانا عن سبع، فذكر عيادة المريض واتباع الجنائز وتشميت العاطس وردّ السلام، ونصرة المظلوم، وإجابة الداعي وإبرار القسم" [3] لتحقق التربية الإسلامية بذلك وحدة الانتماء والشعور والمسئولية داخل المجتمع المسلم، فيصبح المسلمون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

جـ – الأهداف التي تنظم العلاقات الاقتصادية داخل المجتمع المسلم :

وتسعى هذه الأهداف في مراحلها الأولى إلى تربية فرد منتج متكافل مع غيره، لا يكون عالةً على المجتمع المسلم . فقد وردت العديد من النصوص التي تحث المسلم على العمل منها، قول النبي (ﷺ) :"ما أكل أحدٌ طعاماً خيراً من أن يأكل من عمل يده، وأن نبي الله داود – عليه السلام – كان يأكل من عمل يده". [4]

وفي مجال الزراعة وجهت النصوص المسلمين إلى توسيع رقعة الأراضي المزروعة، وعدم حبس الأرض دون منفعة، بل إن من يملك الكفاءة والقدرة على استغلالها أحق بها، فقد جاء عن النبي (ﷺ) أنه قال: "من كانت له أرض فليزعها فإن لم يزرعها فليزرعها أخوه". [5]

وفي ميدان معالجة الأمراض الاقتصادية، حرّم الإسلام الربا فقال تعالى : . ﴿**وأحل الله البيع وحرم الربا**﴾،[6] وذلك لما يترتب عليه من آثار اقتصادية سلبية تنعكس على طهارة المجتمع المسلم. وكذلك منع الإسلام الاحتكار، وبين خطأ فاعله فقال النبي (ﷺ) : "من احتكر فهو خاطئ".[7]

---

[1]. سورة آل عمران، آية ١٥٩.

[2]. سورة المائدة، آية ٨.

[3]. رواه البخاري : الصحيح بشرح فتح الباري، كتاب المظالم، باب نصرة المظلوم، حديث (٢٤٤٥)، ١١٩/٥.

[4]. المصدر السابق، كتاب السابق، كتاب الصوم، باب كسب الرجل، حديث (٢٠٧٢)، ٣٥٥/٤.

[5]. رواه مسلم : الصحيح بشرح النووي، كتاب البيوع، باب البيوع، باب كراء الأرض، ١٩٦/١٠.

[6]. سورة البقرة، آية ٢٧٥.

[7]. رواه مسلم : الصحيح بشرح النووي، كتاب المساقاة، باب تحريم الاحتكار، حديث (١٦٠٥)، ٤٣/١١.

وتعزيزاً للتكافل الاقتصادي داخل المجتمع المسلم حث الإسلام على تزكية النفس وتطهيرها من الشح والبخل بإخراج الصدقات، وأداء فريضة الزكاة، حتى اقترنت بإقامة الصلوات في ستة وعشرين موضعاً، منها ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين**﴾.[1]

وكثيرة هي المجالات التي وُجّه المسلم لينفق ماله فيها كسباً لمرضاة الله، وأولها بيته وأهله منها الإحسان إلى الأيتام والمساكين.

وهكذا ترى انبثاق أهداف التربية الإسلامية من الأهداف التي جاء الإسلام لتحقيقها "ولا شك في أن الانسجام العقدي والفكري والاجتماعي ووضوح الرؤية بتحقيق الأهداف العامة للدولة دفعا حركة التعليم بل حركة الثقافة العامة لمواكبة التقدم العسكري والسياسي وحلّ المشكلات الجديدة في الدولة الواسعة".[2]

---

[1]. سورة البقرة، آية ٤٣.

[2]. أكرم العمري : التعليم في عصر السيرة والراشدين، ١٠/٦٣.

المطلب الثالث :

العوامل الفاعلة في الآثار التربوية في عصر النبي (ﷺ)

تآزرت مجموعة عوامل وساهمت في تنشيط الحركة التعليمية، وتكوين جيل من العلماء والحفظة، وفيما يلي نعرض لهذه العوامل :

أولاً – وجود نشاط تعليمي في المجتمعين المكي والمدني قبل بعثة النبي (ﷺ) :

لم يكن المجتمع المكي، وهو مهد الرسالة، مجتمعاً أميًّا أو مُهْمِلاً للتعليم، بحيث لا يلقي له بالاً، بل كان مجتمعاً يسعى للتعليم في إطار الوسائل المتاحة له، فوجد فيه عددٌ ممن يتقن القراءة والكتابة، وبرع بعضهم في أنواع من العلوم، كالأدب، والأنساب، والطب، والنجوم والأديان، "وعلمهم الذي كانوا يفتخرون به على لسانهم ونظم الأشعار وتأليف الخطب وعلم الأخبار ومعرفة السير والأعصار".[1]

أمّا الأساليب التي كان يتم التعليم من خلالها فهي متعددة، فنجد أنّ فترة الطفولة وهي من أهم فترات تلقي التعليم ـ كانت قريش تحسن التعامل معها، بحيث ترسل أطفالها إلى البادية ليتعلموا مهارات جسمية وفصاحة لغوية، فقد كانت المُرضعات تأتي إلى مكة في مواسم معهودة ويعدن بأطفال مكة معهن، وكما هو مشهور فقد كان نصيب نبينا محمد (ﷺ) أن ترضعه حليمة السعدية، وقد مكث عندها في البادية حتى بلغ عمره ست سنوات.[2]

وكانت مجالس السادة والكبراء تمثل مصدراً آخر للتعليم، بحيث يتناول القوم الأخبار والأنساب والقصص فيكتسب الصبيان الخبرات والقيم، وكان عبد المطلب يصطحب معه النبي (ﷺ) إلى مثل هذه المجالس.

وهناك وسيلة أخرى لزيادة معارف وعلوم أهل مكة خصوصاً، وعرب الجزيرة عموماً وهي الرحلة، لكنها الرحلة التجارية لا العلمية، فقد كان الهدف الرئيس من الرحلة التجارة، ولكنّها مع ذلك كانت توفر قدراً من الاتصال مع رهبان النصارى، وأحبار اليهود، وحكماء الفرس والروم، ومن أشهر الرحلات رحلة اليمن والشام،[3] ومما يُدلل على انتشار الرهبان ومن عندهم علم بالكتاب في بلدان متعددة قصة إسلام سلمان الفارسي، وتنقله بين أصبهان، والشام، والموصل، ونصيبين،

---

[1]. القنوجي : أبجد العلوم، ١/١٧٥.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢/٢٥٨. وانظر الأبراشي، محمد عطية : التربية الإسلامية وفلاسفتها، ص ٦.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢/٢٦١.

وعمورية، والتقاؤه بعلماء الدين النصراني في كل بلد من هذه البلدان،[1] ولذلك برز في قريش من برع في الأديان وكان منهم ورقة بن نوفل.[2]

وأيضاً وجود أهل الكتاب العبراني وهو التوراة قريباً من مكة تمثل مرجعية علمية لقريش في ميدان التاريخ والدين ولكنّهم وجهوا علمهم لبث الأضاليل والأباطيل الكاذبة، ولتزوير الحقائق والطعن برسالة النبي (ﷺ)، ونشر كثيرٍ من الدعاوى والشبهات لتحقيق ذلك، وقد سجل القرآن كثيراً منها، مثل قولهم : ﴿**كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا**﴾،[3] وقولهم : ﴿**لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى**﴾،[4] وهدفهم من ذلك ما ذكره الله عز وجل حيث يقول : ﴿**ودّ كثيرٌ من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم**﴾،[5] وكانت هذه الدعاوى تصدر عنهم إمّا مباشرة أو بتوجيه الكفار والمنافقين لنشرها، فعندما أراد زعماء قريش إحراج النبي (ﷺ) ببعض الأسئلة، توجهت أنظارهم صوب يثرب التي يقطنها أحبار اليهود،[6] أمثال عبد الله بن سلام وعبد الله بن صوريا وحيي بن أخطب وغيرهم.[7]

لذلك كلّه كان في مكة عددٌ ممن يوصفون بالعلم، وآخرون ممن يتقنون القراءة والكتابة،[8] فكان نصير بن الحارث العبدري أحد علماء قريش وممن يُرجع إليه بذلك،[9] وأما من أتقن الكتابة فقد كان منهم كتبة الوحي في مكة أمثال : أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والأرقم بن أبي الأرقم وابنه عبد الله الذي أصبح من كتبة الوحي بعد فتح مكة،[10] وكان معاوية ممن يتقن الكتابة، فعندما أسلم هو وأبوه، طلب أبو سفيان من النبي (ﷺ) ثلاثة أمور ومنها: "... ومعاوية تجعله كاتباً بين يديك، قال :

---

[1]. انظر قصة إسلام سلمان، ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٨٩/٢.
[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٤/٣.
[3]. سورة البقرة، آية ١٣٥.
[4]. سورة البقرة، آية ١١١.
[5]. سورة البقرة، آية ١٠٩.
[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٥٠/٣.
[7]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٣٥/٣.
[8]. انظر العسلي، خالد صالح : بحث التربية العربية قبل الإسلام، التربية العربية الإسلامية، ٣٧/١-٥٢.
[9]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٦٤/٧.
[10]. انظر كُتّاب الوحي، ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٩٥/٥ وما بعدها.

نعم"،[1] وكان أسرى بدر فيهم من يتقن الكتابة، بحيث كان فكاك أسرهم تعليمَ عشرة من صبيان الأنصار الكتابة.[2]

وانتشرت الأسواق الأدبية السنوية التي يتبارز فيها الشعراء والخطباء، ومن أشهر هذه الأسواق عكاظ، ومجنّة، وبدر الصغرى.[3]

ومن هنا فقد كان العرب يمارسون أنشطة تعليمية وثقافية يغلب عليها الطابع الشفوي في مجالات الشعر، والخطابة، والحكم، والأمثال، والقصص، والأيام، والأنساب.[4]

وكذلك الأمر في المجتمع المدني إذ أحبار اليهود هم أعلم أهل الجزيرة بأخبار السابقين، وقصص الأولين وعندهم التوراة فيها حكم الله، ولهم مدارسهم التي يُعلمون فيها أطفالهم،[5] وكان في المدينة أيضاً عددٌ ممن يتقن الكتابة منهم كتبة الوحي أمثال : أُبيّ بن كعب، وثابت بن قيس بن شماس، وزيد بن ثابت وغيرهم،[6] وكان سعد بن عبادة يجيد الكتابة بالعربية والرمي والسباحة، فكان يُسمى بالكامل،[7] وأما حنظلة بن الربيع فقد كان يُسمى بالكاتب لإتقانه الكتابة وهو أحد كتبة الوحي.[8]

ويتضح لنا بعد هذا الاستقراء وجود عدد ممن يتقن الكتابة والقراءة في مكة والمدينة، مما يسهل مهمة النبي (ﷺ) في تعليم المسلمين، وتدوين كتاب الله ويضاف لذلك كلّه قوّة الذاكرة وصفاء الذهن وفصاحة اللغة كلها عوامل أدت إلى نشوء مجتمع مسلم متعلم وفي مدة وجيزة.

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٠٧/٥. رواه مسلم : الصحيح بشرح النووي، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبي سفيان، حديث (٢٥٠١)، ٦٢/١٦.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٢٩/٣.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٥٧/٣. وانظر الفالح، حسن فالح : أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، رسالة ماجستير غير منشورة، ١٩٩٥.

[4]. ملكة أبيض : التربية و الثقافية العربية الإسلامية، ٢٣٤.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٨٥/٦.

[6]. انظر كُتّاب الوحي، ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٩٥/٥ وما بعدها.

[7]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٣/٧.

[8]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٩٧/٥.

ثانيًا – التلازم بين رسالة النبي (ﷺ) والعلم :

اقترن العلم برسالة النبي (ﷺ) منذ التقاء جبريل عليه السلام برسول الله (ﷺ)، إذ كان أول أمر طلبه جبريل من النبي (ﷺ) هو القراءة، فقال : "اقرأ "، وكررها ثلاثاً، والنّبي (ﷺ) ينفي معرفته للقراءة.[1]

ونزلت الآيات الأوَلُ من القرآن لتؤكد هذا التلازم، وترسي قواعد متينة من علاقة العلم بالدين الجديد : ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم**﴾،[2] فمصدر العلم هو الله، وهدف العلم وغايته الله أيضا، وذلك بتحقيق العبودية له على هذه الأرض.

والوسيلة الرئيسة في استجابة الناس لدعوة النبي (ﷺ) هي العلم، سواءٌ العلم بالرسول وصدقه، أم العلم بالرسالة وكمالها وشمولها، وتتأكد هذه الملازمة عند متابعتنا للفترة التي تلت اختيار الله لرسوله حيث استمر نزول جبريل على النبي (ﷺ) معلماً ومواسياً له عن طريق الآيات التي كان يتنزل بها. ولم يقف أمام دعوة الإسلام عدو أشد من الجهل بمختلف أشكاله، ذلك الجهل الذي يعتمد موازين أرضية عرضيّة تؤدي إلى الكبر والغرور والاستكبار والإعراض، فتقف هذه الأمراض النفسية سدّاً منيعاً بين صاحبها وبين اتباع الحق.

وبما أن رسالة النبي (ﷺ) خاتمة الرسالات، وهي للناس كافّة حيث لا نبي بعد محمد (ﷺ)، كان لا بد من ورثة للنبوة يتحملون أعباء تبليغ رسالته، وحمل لواء شريعته إلى من لم تصلهم، فيتناقلونها عبر القرون التي ستلي قرن النبي (ﷺ) لتحقيق عمومها وشمولها، وهؤلاء الورثة هم العلماء الذي ينهلون من نبع القرآن وهدي الرسول (ﷺ).

وقد أدرك الصحابة هذه المسؤولية، وحملوا الأمانة فادّوها على أكمل وجه، ونشروا أحاديث المصطفى (ﷺ)، حتى وهم على فراش الموت، فأبو أيوب الأنصاري – رضي الله عنه – بلغ كثيراً مما سمع من حديث النبي (ﷺ)، وعندما حضرته الوفاة أراد إبراء ذمته من أي كتم للعلم، فقال : "قد كنت كتمت عنكم شيئاً سمعته من رسول الله (ﷺ)، سمعته يقول : لولا أنكم تذنبون لخلق الله قوماً يذنبون فيغفر لهم"،[3] فيستدرك أبو أيوب ما فاته من تبليغ حديث رسول الله(ﷺ) ليبلغه وهو على فراش الموت.

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣/٣. رواه البخاري : الصحيح بشرح فتح الباري، كتاب بدء الوحي، باب ٣، حديث (٣)، ١/٣٠.

[2]. سورة العلق، الآيات ١ـ ٥.

[3]. ابن كثير: البداية والنهاية، ٨ /٦١. رواه مسلم : الصحيح بشرح النووي، كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبة، حديث (٢٧٤٨)، ١٧/٦٤.

وهكذا سار التابعون وتابعوهم والعلماء الربانيون في كل عصر ومصر، فهم ضمان استمرارية الرسالة.

وثَمّ أمر آخر يوجب هذا التلازم، وهو أن أهل الكفر والباطل لم يكونوا ليدعوا للحق التغلب على موروثاتهم ومعتقداتهم ، لذلك نرى حجم القوى التي وقفت وستقف في وجه الرسالة وعلى اختلاف مواقعها، وفي كل زمان ومكان.

هذه القوى ستحارب الإسلام بكل ما أوتيت من قوة، سواء قوّة المكر والكيد، أم قوّة الدس والتحريف والتزييف، أم قوة السلاح والعتاد، وتستند هذه القوى إلى علوم عديدة، وقدرات علميّة متقدمة، مما يتطلب من المسلمين العمل على صدّ هذه القوى، وكشف ظلامها بإعداد علمي شامل يفوق إعدادهم، ويبذل المسلم في هذا الإعداد وسعه انطلاقاً من قوله تعالى : ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم**﴾.[1]

وسيرة النبي (ﷺ) تدل على تطبيق هذا المبدأ، إذ قام النبي (ﷺ) بإرسال عروة بن مسعود وغيلان ابن سلمة إلى جرش ليتعلمان صنعة الدبابات والمجانيق، وذلك في السنة الثامنة للهجرة.[2]

ثالثاً – تشجيع الإسلام للعلم ورفع مكانة العلماء :

وردت العديد من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تبين أهمية العلم وترغب في طلبه، فقد عدّ القرآن تفضيل العلماء على غيرهم أمراً بدهياً، لا تحتاج معرفته كبير عناء، فقال تعالى : ﴿**قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون**﴾،[3] وفي موطن آخر بيّن الله عز وجل أن العلماء الذين يعرفون الله حق المعرفة عن طريق خلقه وآثاره وإبداعه هم أولى الناس بطاعة الله، وأشدهم خشية له، فقال عز وجل : ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾،[4] وأناط الفهم الدقيق لآيات الله وأمثاله التي يضربها للناس بالعلماء : ﴿**وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون**﴾،[5] ﴿**إنما يتذكر أولوا الألباب**﴾.[6]

---

[1]. سورة الأنفال، آية ٦٠.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٤٤/٤.

[3]. سورة الزمر، آية ٩.

[4]. سورة فاطر، آية ٢٨.

[5]. سورة العنكبوت، آية ٣.

[6]. سورة الزمر، آية ٩.

وأما الجزاء وهو رفع الدرجات في الدنيا والآخرة فقد ورد في قوله تعالى : ﴿يرفع الله الذين ءامنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾،[1] والنصوص القرآنية في ذلك كثير.

وأما الأحاديث الشريفة فنذكر منها حديث الأمر بتحمل أمانة العلم، ونشره لمن لم يبلغه، حيث يقول – عليه السلام –: "نضر الله امرأً سمع منّا شيئاً فبلغه كما سمعه، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه"،[2] وبيّن في حديث آخر أن التوجه لطلب العلم دلالة على حب الله لطالب العلم، وتوفيقه لتحصيل الخير، حيث يقول (ﷺ) : "من يرد به الله خيراً يفقهه في الدين"،[3] وطريق العلم هي مقدمة للسير في طريق الجنة، حيث يقول النبي (ﷺ) : "من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة".[4]

أما التطبيق العملي لتشجيع العلم ورفع مكانة العلماء في حياة النبي (ﷺ) فقد ظهر بتوليته أهل العلم وتقديمهم على غيرهم، فقد قال لعثمان بن أبي العاص بعدما علّمه النبي (ﷺ) وأراد العودة إلى قومه : "أنت إمامهم فاقتدِ بأضعفهم"،[5] وشهد أبو بكر – رضي الله عنه – لعثمان بذلك، حيث يقول : "يا رسول الله، إني رأيت هذا الغلام من أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلّم القرآن".[6]

وامتد هذا التكريم إلى ما بعد الموت، فعندما أراد النبي (ﷺ) دفن شهداء أُحد كان يجمع الرجلين في ثوب واحد، ثم يسأل : "أيهما أكثر أخذًا للقرآن ؟، فإذا أُشير له إلى أحدهم قدّمه في اللحد، وقال : أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة، وأمر بدفنهم بدمائهم، ولم يصلِّ عليهم ولم يُغسلوا".[7]

وكان الصحابة يفعلون الأمر ذاته فكان سالم مولى أبي حذيفة يصلي إماماً بالمهاجرين قبل قدوم النبي (ﷺ) لكثرة حفظه،[8] وأمّ عمرو بن سلمة قومه وهو ابن ست أو سبع سنين لأنه كان أكثرهم قرآناً.[9]

---

1. سورة المجادلة، آية ١١.
2. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٤٤/١١. رواه أبو داود السنن، كتاب العلم، باب فضل نشر العلم، حديث (٣٦٦٠)، ٦٩٧/٢. وصححه الألباني : صحيح أبي داود، برقم (٣١٠٨)، ٢/ ٦٩٧.
3. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢٩/٨. رواه البخاري : الصحيح بشرح فتح الباري، كتاب العلم، باب "من يرد به الله خيراً يفقهه في الدين"، حديث (٧١)، ١٩٧/١.
4. رواه أبو داود : السنن، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، حديث (٣٦٤١)، ٣٤١/٢. وصححه الألباني : صحيح أبي داود، برقم (٣٠٩٦)، ٤٩٦/٢.
5. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٨/٥. والحديث تقدم تخريجه . انظر في هذا البحث ص ٥٥.
6. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٧/٥.
7. ابن كثير : البداية والنهاية، ٤٢/٤. رواه البخاري : الصحيح بشرح فتح الباري، كتاب المغازي، باب "من قُتِلَ من المسلمين يوم احد"، حديث (٤٠٧٩)، ٤٣٣/٧.
8. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٤١/٦.
9. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٢١/٤ وسيأتي تخريجه، ص ١١٦.

وكان عمر بن الخطاب يرفع ابن عباس إلى منزلة الأشياخ، وكبار الصحابة، وكان يلازمه حضرًا وسفرًا، وكالمستشار بين يديه، وإذا ما اعترض أحدهم حاكمه عمر إلى ميزان العلم، ومن ذلك أنه سألهم في أحد المجالس عن تفسير سورة النصر فأجابوا بما فهموه من ظاهر معناها، وعندما فسرها ابن عباس بيّن أن من معناها دنو أجل النبي (ﷺ)، فكبُر عنده،[١] وكان عمر يدعوه للمعضلات وإنّ حوله أهل بدر من المهاجرين والأنصار.[٢]

ومن مظاهر اهتمام النبي (ﷺ) بالتعليم أيضاً مسارعته إلى بناء أهم المؤسسات التعليمية، ألا وهو المسجد، حيث تم بناء مسجد قباء أولاً، وخطب فيه النبي (ﷺ)،[٣] ثم أتبعه ببناء المسجد النبوي،[٤] وسارع النبي (ﷺ) إلى الاستفادة من أسرى بدر في زيادة عدد المتعلمين، فجعل فداء الواحد منهم تعليم عشرة من الأنصار، وقد آتت هذه الخطوات ثمارها في ظهور أعداد كبيرة من المتعلمين والقرّاء والفقهاء، منهم الذين ارتحلوا إلى القرى والبوادي يعلمون الناس أمور دينهم أمثال : معاذ وأبي موسى وعلي وخالد وعمرو بن حزم، ومنهم الذين استشهدوا في سرية بئر معونة، حيث استشهد سبعون من القرّاء،[٥] وقُتلَ عشرة آخرون منهم في قصة عضل والقارة في السنة نفسها وهي أربع للهجرة.[٦]

ومنهم الذين استشهدوا في معركة اليمامة حيث بلغ عددهم خمسمائة شهيد من سادات الصحابة وعلمائهم، أمثال : زيد بن الخطاب وسالم مولى أبي حذيفة وأبي دجانة وثابت بن قيس وثابت بن أقرم وغيرهم،[٧] فهذه الأعداد الكبيرة من العلماء تدل على سرعة انتشار التعليم في عصر النبي (ﷺ) وفي مدة زمنية وجيزة.

رابعاً – معرفة مجمل الأحكام الشرعية من قبل غير المسلمين :

لم يكن غالب من يدخل في الإسلام يجهل طبيعة هذا الدين ومجمل عقائده وأحكامه، بل كانوا على قدر من العلم بذلك، وساعد على ذلك مجموعة من العوامل نذكر منها :

---

١. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٢٠/٤. رواه البخاري : الصحيح بشرح فتح الباري، كتاب المغازي، باب (٥١)، حديث (٤٢٩٤)، ٦١٣/٧.

٢. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٠٣/٨.

٣. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٠٧/٣.

٤. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢١٣/٣.

٥. ابن كثير : البداية والنهاية، ٧٣/٤.

٦. ابن كثير : البداية والنهاية، ٦٦/٤. والحديث رواه البخاري، وسبق تخريجه، انظر في هذا البحث ص ٥٤.

٧. انظر ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٣٨/٦ وما بعدها.

أ ـ **معايشة المسلمين لغيرهم في مجالات عديدة** : فقد كان هناك تمازج بين المسلمين وغيرهم عند ممارستهم لشؤون التجارة و أداء التزاماتهم الاجتماعية ، وكان النبي (ﷺ) يقرأ القرآن فيسمعه المشركون، وممن سمع منه الوليد بن المغيرة فرقّ قلبه حتى كاد يُسلم، ولكنه فكّر وقدّر فقتل كيف قدّر.[1]

وممن سمعه منه أيضاً من زعماء قريش أبو جهل، وأبو سفيان، والأخنس بن شريق، فقد كانوا يخرجون سرًّا، ولا يعلم أحدٌ منهم بصاحبه،[2] وكان النبي (ﷺ) في أوقات كثيرة يدعوهم إلى الإسلام ويبين لهم تعاليمه.

وكان أبو بكر قد ابتنى في فناء داره مسجداً يصلي فيه ويقرأ القرآن، فكان ينظر إليه رجال مكة ونساؤها وصبيانها متعجبين من فعله، حتى فَزِعَ منه أشراف مكة.[3]

ب ـ **صلة القربى** : كانت هذه العلاقة تكفل أيضاً سُبُلاً عديدة تعرُّفُ المشركين على الإسلام من ممارسات أهله، فقد أعلن حمزة، عم النبي (ﷺ)، إسلامه أمام الملأ من قريش قائلاً : "من يمنعني وقد استبان ما أشهد أنه رسول الله (ﷺ) وأن الذي يقول الحق، فوا لله لا أنزع، فامنعوني إن كنتم صادقين"،[4] فبين حمزة أنه اقتنع بالإسلام بعد مشاهدته لقيمه ومبادئه وتشريعاته من ممارسة ابن أخيه لها.

ومما يدل على معرفة المشركين لمجمل أحكام الدين أن أعشى بن قيس خرج يريد الإسلام ، فلقيه بعض المشركين فقالوا له : إنه يحرم الزنا فقال : وا لله إن ذلك لأمر مالي فيه من إرب فقال : "يا أبا بصير إنه يحّرم الخمر ...."،[5] فهذه القصة تبين معرفة من اعترض ابن قيس من المشركين بمجمل أحكام الإسلام.

وأما في المدينة، فالحال مختلف إذ المجتمع إسلامي ويطبق أحكام الإسلام في جميع مجالات الحياة.

وأمّا الذين هم بعيدون عن النبي (ﷺ)، فقد كان النبي (ﷺ) يرسل إليهم رسلاً، فتتعرف القبائل على أحكام الإسلام عند ممارسة الرسل لعباداتهم، وأيضاً كان النبي (ﷺ) يجعل الأسرى في المسجد ليتمكنوا من الاطلاع على أعمال المسلمين وشعائرهم، فيلمسوا الفارق بين من يعبد إلها واحداً، بيده كل شيء، ومن يدعو آلهة لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً، فمن ذلك أن ثمامة بن أثال كان ممن وقع في

---

[1]. انظر ابن كثير : البداية والنهاية، ٦١/٣.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٦٢/٣.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٩٢/٣ .رواه البخاري : الصحيح بشرح فتح الباري، كتاب الصلاة، باب "المسجد يكون في الطريق"، حديث (٤٧٦)، ٦٧١/١.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٢/٣.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٠٠/٣.

الأسر في سرية محمد بن سلمة، فرُبط بسارية من سوارى المسجد ثلاثة أيام، وفي كل يوم يطلب منه النبي (ﷺ) أن يُسلم، وبعدما رفض وأطلقه النبي (ﷺ) أعلن إسلامه، وقال للنبي (ﷺ) : "يا محمد ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحبّ الوجوه إلي، وا لله ما كان دين أبغض إلي من دينك فأصبح دينك أحب إلي".[1]

فسهّلت هذه المعرفة بمجمل أحكام الدين وعقائده عملية التعليم لمن يدخل الإسلام، فعمرو ابن العاص أسلم في السنة الثامنة للهجرة، وقاد غزوة ذات السلاسل في السنة نفسها، وذات ليلة أصابته الجنابة في ليلة باردة فتيمم وصلى بأصحابه، وعندما عاد إلى النبي (ﷺ) أخبره بعضهم بما فعل عمرو، فقال له النبي (ﷺ) : "يا عمرو، صلّيت بأصحابك وأنت جنب"، قال : فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال وقلت : إني سمعت الله يقول : ﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما﴾، فضحك نبي الله(ﷺ)، ولم يقل شيئاً،[2] فهذا صحابي جليل يتعلم القرآن ويفهم الأحكام ولم يمض على إسلامه عام.

خامسًا – النبي (ﷺ) محور التعليم :

كانت شخصية النبي (ﷺ) التربوية تشكل عاملاً من العوامل التي ساهمت في سرعة تلقي العلم وتبليغه، فكان يعلّم في كل وقت وحين، حتى في رحلة الهجرة مع عناء التعب يعلم بريدة بن الحصيب سورة مريم،[3] وعلى فراش الموت يعلم صحابته الصبر والتحمل ولا تحول سكرات الموت بينه وبين التبليغ فيقول : "والذي نفسي بيده ما على الأرض مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حط الله عنه خطاياه كما تحط الشجرة ورقها"،[4] وكان النبي (ﷺ) يُسمع الصحابة القرآن ثم يشرحه لهم مفصّلاً لمجملة ، ومزيلاً لمبهمه ، وموضحاً لمشكله ، يقول ابن مسعود : "فأخذت من فيه سبعين سورة ما ينازعني فيها أحد".[5]

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٤٥/٥. رواه البخاري : الصحيح بشرح فتح الباري، كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة، حديث (٤٣٧٢)، ٦٨٨/٧.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٧٣/٤. سورة النساء، آية ٢٩. رواه أبو داود : السنن، كتاب الطهارة، باب "إذا خاف الجنب بالبرد أيتيمم ؟"، حديث (٣٣٤)، ١٤٥/١، وصححه الألباني : انظر صحيح أبي داود، حديث (٣٢٣)، ٦٨/١.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢١٩/٨.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، رواه البخاري : الصحيح بشرح فتح الباري، كتاب المرض، باب شدة المرض، حديث (٥٦٤٧)،١١٥/١٠.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٠/٣.

ولم يتوقف الأمر عند تعليم النبي (ﷺ) لهم، بل كان لدعائه لبعض الصحابة أثر كبير في سعة حفظهم، فقد قال عليه السلام لأصحابه : "من يبسط رداءه اليوم فإنه لا ينسى شيئاً من مقالتي"، فقال أبو هريرة : "فبسطته فلم أنس شيئاً من مقالته تلك".[1]

ووضع ابن عباس وضوءاً للنبي (ﷺ) فلما خرج قال (ﷺ) : "من صنع هذا ؟ قالوا : ابن عباس. قال : "اللهم فقهه في الدين"، وفي رواية : "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل "،[2] فدعا النبي (ﷺ) له بالعلم والحكمة، فكان ابن عباس من أفقه الصحابة وأعرفهم بكتاب الله - عز وجل -.

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٧٦/٦. رواه مسلم : الصحيح بشرح النووي، فضائل الصحابة، باب فضائل أبي هريرة، حديث (٢٤٩٢)، ٥٢/١٦.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٩٩/٨. رواه البخاري بلفظ "اللهم علمه الحكمة" : الصحيح بشرح فتح الباري، كتاب فضائل الصحابة، باب ذكر ابن عباس، حديث (٣٧٥٦)، ١٢٦/٧.

المطلب الرابع :

السمات العامة للتعليم في عصر النبي (ﷺ)

إضافة لما سبق فقد ظهرت عدة سمات للتعليم في عصر النبي (ﷺ) نوردها فيما يلي :

أولاً – الأصالة في مصادر التعليم :

لقد كانت العلوم السابقة تعتمد على غيرها من الثقافات والحضارات، حتى الشرائع السماوية السابقة كاليهودية والنصرانية أصابها التحريف والتزييف، ففقدت كثيراً من أصالتها، بينما نجد مصادر التعليم الإسلامي وحياً من السماء، لم تعتمد على غيرها من المصادر، فالقرآن الكريم وحديث النبي (ﷺ) وحي من الله، وهما المصدران اللذان قامت العلوم الإسلامية عليهما، وقد تكفل الله بحفظ كتابه من التحريف والتبديل.

وامتدت الأصالة لتشمل الأسس التي تنطلق منها العلوم ومن ربط للمخلوقات بخالقها، وردّ الأمر كلّه لله.

وقد بينت الآيات الأولى التي نزلت أن الله هو مصدر العلم ومعلم الإنسان، حيث يقول عز وجلّ: ﴿**اقرأ وربك الأكرم ٭ الذي علم بالقلم ٭ علم الإنسان ما لم يعلم**﴾.[1]

وشملت أيضاً أصالة الأهداف، ومن هذه الأهداف : تحقيق العبودية لله، والوراثة والاستخلاف في الأرض.

ثانياً – شمولية التعليم للمسلمين كافة :

سبق أن تحدثنا عن أصناف المتعلمين في المجتمع المسلم،[2] فقد شمل التعليم جميع المسلمين رجالاً ونساءً صغاراً وكباراً، من كان ملازماً للنبي (ﷺ) في مدينته، ومن كان في قبيلة بعيداً عن طريق الناس، وكان التعليم خلالها شعبياً يناله الغني والفقير، بل إن حظ الفقراء فيه أعظم من حظ الأغنياء، بل إن تفرغهم له وبروزهم فيه كان أكبر.[3]

---

[1]. سورة القلم، الآيات ٣-٥.

[2]. انظر أنواع التعليم في عصر النبي (ﷺ)، ص ٤٩.

[3]. العمري، أكرم ضياء : بحث التعليم في عصر السيرة والراشدين، التربية العربية الإسلامية، ٦٥/١.

ثالثاً – التعليم مسؤولية الجميع :

لم يكن التعليم يعتمد على النبي (ﷺ) وحده، بل كان الصحابة يتحملون مسؤوليتهم في التبليغ، فأشرنا إلى عودة أبي سلمة مسروراً، ليخبر زوجته بحديث الاسترجاع،[1] ويتعلم زيد بن ثابت بضع عشرة سورة قبل أن يرد إلى النبي (ﷺ) ولم يتجاوز الحادية عشرة،[2] وخاطب النبي (ﷺ) صحابته عند إسلام عمير بن وهب قائلاً : "فقهوا أخاكم في دينه وعلموه القرآن".[3]

وانطلق الصحابة إلى القبائل والبوادي البعيدة مرشدين معلمين، وتحملت النساء كذلك مسؤولياتهن التعليمية، وأولاهن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها -، فقد أخذت عنها تلميذاتها كثيراً من علمها، وقد أشرت لبعضهنّ سابقاً، وأخذ الرجال كذلك عن أمهات المؤمنين وكبار الصحابيات، فكان كبار الصحابة يسألون عائشة – رضي الله عنها – عن الفرائض.[4]

وكان أبو موسى الأشعري وبقية أصحاب السفينة الذين قدموا إلى المدينة من الحبشة يأتون إلى أسماء بنت عميس لسؤالها عن حديث تفضيل من هاجر الهجرتين على من هاجر إلى المدينة، وذلك أن عمر قال لها : "سبقناكم بالهجرة (يعني إلى المدينة)، فنحن أحق برسول الله منكم"، فغضبت وقالت: "كلا والله، كنتم مع رسول الله يطعم جائعكم ويعظُ جاهلكم، وكنا في دار – أو في أرض – البعداء والبغضاء في الحبشة، فذلك في الله وفي رسول الله"، ثم ذهبت لتسأل النبي (ﷺ) فقال لها : "ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان"،[5] وهذا هو حال الجميع من تحمل مسؤولية التعليم أولاً وأدائها خير أداء ثانياً.

رابعاً – استمرارية التعليم :

لم يكن التعلُّم في عصر النبي (ﷺ) يتوقف عند حدّ أو سنّ أو درجة، بل تسابق الجميع لسماع أكبر قدر من كلام النبي (ﷺ)، وإذا ما فات بعض الصحابة شيئاً سارع إلى استدراك ما فاته، وكان بعضهم يتناوب الحضور مع غيره حتى لا يفوته شيء، فقد روى عبد الله بن عباس عن عمر، قال : "كنت أنا وجارٌ لي من الأنصار في بني أمية بن زيد، وهي من عوالي المدينة، كنا نتناوب النزول على

---

[1]. انظر في هذا البحث ص ٥٨.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٠١/٥.

[3]. انظر في هذا البحث ص ٥٠.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٩٦/٨. و انظر الزركشي : الإجابة فيما استدركته عائشة على الصحابة. وانظر في هذا البحث ص ٥٨.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٠٦/٤. رواه البخاري : الصحيح بشرح فتح الباري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، حديث (٤٢٣٠، ٤٢٣١)، ٥٥٣/٧.

الرسول (ﷺ)، ينزل يوماً وأنزل يوماً، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نـزل فعل مثل ذلك ...".[1]

وكان أبو هريرة يوقف أبا بكر وعمر ليسألهما عن آيات في كتاب الله، وكـان مـن ضمانـات الاستمرارية اتساع دائرة النصوص وعمومها، بحيث لا يحدّها زمان ولا تنحصر في أطر محدودة، بل هـي معين لا ينضب على كثرة وروده، ويبيّن الله - عز وجـل - أن الإنسـان مهمـا توصّـل إلى اكتشـافات جديدة، وفي مختلف العلوم، فإن ما خفي عليه سيبقى أضعـاف ذلـك : **﴿ومـا أوتيتـم مـــن العلـم إلا قليلاً﴾**".[2]

خامسا - الواقعيّة العمليّة :

كان النبيّ (ﷺ) يعلّم أصحابه ما يخصهم ويعنيهم ويلامس واقعهم، بعيداً عمّا لا يعنيهـم، لهـذا كانت مجالات التعليم ومواده ترتبط بعقيدة المسلم وشعائره التي سيؤديها، فكانت مواد التعليم تشـمل : القرآن، وأحكام الدين، وما يحلّ وما يحرم.

سادسا - الاستفادة مما لدى الآخرين :

وذلك فيما لا يتعارض مع الإسلام، فنجد النبيّ (ﷺ) يرسل بعثةً لتتعلـم بعـض العلـوم العسـكريّة، مثل معرفة بعض الآلات وطرق تصنيعها، فقد أرسل عـروة بـن مسـعود وغيـلان بـن سـلمة إلى جـرش ليتعلما صنعة الدبابات والمجانيق هناك،[3] كما وعلّم أسرى بـدر مـن المشـركين أبنـاء المسـلمين الكتابـة وذلك مقابل إطلاقهم.

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١١٤/٨. رواه البخاري : الصحيح بشـرح فتـح البـاري، كتـاب العلـم، بـاب التناوب في العلم، حديث (٨٩)، ٢٢٣/١.

[2]. سورة الإسراء، آية ٨٥.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٤٤/٤. والدبابات :آلة حربية مصنوعة من خشب تتكون من برج متحرك مصنـوع مـن الخشـب مغطى من فوقه بالرصاص، كان الجنود المهاجمون يحتمون به ويعملون على إزالة الأسوار بواسطته، الخطيب، مصطفى عبد الكريـم : معجـم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص ١٧٦، و المنجنيق : آلـة حربيـة مـن آلات الحصـار مصنـوع مـن الخشـب لـه رأس ثقيـل وذنـب خفيف، بنهايته كفة يوضع فيها الحجر، ثم تقذف به نحو الهدف. (مصطفى الخطيب : معجم المصطلحات، ص ٤١).

المبحث الثاني :

السمات العامة للآثار التربوية في عصر الصحابة

يعدّ جيل الصحابة خير الأجيال التي شهدها التاريخ وهم من أخذ بحظ وافر من هدي النبوّة، وحملوا على عواتقهم رسالة الإسلام في حياة النبيّ (ﷺ) وبعد وفاته، ونالوا شرف صحبته، ورؤيته، والجلوس بين يديه، فاستحقوا رضى الله – عز وجل – عنهم، حيث يقول سبحانه : ﴿**والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والّذين اتبعوهم بإحسان رضي اللّه عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، ذلك الفوز العظيم**﴾.[1]

وأمرنا بمحبتهم والثناء عليهم والدعاء لهم فقال – عز وجلّ – : ﴿**والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الّذين سبقونا بالإيمان**﴾.[2]

وأشار النبيّ (ﷺ) إلى أفضليتهم وسبق خيرهم على من سواهم فقال : "خير القرون قرني، ثمّ الّذين يلونهم، ثمّ الذين يلونهم".[3]

يقول الماورديّ : "واختار اللّه لصحبة نبيّه (ﷺ) أفواجًا، وجعلهم له أنصارا وأعوانا، فأمره بتأديبهم وتقويمهم وتعليمهم وترغيبهم وتخويلهم بالموعظة، وتعهدهم بالتذكرة حتى كانوا أفضل أمته فضيلة، وأبعدهم في الفضل غاية وأرفعهم درجة".[4]

وإذا كان دور الصحابة في حياة النبيّ (ﷺ) يتلخص في تلقي النصوص، والإحاطة بها، ووعيها وحفظها، والعمل بها، وتبليغها، فيضاف إليها بعد وفاة النبيّ (ﷺ) السعيُ لنشرها وإيصالها لمن لم تصله بعد، وإزالة العوائق والسدود التي تحول دون دخول الناس في الإسلام.

ومن مهمتهم أيضاً المحافظة على المصادر الشرعيّة، وهي القرآن والسنة، من فهم سقيم أو طعن عقيم، أو تحريف محرّف أو تزييف مزيّف،[5] ففي الحديث عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذريّ،

---

[1]. سورة التوبة، آية ١٠٠.

[2]. سورة الحشر، آية ١٠.

[3]. رواه البخاري : انظر تخريجه ص ٤٥. وانظر العدوي، مصطفى : الصحيح المسند من فضائل الصحابة.

[4]. الماوردي، علي بن محمد : نصيحة الملوك، ص ٢٦٣.

[5]. انظر ابن الأثير : أسد الغابة، ٩/١.

قال (ﷺ) : "يحمل هذا العلم من كل خَلَفٍ عُدولُه، يَنفُون عنه تحريفَ الغَالين وانتحالَ المُبطلين وتأويلَ الجاهلين"،[1] وفيما يلي نعرض لأهم السمات التربويّة في عصر الصحابة رضوان الله عليهم.

المطلب الأول :

انتشار الصحابة في الأمصار

كانت هجرة النبيّ (ﷺ) من مكة إلى المدينة المنورة تعني تحولاً كبيراً في الدور الذي ستقوم به هذه البلدة، ابتداءً من تغيير اسمها إلى المدينة المنورة، حتى أصبحت مركز العلم الذي يقصده الناس من مختلف البقاع، وبقي نور المدينة يشع على بقيّة الأمصار، إما بخروج العلماء منه أو بقدوم الطلبة إليها، وفي حياة النبيّ (ﷺ) كان الصحابة لا يقبلون بغير بلد النبيّ بلدًا، ولا يرضون بغير جواره جوارًا، ولا يخرجون منها إلا عن أمر النبيّ (ﷺ)، في سريّة جهاديّة، أو بعثة علميّة، أو مهمة آنيّة، ثمّ يعودون.

وفي خلافة أبي بكر ومع اتساع دائرة الفتوحات خرج كثيرٌ من الصحابة في حروب الردة، وفتوح الشام، والعراق، وقدا ستقر بعضهم في البلاد المفتوحة، إمّا ولاة أو معلمين، أو الوظيفتين معًا.

و أمّا في خلافة عمر فقد كان الخروج من المدينة محددًا و مقيّدًا، وكان يمنع كبار الصحابة من الخروج إلاّ للضرورة، وذلك ليعينوه على تحملِ أمور الخلافة، بالنصح والمشورة والتقويم، وكان يقول : "إني أخاف أن تروا الدنيا وأن يراكم أبناؤها".[2]

ولّما آلت الخلافة إلى عثمان بن عفان ـ رضي اللّه عنه ـ سمح للصحابة بالخروج دون قيود، فانتشر الصحابة في الأمصار وأقاموا فيها.

وقد ظهرت بسببهم مدن علميّة جديدة، سوى المدينة ومكة، وامتد العلم بامتدادهم، وصار لكل واحدٍ منهم أصحاب يأخذون عنه، واجتمع الناس عليهم حيث نزلوا.[3]

وكان خروجهم إما جهاداً حيثما وجد الجهاد وإذا انتقل الجيش انتقلوا معه، ومن هؤلاء أبو أيوب الأنصاري حيث كانت وفاته قريباً من سور القسطنطينية، وهو في جيش يزيد بن معاوية سنة اثنتين وخمسين.[4]

---

[1]. رواه الخطيب التبريزي : مشكاة المصابيح، تحقيق الألباني، ٨٢/١. حديث (٢٤٨)، قال الشيخ ناصر الدين الألباني : "ولكن الحديث قد روي موصولاً من طريق جماعة من الصحابة وصحح بعض طرقه الحافظ العلائي".

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٢٩/٧.

[3]. انظر مطالقة، أحلام : أثر انتقال الصحابة إلى الأمصار في توسيع دائرة الفكر التربوي الإسلامي في عهد عمر بن الخطاب /رسالة ماجستير غير منشورة، ١٩٩٥.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٦٢/٨.

وإمّا استقراراً في الأمصار، فقد استقر أبو موسى الأشعري في الكوفة، وبنى بها داراً، فاجتمع إليه أهلها وتعلموا منه.[1]

ومن المدن أيضاً التي حظيت بنزول الصحابة فيها اليمن، حيث نزلها علي، وخالد، ومعاذ، وأبو موسى الأشعري، وعمرو بن حزم، وخالد بن سعيد وغيرهم.[2]

ونزل الشام أبو عبيدة، والمقداد بن الأسود، وشرحبيل بن حسنة، وأبو الدرداء وخالد ابن الوليد، ويزيد بن أبي سفيان، وأبو جندلة، والفضل بن عباس، وقد توفي في طاعون عمواس وحده سنة ثماني عشرة خمسة وعشرون ألف صحابي، وممن استُشهد فيه من كبار الصحابة أبو عبيدة ومعاذ ابن جبل وغيرهم،[3] وابتنى ثوبان مولى رسول الله (ﷺ) داراً في حمص، ولم يزل بها حتى مات، وكان قبل ذلك مقيماً في الرملة،[4] وقد ازداد توجه الصحابة إلى الشام بعد انتقال الخلافة إليها زمن معاوية.[5]

وأما الكوفة فقد تناوب على ولايتها أبو موسى الأشعري، وعمّار بن ياسر، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود، والمغيرة بن شعبة، وحذيفة بن اليمان،[6] وازداد دورها التعليمي عندما نزلها علي بن أبي طالب، واتخذها عاصمة لخلافته، فكان يدعو الفقهاء إلى رحبته فيسألهم ويسألونه.[7]

وأما البصرة، فقد أقام بها أنس بن مالك، ونزلها جابر بن عبد الله، وسهل بن سعد الساعديّ،[8] وأقام فيها ابن عباس عندما ولاّه إياها عليّ بن أبي طالب، فكان أهلها يكثرون على بابه،[9] وتولى أبو هريرة ولاية اليمامة، والبحرين، فأسمع الناس فيها أحاديث النبي (ﷺ)، وتفقه أهل تلك البلاد على يديه،[10] وأقام ابن عمر في مصر بعد فتحها يعلّم الناس أمور دينهم.[11]

أما الآثار المترتبة على هذا الانتقال فمن أهمّها :

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣١١/٦.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٩٥/٧ و ما بعدها.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٦٠/٨.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٧٠/٨.

[5]. انظر فيمن نزل دمشق من الصحابة، ابن عساكر : تاريخ دمشق.

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢٩/٧.

[7]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٥/٩.

[8]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٨٨/٩، ٩٩.

[9]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٠٧/٨. وانظر الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد.

[10]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٠٣/٧.

[11]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٥/٩.

أ ـ نقل العلوم الشرعية إلى التابعين : وإيجاد جيل يحمل لواء العلم، وينشر هدي النبي (ﷺ)، لضمان التزام الأمة بأحكام دينها، واتباع سنة نبيها، و بالتالي بقاء قوتها وتماسكها.

فبعد انتشار الصحابة أصبح لكلٍ منهم أصحاب وتلاميذ يحملون فقهه، ويروون حديثه الذي سمعه من النبي (ﷺ)، فمن أصحاب معاذ بن جبل رضي الله عنه مالك بن يخامر (ت : ٧٤)،[١] ومن أخص أصحاب ابن مسعود علقمة بن قيس (ت : ٦٢)،[٢] وعبد الله بن حمام (ت : ٧٢)،[٣] والأسود ابن يزيد (ت : ٧٥)،[٤] وزر بن حبيش (ت : ٨١)،[٥] وأبو عبد الرحمن السُّلمي (ت : ٧).[٦]

وأما أصحاب ابن عباس فهم كثر، ومن أبرزهم مجاهد بن جبر (ت : ١٠٣)، فقد كان أعلم أهل زمانه بالتفسير، حيث لازم ابن عباس وعرض عليه القرآن مرتين يقف عند كل آية يسأل عنها،[٧] ومنهم سعيد بن جبير (ت : ٩٤)، حيث سكن مكة، وأخذ التفسير عنه،[٨] ومولاه كريب ابن مسلم (ت : ٩٩)،[٩] حيث لازمه وحفظ عنه الكثير، ومنهم طاووس اليماني (ت : ١٠٦)،[١٠] وعطاء بن أبي رباح (ت : ١١٤)،[١١] وعكرمة (ت : ١٠٧) أحد العلماء الربانيين والمفسرين المكثرين.[١٢]

ومن أصحاب أنس بن مالك ابن سيرين (ت : ١١٠)،[١٣] وعندما أقام أنس في البصرة لازمه الحسن البصري (ت : ١١٠) وأخذ عنه.[١٤]

أما أصحاب ابن عمر فمنهم مولى أبيه أسلم (ت : ٨٠)، وابنه زيد بن اسلم، وهما من كبار علماء التابعين،[١٥] ومن أصحابه أيضاً مولاه نافع (ت : ١١٧).[١٦]

---

١. ابن كثير : البداية والنهاية، ٩٢/٥، ٣١٧/٨. *
٢. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢١٩/٨. *
٣. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٣٣/٨. *
٤. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣/٩. *
٥. ابن كثير : البداية والنهاية، ٥٠/٩. *
٦. ابن كثير : البداية والنهاية، ٧/٩. *
٧. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٠٦/٨. *
٨. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٠٣/٩. *
٩. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٩٤/٩. *
١٠. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٣٣/٩. *
١١. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣١٧/٩. *
١٢. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٥٤/٩. *
١٣. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٧٩/٩. *
١٤. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٧٨/٩. *
١٥. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٥٧/٦. وانظر ترجمة أسلم في البداية والنهاية، ٣٥/٩. وزيد في السير، ٣١٦/٥.
١٦. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٣٢/٩. *

ومكث أبو عثمان النهدي (ت : ١٠٠) في صحبة سلمان الفارسي اثنتي عشرة سنة، حتى دفنه بيده،[1] وهكذا نرى أثر انتقال الصحابة في تكوين جيلٍ من علماء التابعين، ليحمل هذا الدين من كل خَلَف عدوله، ويختار الله لدينه رجالاً يبلغونه.

يقول الدكتور أكرم العمري : "وقد ترك خروج الصحابة من المدينة إلى الأمصار مع جيوش الفتح تأثيرًا بالغًا في انتشار العلم وتفرق العلماء، وقد ظهرت تقاليد علميّة استمرت راسخة لقرون عديدة، وتركت آثاراً عميقة في تواصل الحركة العلمية في أرجاء العالم الإسلامي، في توحيد الآداب والمناهج والتقاليد العلمية".[2]

ب ـ ظهور المدارس العلمية : وهو ثمرة لما سبق، إذ أدى تفاوت الصحابة في العلم، واجتماع طلبة العلم حولهم يأخذون برأيهم إلى تكون النواة الأولى لمدارس العلوم الشرعية القائمة على التخصص في علم بعينه، فمدرسة التفسير في مكة يتولاها ابن عباس وينشرها تلاميذه أمثال مجاهد وعكرمة، وطاووس، وابن جبير، حتى قال سفيان الثوري : "خذوا التفسير من أربعة : سعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة، والضحاك".[3]

ومدرسة الفقه في الكوفة حيث يتولاها ابن مسعود، وأصحابه هم فقهاء الكوفة أمثال علقمة والأسود بن يزيد ومدرسة القراءة في البصرة، يتولاها أبو موسى الأشعري، وأخرى في الشام تولاها أبو الدرداء والمقداد، "وهكذا تحولت حركة التعليم إلى كتاتيب وحلقات علم، ومجالس في المساجد وفي دور العلماء، وظهرت جذور المدارس الفكرية المتنوعة، متمثلة بمدرسة أبي موسى الأشعري في القراءات في البصرة، ومدرسة عبد الله بن مسعود في الفقه في الكوفة ومدرسة عبد الله بن عباس في التفسير بمكة".[4]

وقد ظهر أثر تعدد القراءات في بعض الغزوات، عندما وقع التنازع والخلاف لمّا اجتمع خلق من أهل الشام ممن يقرأ على قراءة المقداد بن الأسود وأبي الدرداء، وجماعة من أهل العراق يقرؤون بقراءة ابن مسعود، وأبي موسى الأشعري، وحصل لغطٌ في تفضيل قراءةٍ على أخرى، ممن لا يعلم بسوغان القراءة على سبعة أحرف، مما دفع حذيفة إلى المسارعة برد الأمر إلى الخليفة عثمان –رضي الله عنه–، حيث قال : "يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن تختلف في كتابها كاختلاف اليهود

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٩٩/٩. *

[2]. أكرم العمري : بحث التعليم في عصر السيرة والراشدين، ٧٣/١.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٥٥/٩. والضحاك هو ابن مزاحم الهلالي (ت : ١٠٢)، انظر ترجمته في البداية والنهاية، ٢٣١/٩.

[4]. أكرم العمري : التعليم في عصر السيرة والراشدين، ٦٤/١.

والنصارى في كتبهم"، وعند ذلك رأى عثمان أن يكتب المصحف على حرف واحد، وأن يجمع الناس في سائر الأقاليم على القراءة به دون ما سواه.[1]

جـ ـ قيام حواضر جديدة للعلم : كانت المدينة المنورة بدايةً هي الحاضرة الوحيدة التي ينطلق منها العلم، وتبعتها مكة بعد الفتح، وخصوصاً بعد إقامة كثيرٍ من الصحابة فيها، ومع توسع الفتوحات، وانتشار الجند، احتاج المسلمون لبناء مدن جديدة تكون قريبة من البلاد المفتوحة، بحيث ينطلق منها الجند.

وكانت أول هذه المدن الكوفة، حيث اشتكى جند العراق من ذباب المدائن وغبارها، فأوعز عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص ببناء مدينة الكوفة سنة ست عشرة للهجرة،[2] وبنزول علماء الصحابة فيها وارتحال الطلبة إليها، وأخذ الناس عنهم، أصبحت مركزاً جديداً من مراكز العلم.

والأمر نفسه حصل بمدينة البصرة من حيث البناء ونزول كبار العلماء فيها، وأصبحت الشام من حواضر العلم المهمة، فقصد الطلبة حلقة أبي الدرداء بجامع دمشق، ونزلها أنس وأبو هريرة –رضي الله عنهما–.

ومثلها اليمن واليمامة حيث أقام الصحابة فيهما، فسهّلت كثرة الحواضر مهمة الطلبة في تحصيل العلم، وبرز في كل بلد علماء أجلاء، يعلمون الناس أحكام دينهم.

د ـ تنشيط الحركة العلميّة : أدى تفرق الصحابة في الأمصار، مع ما حملوه معهم من أحاديث عن النبي (ﷺ)، وأحداث سيرته، إلى توجه الطلبة إليهم في الأمصار، فأدى ذلك إلى ظهور الرحلة العلمية، بما حملته معها من نشر العلوم والمعارف، والحديث عن الرحلة لاحقٌ –بعون الله–.

المطلب الثاني :

تفاوت الصحابة في تحصيل العلوم الشرعية

سبق أن أشرنا إلى التفاوت بين الصحابة في العلوم التي حفظوها وفقهوها عن رسول الله(ﷺ) بين مقلّ ومكثر، وتمايز بعض الصحابة بتخصصاتهم على غيرهم، فأقضى الصحابة علي، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ، وأفرضهم زيد، وأقرأهم أُبي بن كعب،[3] وأكثرهم رواية للحديث عن النبي (ﷺ)

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٧/٧. رواه البخاري : الصحيح بشرح فتح الباري، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، حديث (٤٩٨٧)، ٦٢٧/٨.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٤٧/٨.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٠١/٥. رواه الترمذي : سنن الترمذي، كتاب المناقب، باب مناقب معاذ وزيد، حديث (٣٨١٦)، ٤٣٥/٥، وقال عنه : حسن صحيح.

أبو هريرة، حيث روي عنه ثلاثمائة من الصحابة والتابعين، وروى هو عن أبي بكر وعمر وأبي ابن كعب وعائشة وأسامة بن زيد وغيرهم،[1] وقد أدرك الصحابة من خلال العديد من النصوص مهمتهم المستقبليّة، فهم خلفاء الرسول (ﷺ) في الدعوة والتبليغ، لذلك حرصوا على الحفظ والفهم، والإحاطة بكل قول أو فعل صدر عن النبي (ﷺ).

أمّا أبرز العوامل التي ساعدت على الحفظ و الاهتمام فمنها صفاء الذهن وقوة الذاكرة، ثمّ مكانة حديث النبي (ﷺ) في الإسلام، وحرصهم الشديد على الاقتداء بالنبي (ﷺ)، وبعد ذلك مكانة العلم في الإسلام.

وأمّا أهمّ أسباب التفاوت في الإكثار من رواية الحديث فهو شدة الملازمة للنبي (ﷺ)، فقد ذكر أبو هريرة ملازمته للرسول (ﷺ) سفرًا وحضرًا، مع حرصه على سماع الحديث،[2] ويؤكد طلحة ابن عبيد الله ذلك فيقول : "إنا كنّا قومًا أغنياء لنا بيوتات وأهلون، وكنا نأتي رسول الله(ﷺ) طرفي النهار ثم نرجع، وكان هو مسكينا لا مال له ولا أهل وإنما كانت يده مع رسول الله (ﷺ)، فكان يدور معه حيث دار، فلا نشك أنه قد علم ما لم نعلم وسمع ما لم نسمع".[3]

وكان للجهد الذاتي أثر كبير في تحصيل العلم، فكان ابن عباس يلزم كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار، فيسألهم عن المغازي وعما نزل من القرآن، فقد كان يسأل عن الأمر الواحد ثلاثين من أصحاب رسول الله(ﷺ)،[4] وقد أخذ علم أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وأبي وغيرهم،[5] وأخذ حجر بن عدي العلم عن علي وعمار وشراحيل بن مُرّة.[6]

وأما أبو هريرة فقد بلغ من حرصه أن يلحق بأبي بكر وعمر ليسألهم عن بعض آيات كتاب الله،[7] يجعل جزءًا من الليل لاستذكار حديث رسول الله(ﷺ)،[8] وكان عبد الله بن عمرو بن العاص يكتب ما يسمع من رسول الله (ﷺ) في صحيفة حتى لا ينساها، واشتهرت باسم الصحيفة الصادقة وتبعاً لذلك فقد كان بعض الصحابة كثير السماع كثير الرواية كأبي هريرة، وبعضهم كثير السماع قليل الرواية، كأبي بكر، وبعضهم قليل السماع قليل الرواية وهم كُثُر.

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٠٧/٨.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١١١/٨.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١١٢/٨.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٠١/٨.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٠٥/٨.

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٥١/٨.

[7]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٠٤/٦.

[8]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١١٣/٨.

ونجد أن كثيراً من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ قد دوّن ما يحفظ من أحاديث النبي (ﷺ) في صحف خاصة به، ومن أشهر هذه الصحف : صحيفة سعد بن عبادة الأنصاري، وصحيفة عبد الله ابن أبي أوفى، وصحيفة سمرة بن جندب، وصحيفة أبي هريرة، وصحيفة أبي موسى الأشعري، وصحيفة جابر بن عبد الله، والصحيفة الصادقة لعبد الله بن عمرو بن العاص.[1]

وقد كانت هذه الصحف خاصة وشخصية، ودون تبويب أو ترتيب، و لم يكن من مقصود أصحابها أن يتداولها الناس.[2]

ومن هنا نقول بأن الصحابة لم يتساووا في تحصيل العلوم الشرعية، يقول ابن خلدون : "ثمّ إنّ الصحابة لم يكونوا كلهم أهل فُتيا، ولا كان الدين يؤخذ من جميعهم، وإنما كان ذلك مختصاً بالحاملين للقرآن، العارفين بناسخه ومنسوخه ومتشابهه ومحكمه وسائر دلالاته بما تلقوه من النبي (ﷺ) أو ممن سمعه منهم من عليتهم".[3]

المطلب الثالث :

البعثات التعليميّة

اقتدى الخلفاء الراشدون بمنهج النبي (ﷺ) في إرسال بعثات تعليمية إلى الأمصار المفتوحة، والتي يحتاج أهلها إلى من يعلمهم أمور دينهم.

فقد أرسل عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ عشرة رجال إلى البصرة، ليفقهوا الناس في أمور دينهم، وكان منهم عبد الله بن المغفل المزني،[4] وأرسل أيضاً عبد الله بن غَنْم الأشعري إلى الشام ليبصر أهلها بأمور دينهم،[5] وكتب يزيد بن أبي سفيان إلى عمر بن الخطاب : "أن أهل الشام كثير، وقد احتاجوا إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم"، فقال عمر : "أعينوني بثلاثة، فقالوا : هذا شيخ كبير لأبي أيوب، وهذا سقيم لأُبي بن كعب، فخرج معاذ وعبادة وأبو الدرداء، فقال عمر : ابدؤوا بحمص، فإذا رضيتم منهم، فليخرج واحد إلى دمشق، وآخر إلى فلسطين، فأقام بها عبادة، وخرج أبو الدرداء إلى دمشق، ومعاذ إلى فلسطين، ومات معاذ عام طاعون عمواس، وصار عبادة بعده إلى فلسطين فمات بها، و لم يزل أبو الدرداء بدمشق حتى مات".[6]

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٨/١١٠. وانظر الخطيب البغدادي : تقييد العلم، ص ٨٤.

[2]. أكرم العمري : بحوث في تاريخ السنة المشرفة، ص ٢٢٣. وانظر نور الدين عتر : منهج النقد في علوم الحديث، ص ٤٥.

[3]. انظر نور الدين عتر : منهج النقد في علوم الحديث، ص ٤٥. ابن خلدون : المقدمة، ص ٤١٦.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٦٢/٨.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٨/٩.

[6]. ابن عساكر : تاريخ دمشق، ١٩٤/٢٦.

المبحث الثالث :

السمات العامة للآثار التربوية في عهد التابعين

ومن تبعهم حتى نهاية القرن الثالث

لم يكد يمضي جيل الصحابة حتى كان جلّ علمهم قد أودع صدور من بعدهم، وهم التابعون الذين شهد لهم النبي (ﷺ) بالخيرية أيضًا، وأمّا المهمات التي تكفل التابعون بها فهي العناية بحفظ كتاب الله وسنة نبيه (ﷺ)، فهمًا وعملاً ونشرًا وتبليغًا لها، ثم كان من أبرز مهماتهم البحثُ عن الإسناد بتقصي أحوال الرواة ونَقَلَة الأخبار، وفق منهج علمي دقيق، ثمّ تدوينها بعد ذلك،[1] ولما كانت ثَمّ سماتٌ كثيرة مشتركة بين القرون التي تلت عصر الصحابة يصعب فصلها، كان الأولى أن تُورَدَ هذه السمات المشتركة تحت عنوان واحد، وهو السمات العامة للتعليم بعد عصر الصحابة، والتي نوردها فيما يلي :

المطلب الأول :

الصحبة والملازمة

تُعدّ الصحبة و الملازمة من الوسائل المهمة لتلقي العلم، وانتقاله من جيل لآخر، ومن الشيخ لتلاميذه فلازم الصحابةُ النبيَّ (ﷺ) ولازم صغارُ الصحابة كبارَهم، ولازم التابعون الصحابة، وهكذا استمر انتقال العلم من جيل لآخر.

وقد أشرنا إلى تفرق الصحابة في الأمصار واجتماع كل أهل بلد على الصحابي الذي يقيم، بينهم فيلازمونه ويأخذون عنه ويتفقهون على يديه، فلازم مجاهدٌ وابنُ جُبير ابنَ عباس، حتى أصبحا من أعلم الناس بالتفسير،[2] ولازم عطاءٌ ابن عباس أيضًا حتى وَرِث حَلْقته،[3] وبلغ من ملازمة سعيد ابن المسيّب (ت : ٩٤) لأبي هريرة أن تزوج سعيدٌ ابنته، وإذا كان أبو هريرة أعلمَ الناس بحديث رسول الله (ﷺ) وأحفظهم له، فإن سعيدًا أعلم الناس بالأحاديث التي يرويها أبو هريرة،[4] وكانت الوفود ترد ابن عمر من مشارق الأرض ومغاربها.[5]

---

[1]. انظر الزهراني، محمد مطر : تدوين السنة النبوية، ص ٣٦.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٠٣/٩.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٠١/٩.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٠٥/٩. *

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٦/٩.

ولازم أبو عثمان النهدي سلمان الفارسي اثنتي عشرة سنة حتى دفنه بيده،[1] ولازم أبو الشعثاء (ت : ٩٣) جابرَ بنَ عبد الله حتى وضع له منهجًا في الفتوى يسير عليه، فقال له : "يا ابنَ زيد، إنك من فقهاء البصرة، وإنك ستفتي، فلا تفتينّ إلاّ بقرآن ناطق، أو سنة ماضية، فإنك إن فعلت ذلك فقد هلكت وأهلكت".[2]

وبلغ من حرص التابعين ألاّ يدَعُوا موقفًا يأخذون فيه عن أصحاب رسول الله (ﷺ) علماً إلاّ فعلوا، فعندما قدم أنس بن مالك الشام رآه مكحول (ت : ١١٣) فسارع إلى سؤاله عن الوضوء من الجنازة،[3] واجتمع أهل دمشق إلى أبي هريرة عندما قدم الشام في خلافة معاوية ليحدّثهم، فقام يحدّثهم حتى أصبح،[4] ولما حج سعيد بن جمهان أخذ يبحث عن صحابة رسول الله (ﷺ) علّه يظفر بأحدهم، فلما التقى سفينة مولى رسول الله (ﷺ) لازمه ثلاث ليالٍ، وهو يسأله عن حديث رسول الله(ﷺ).[5]

وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلمي القرآن على عثمان وابن مسعود رضي الله عنهما، فأصبح مقرئ أهل الكوفة، وممن قرأ عليه عاصم بن أبي النجود (ت : ١٢٧).[6]

ولازم التابعون بعضهم بعضا، فقد روي قبيصة بن ذؤيب (ت : ٨٧) : أنه في خلافة معاوية كانوا يجتمعون في المسجد بالليل، هو ومصعب وعروة أبناء الزبير وعبد الملك بن مروان وعبد الرحمن ابن المسور وغيرهم،[7] وجالس ابن شهاب الزهري (ت : ١٢٤) سعيد بن المسَيَّب ثماني سنين تمس ركبتُه ركبته، وكان يدور على مشايخ العلم يأخذ عنهم، ويكتب ما يسمع منهم،[8] وبلغ من شدة ملازمة الزهري لزهير بن عتبة أن تظنّ جاريته أن الزهري غلامه،[9] ولازم أيضا علي بن الحسين (ت : ٩٤) حيث يقول فيه : "كان أكثر مجالستي مع علي بن الحسين وما رأيت أفقه منه".[10]

وصحب أبو يوسف (ت : ١٨٢) شيخَه أبا حنيفة سبع عشرة سنة، وهو يأخذ من علمه، فكان من أخص أصحابه،[11] وصاحب الشافعي (ت : ٢٠٤) محمد بن الحسن الشيباني (ت : ١٨٩)

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٩٩/٩.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٩٩/٩. *

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٩٤/٩. انظر ترجمة مكحول الشامي، البداية والنهاية، ٣١٧/٩.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١١٠/٨.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٧٤/٥.

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٧/٩. وانظر ترجمة عاصم أبن النجود : السير، ٢٥٦/٥.

[7]. ابن عساكر : تاريخ دمشق، ٢٤٨/٤٠. انظر تراجمهم في السير قبيصة بن ذؤيب، ٢٨٢/٤، عبد الملك بن مروان، ٢٤٦/٤.

[8]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٥٥/٩. *

[9]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٥٨/٩.

[10]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١١١/٩. *

[11]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٨٨/١٠. *

وكتب عنه وقر بعير،[1] وعندما ورد الإمام البخاري (ت : ٢٥٦) بنيسابور لازمه الإمام مسلم (ت : ٢٦١)، وأدام الاختلاف إليه،[2] وكان أبو بكر أحمد بن محمد المروزي (ت : ٢٧٥) من أخص أصحاب الإمام أحمد (ت : ٢٤١) فكان الإمام أحمد يقدّمه على غيره.[3]

ولم تقتصر الصحبة على أهل القرآن والحديث والفقه، بل تعدتهما لتشمل مختلف العلوم، فقد صحب الأصمعي (ت : ٢١٦) أبا عمرو بن العلاء (ت : ١٥٤) نحواً من عشر سنين،[4] ولازم سيبويه (ت : ٢٠٨) الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت : ١٧٠)، وأخذ عنه النحو، وكان كلما قدم سيبويه خاطبه الخليل : "مرحبًا بزائر لا يُمَلّ".[5]

وقد ساعد كثير من العلماء طلبتهم على الملازمة، بحيث يتولى الشيخ الإنفاق على تلاميذه، وتوفير النفقة لهم، وذلك لتفريغ همّهم وحصر جهودهم في طلب العلم وتحصيله، ومن العناية بالتلاميذ أن سعيد بن المسيب زوج ابنته لتلميذه أبي وداعة، وكان عبد الملك قد خطبها لابنه الوليد فرفض سعيد ابن المسيب ذلك.[6]

وكان أبو حنيفة أكرم الناس مجالسة وأشدهم إكراماً لأصحابه،[7] وكان البويطي (ت : ٢٣١) يدني القّراء ويقربهم إذا طلبوا العلم، وينقل قول الشافعي : "اصبر للغرباء وغيرهم من التلاميذ"،[8] وكان الليث بن سعد (ت : ١٧٥) كثير الإنفاق على تلاميذه، بحيث يهب للرجل من أصحابه أحياناً الألف دينار،[9] وكان عبد الله بن المبارك (ت :١٨٠) يأتيه من كسب يده كل سنة مائة ألف دينار ينفقها كلها في أهل العبادة والزهد والعلم،[10] وكان إسماعيل بن عُلَيَّه (ت : ١٩٣) يبر أصحابه مثل السفيانين.[11]

ونشير أخيرًا إلى الصحبة بين الأقران، والتي تساعد في عملية التحصيل والمذاكرة الحفظ، تعين على تلقى العلوم، فكان العلماء يوصون تلاميذهم بحسن اختيار الأصحاب، مثل أن يصاحب من

---

1. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٦٣/١٠. * وانظر ترجمة محمد الحسن الشيباني في البداية، ٢١٠/١٠.
2. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٧/١١. * وانظر ترجمة الإمام البخاري في البداية، ٢٧/١١.
3. ابن كثير : البداية والنهاية، ٥٨/١١. * وانظر ترجمة الإمام أحمد، ٢٤٠/١٠.
4. ابن كثير : البداية والنهاية، ١١٥/١٠. * وانظر ترجمة الأصمعي في السير، ١٧٥/١٠.
5. ابن كثير : البداية والنهاية، ٧٤/١١. * وانظر ترجمة الخليل بن أحمد في السير، ٤٢٩/٧.
6. ابن جماعة : تذكره السامع، ص ٦٢. الهامش.
7. المصدر السابق، ص ٦٧.
8. المصدر السابق، ص ٦٦. وانظر ترجمة البويطي في السير، ٥٨/١٢.
9. المصدر السابق، ٩١٠١٧١. *
10. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٨٤/١٠. *
11. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٣٣/١٠. * والسفيانان وهما سفيان بن عيينة وسفيان الثوري.

اتصف بالتقوى والجدّ والحرص، يقول الزرنوجي : "أما اختيار الشريك فينبغي أن يختار المجد والورع، وصاحب الطبع المستقيم والمتفهم، ويفرّمن الكسلان والمعطل و المفسد"،[1] وكان الشيوخ يساعدون تلاميذهم على اختيار الشريك بطرد غير السوّي من مجالسهم، يقول أحمد بن عمرو بن الضحاك : "لا أحبّ أن يحضر بمجلسي مبتدع، ولا طعان، ولا لعّان، ولا فاحش، ولا بذيء، ولا منحرف عن الشافعي وعن أصحاب الحديثِ".[2]

الآثار التربوّية للصحبة :

وأمّا الآثار التربوية للصحبة فتظهر من خلال النقاط التالية :

١- **إن المحاكاة والمباشرة اللتين توفرهما الصحبة يعّدان من أهم طرق اكتساب العلم :** يقول ابن خلدون عن طرائق التعلّم أنها تكون "تارةً علمًا وتعليمًا وإلقاءً، وتارة محاكاة وتلقينًا بالمباشرة، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشدّ استحكاماً وأقوى رسوخًا".[3]

٢ - **اكتساب حسن الأدب والعشرة من الشيخ، ولما شهد الشرع والعقل بفضله :** يقول ابن سيرين: "كانوا يتعلمون الهدي والهيئة والسيرة والطريقة كما يتعلمون العلم".[4]

وقال الحسن البصري : "وإن كان الرجل ليخرج في أدبٍ واحد السنتين والسنين"،[5] وأوصى حبيب بن الشهيد (ت : ١٠٩) ابنه فقال : "يا بني، اصحب الفقهاء والعلماء وتعلّم منهم، وخذ من أدبهم فإن ذلك أحبّ إلي من كثير من الحديث".[6]

٣ - **التربية العملية على الأخلاق والآداب الإسلامية :** وذلك بتلقي نصائح الشيخ وتوجيهاته، فيقف الشيخ على هفوات الطالب بالنصح والتلطف، قاصداً حسن تربيته، وتحسين خلقه، وإصلاح شأنه وتأديبه بالآداب السُنيّة، وموصيه بالأمور الشرعية.[7]

٤ - **اتساع دائرة التحصيل كماً ونوعاً :** فأمّا كماً، فإن المصاحبة توفر تعلما وتربية طوال الوقت في العبادات والمعاملات والأخلاق، وأمّا نوعاً فلأن العلماء يتحدثون بأفضل ما

---

[1]. الزرنوجي، برهان الدين: تعليم المتعلم طريق التعلّم، ص ٥٠.

[2]. ابن جماعة، بدر الدين : تذكره السامع والمتكلم، ص ١٥٤. انظر ترجمة أحمد بن عمرو في السير، ٤٣٠/١٣.

[3]. ابن خلدون : المقدمة ، ص ٥٣٩.

[4]. ابن جماعة : تذكرة السامع، ص ٢.

[5]. المصدر السابق، ص ٢.

[6]. المصدر السابق، ص ٢. وانظر ترجمة حبيب بن الشهيد في السير، ٥٧/٧.

[7]. المصدر السابق، ص ٥٠.

يسمعون ويتعلمون، يقول الزرنوجي : "العلم ما يؤخذ من أفواه الرجال لأنهم يحفظون أحسن ما يسمعون، ويقولون أحسن ما يحفظون".[1]

٥ – **وهناك أثر تعود فائدته على الشيخ :** وذلك لأن الطالب الصالح يعود على العالم بخيري الدنيا والآخرة يقول ابن جماعة : "ولذلك كان السلف الناصحون لله ودينه يلقون شبك الاجتهاد لصيد طالب، ينتفع الناس به في حياتهم ومن بعدهم، ولو لم يكن للعالم إلا طالب واحد ينتفع الناس بعلمه وعمله وهديه وإرشاده لكفاه ذلك الطالب عند الله تعالى".[2]

وكان التلاميذ يخدمون شيوخهم كذلك بنقل فقههم وتدوينه، ونشر كتبهم ومذاهبهم في الأمصار، وفي سبب ذهاب علم الليث بن سعد يقول الشافعي : "كان الليث أفقه من مالك، إلا أنّه ضيعه أصحابه"،[3] وسيأتي قريبًا الحديث عن حفظ التلاميذ لعلم شيوخهم.

٦ – **وأمّا الصحبة بين الطلبة :** فتساعدهم على الحفظ، والتكرار، والتصحيح، ويكون الطالب ناصحاً لصاحبه، وممّن يستفيد منه، ويفيده وليكن حَسَنَ المداراة قليل المماراة، إن نسي ذكّره، وان ذكر أعانه، وإن احتاج واساه، وإن ضجر صبره.[4]

المطلب الثاني :

الرحلة سمة العلماء

ظهرت بوادر الرحلة في عصر النبي (ﷺ)، إذ كانت الوفود ترد النبي (ﷺ) لمبايعته والتعلم منه كما بينّا، وكانت بعثات الصحابة إلى الأمصار تمثل رحلة تعليمية كذلك، بحيث يتم تعليم الناس أحكام دينهم، وارتحل كثيرٌ ممن أسلم في زمن النبي (ﷺ) إلى المدينة المنورة للتعلم من النبيّ (ﷺ)، فمن ذلك ما رواه البخاري عن طلحة بن عبيد الله قال : "جاء رجل إلى رسول الله (ﷺ) من أهل نجد ثائر الرأس يسمع دويّ صوته ولا يفقه ما يقول، حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله (ﷺ): "خمس صلوات في اليوم والليلة"، فقال : هل عليّ غيرها ؟ قال : "لا، إلا أن تطوّع"، قال رسول الله (ﷺ) : "وصيام رمضان"، قال : هل عليّ غيره ؟ قال : "لا، إلاّ أن تطوع"، قال : وذكر له رسول الله (ﷺ) الزكاة، قال : هل عليّ غيرها ؟ قال : "لا، إلاّ أن تطوع"، قال : فأدبر الرجل وهو يقول: "والله لا أزيد على هذا ولا أنقص". قال رسول الله (ﷺ) : "أفلح إن صدق"،[5] وقد ارتحل

---

1. الزرنوجي : تعليم المتعلم، ص ١١٥.
2. ابن جماعة : تذكرة السامع، ص ٦٣.
3. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٧١/١٠.
4. انظر ابن جماعة : تذكرة السامع، ص ٨٣-٨٤. وانظر الغزي، بدر الدين محمد : آداب الصحبة.
5. رواه البخاري : الصحيح بشرح فتح الباري، كتاب الإيمان، باب الزكاة في الإسلام، حديث (٤٦)، ١٠٣/١.

الصحابة في طلب الحديث، فمن ذلك أن جابر بن عبد الله رحل إلى عبد الله بن أنيس في الشام، ورحل أبو أيوب الأنصاري إلى عقبة بن عامر في مصر.[1]

ومع دخول كثير من الناس الإسلام بعد الفتوحات، وتعطشهم لطلب العلم، وتتبعهم أحاديث الرسول (ﷺ) وأخباره، أدى ذلك كلّه إلى بحثهم عمن سمع من النبي (ﷺ) وهم الصحابة، ولما كان كثيرٌ من الصحابة قد تفرقوا في الأمصار أصبح لزاماً على من يبتغي العلم من مصادره الأصلية أن يرتحل إليهم في أمصارهم، أو الأمصار التي فيها من سمع منهم، ومن ذلك ما رواه الخطيب البغدادي عن زرّ ابن حبيش قوله :"وفدت في خلافة عثمان بن عفان، وإنما حملني على الوفادة لقيّ أبي من كعب وأصحاب رسول الله (ﷺ)".[2]

لذلك كانت الرحلة من أهم طرق اكتساب العلم، وقد انتقص العلماء ممن لم يرتحل يقول يحيى ابن معين (ت : ٢٣٣) : "أربعة لا تؤنس منهم رشدًا : حارس الدرب، ومنادي القاضي، وابن المحدث، ورجل يكتب في بلده ولا يرحل في طلب الحديث".[3]

وأما أبرز المدن التي تشد إليها الرحال فهي الحواضر التي أشرنا إليها سابقًا وتشمل : المدينة المنورة ومكة المكرمة والكوفة والبصرة والشام واليمن وبخارى ومرو، وكان أكثر الناس رحلة هم أهل الحديث فنجد في تراجمهم الرحّال والجوّال والنقّال وكان شعار رحلتهم : "العلماء هم ضالتي في كلّ مكان وهم أحبتي في كل مصر".[4]

لذلك نرى في رواة الحديث الواحد المدني والكوفي والبصري.

وقد تكون الرحلة لبلد بعينه لكثرة العلماء فيه مثل المدينة، والكوفة، والبصرة وغيرها، ومن ذلك ما أوصى به يحيى بن أبي كثير (ت : ١٢٩) الإمامَ الأوزاعي (ت : ١٥٧) بالرحلة إلى البصرة، ليسمع من كبار علمائها، أمثال الحسن البصري وابن سيرين،[5] وهذا ما ينصح به الشيوخ تلاميذهم، ومن ذلك أن عبد الله بن أحمد بن حنبل (ت :٢٩٠) سأل أباه، هل يلزم رجلاً ؟ أو يرحل إلى مواطن العلم ؟ قال : يرحل يكتب عن الكوفيين، والبصريين، وأهل المدينة، ومكة ويُشامّ الناس يسمع منهم.[6]

---

[1]. انظر الخطيب البغدادي : الرحلة في طلب الحديث، ص ١٠٩.

[2]. المصدر السابق، ص ٩٢.

[3]. ابن الصلاح : علوم الحديث، ٢٤٦. انظر ترجمة يحي بن معين في السير، ٧١/١١.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٢٩/٩.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١١٨/١٠. وانظر ترجمة يحيى بن أبي كثير في السير، ٢٧/٦.

[6]. الخطيب البغدادي : الرحلة في طلب الحديث، ص ٨٨. انظر ترجمة عبد الله بن أحمد بن حنبل في البداية، ١٠٣/١١.

وعندما استشار الخطيب البغدادي (ت : ٤٦٣) شيخه أبا بكر البرقاني في الرحلة إلى عبد الرحمن بن النحاس بمصر، أو إلى نيسابور قال له : إن خرجت إلى مصر فإنما تخرج إلى رجل واحد، إن فاتك ضاعت رحلتك، وإن خرجت إلى نيسابور ففيها جماعة إن فاتك واحد أدركت ما بقي فخرج إلى نيسابور.[١]

وقد تكون الرحلة لشيخٍ بعينه اشتهر بالعلم والحفظ، فابن عباس في مكة، وابن المسيب في المدينة، والحسن البصري في البصرة، ومكحول في الشام، وطاووس في اليمن،[٢] ومن الرحّالة في زمن التابعين ابن المسّيب، حيث كان يمكث الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد،[٣] ويقول مكحول (ت : ١١٣) : "طفت الأرض كلها في طلب العلم ".[٤]

وأما أهداف الرحلة فيمكن تلخيصها بثلاثة أهداف رئيسة، وهي :

١. **الأهداف التعلميَّة** : وهي طلب العلم والبحث عنه في مظانّه، وعند من برع فيه، فقد كانت الوفود من شتى الأقطار ترد إلى ابن عمر، وتأخذ عنه العلم والحديث،[٥] ويشمل هذا النوع من الأهداف جمع الحديث، والتأكد من صحته بالبحث عن أحوال رواته وأخبارهم، للحكم على رواياتهم بالقبول أو الرد، والمذاكرة في نقد الأحاديث وبيان عللها، وطلب الفقه والتفسير، وزيادة الدقة والضبط، والأخذ عن عدد كبير من المشايخ، فقد كتب البخاري عن ألف شيخ.[٦]

٢. **الأهداف التعليميّة** : وهي أن يقوم الشيخ بالتنقل بين الأمصار ليبثّ علمه هناك، فقد ارتحل عكرمة مدّة أربعين سنة، بين اليمن والشام وخراسان والعراق، يبثّ علمه هناك.[٧]

٣. **الجمع بين التعلم والتعليم** : فينتقل العالم طلباً للعلم، وفي الوقت نفسه يدرس في المدن التي ينزل فيها، فقد استمر الزهري خمساً وأربعين سنة يختلف فيها من الحجاز إلى الشام ومن الشام إلى الحجاز للاستماع والإسماع.[٨]

١. المصدر السابق، ص ٣٨. انظر ترجمة الخطيب البغدادي في البداية، ١٠٨/١٢. وانظر ترجمة أبو بكر البرقاني في السير، ٤٦٤/١٧.

٢. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣١٧/٩.

٣. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٠٥/٩.

٤. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣١٧/٩.

٥. ابن كثير : البداية والنهاية، ٦/٩.

٦. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٨/١١.

٧. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٥٤/٦

٨. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٥٦/٩.

وكان الحج يعدّ من الرحلات المهمة، حيث يجتمع العلماء في مكة والمدينة يتباحثون ويتناظرون في العلم، وكان ابن عباس يفسر عشية عرفة سورًا من القرآن، ففي خلافة عثمان فسّر سورة النور،[1] وفي خلافة علي فسّر سورة آل عمران،[2] وحجّ أبو عثمان الهندي لا للحج، ولكن لسماع الحديث، حيث يقول : "بلغني عن أبي هريرة حديث، فحججت ذلك العام و لم اكن أريد الحج إلا للقائه في هذا الحديث". [3]

ولأهمية الحج بصفته رحلة علمية إضافة إلى كونه فريضة شرعية، كان العلماء حريصين على حضور مواسم الحج سنويًا، فكان الحسن البصري يجلس على كرسي له في المسجد الحرام، ويجتمع العلماء من حوله،[4] والتقى عطاء بن رباح وأبو حنيفة في موسم الحج فتدارسا معًا،[5] واجتمع كذلك الإمام الأوزاعي مع الإمام مالك وسفيان الثوري (ت : ١٦١)، وتذاكر في إحدى المجالس الإمام مالك مع الإمام الأوزاعي فغمره الأوزاعي بالمغازي ومالك بالفقه، والتقى في مسجد الخيف أيضا سفيان الثوري مع الأوزاعي.[6]

وكان ركب الحج نفسه يمتلئ بالفقهاء والعلماء، فقد كان هارون الرشيد (ت : ١٩٣) إذا حج أحج معه مائة من العلماء والفقهاء وأبنائهم، وإذا لم يحج أحجّ ثلاثمائة بالنفقة السابغة والكسوة التامة،[7] وكان من ثمار الرحلة تدوين حديث النبي (ﷺ) مع علومه، في كتب الصحاح، والسنن، والمسانيد والمصنفات والرجال، ولولا الرحلة لما تمّ ذلك، إذ قلما نجد أحداً من المصنفين لم يرتحل، ولا مجال هنا لاستقصاء كل من ارتحل، وإنما نعرض لأمثله من ارتحال كبار المحدثين.

فقد رحل البخاري إلى سائر مشايخ الحديث في البلدان التي تمكن من الرحلة إليها،[8] أمّا الإمام مسلم فقد تنقّل بين العراق، والحجاز، والشام، ومصر، وغيرها،[9] وكان أبو داود (ت : ٢٧٥) أحد

---

١. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٧٣/٦.
٢. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٠٦/٨.
٣. الخطيب البغدادي : الرحلة في طلب الحديث، ص ١٣٣.
٤. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٧٩/٩.
٥. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣١٩/٩.
٦. ابن كثير : البداية والنهاية، ١١٩/١٠. انظر ترجمة الإمام مالك في السير، ٤٨/٨، وسفيان الثوري، ٢٢٩/٧.
٧. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٢٢/١٠. *
٨. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٨/١١.
٩. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٦/١١.

أئمة الحديث، ومن الرحّالين في طلبه، فقد ارتحل إلى مشايخ البلدان في الشام ومصر والعراق والجزيرة وخراسان.[1]

وأمّا مكان إقامة المرتحل فغالباً ما يكون في بيوت العلماء الذين يقصدهم، ومن ذلك أن الشافعي ـ رحمه الله ـ ارتحل إلى محمد بن الحسن الشيباني في بغداد فأقام عنده.[2]

وقد تكون في المساجد العامة، فقد كان عمر بن عبد العزيز (ت : ١٠١) يعطي من انقطع إلى المسجد الجامع من أجل العلم والفقه، سواءً من بلده أم من غيرها، مائة دينار.[3]

وقد يقوم المرتحل باستئجار بيت في البلدة التي يقصدها، حيث كانت بعض البيوت قد أعدت خصيصاً للغرباء والرحالة، وكان المشايخ يحرصون على الاهتمام بتلاميذهم، وخصوصاً الرحالة منهم، والذين أطلق عليهم لفظ "غرباء"، فقد نقل البويطي قول شيخه الشافعي : "اصبر للغرباء وغيرهم من التلاميذ"،[4] ونقل الزرنوجي عن شيوخه قولهم : "من أراد أن يكون ابنه عالماً ينبغي أن يراعي الغرباء من الفقهاء ويكرمهم ويعطيهم".[5]

ويبين ابن جماعة أن من آداب العلماء مع تلاميذهم تفقد أهلهم في حال السفر، والقيام على شؤونهم حيث يقول : "وإن كان مسافراً تفقد أهله، ومن يتعلق به، وسأل عنهم، وتعرض لحوائجهم ووَصَلهم بما أمكن".[6]

وكانت الرحلة كثيرة المشاق، محفوفة بالمخاطر، بسبب طول المسافات وبساطة وسائل النقل، فقد يتعرض صاحب الرحلة إلى الجوع والعطش الشديدين، فمن ذلك أن أبا حاتم الرازي (ت : ٢٧٧) سار ألف فرسخ على قدميه في طلب الحديث، وكان يمكث أيامًا دون أن يأكل شيئًا، واستمر في تحمل كل ذلك حتى أصبح من الحفاظ وأحد أئمة الجرح والتعديل والعلل.[7]

وقد بلغ الجوع والعطش من عبد الرحمن بن يوسف المروزي (ت : ٢٨٣) كل مبلغ حتى قال: "شربت بولي خمس مرات – يعني أنه اضطر إلى ذلك في أسفاره في الحديث – من العطش"،[8] وأما

---

1. ابن كثير : البداية والنهاية، ١١/٥٨. *
2. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٠/٢٣٦.
3. ابن كثير : البداية والنهاية، ٩/٢١٦. وانظر ترجمته في البداية، ٩/٢٠٠.
4. ابن جماعة : تذكرة السامع، ص ٦٦.
5. الزرنوجي : تعليم المتعلم، ص ٥٦.
6. ابن جماعة : تذكرة السامع، ص ٦٢-٦٣.
7. ابن كثير : البداية والنهاية، ١١/٦٣. *
8. ابن كثير : البداية والنهاية، ١١/ ٧٩. *

محمد بن نصر المروزي (ت : ٢٩٤) فقد ركب في رحلة البحر، وغرقت السفينة فذهب له ألف جزء من الحديث، وألقى به الماء على جزيرةٍ مجهولة، حتى يئس من الحياة من شدّة العطش وقلة الماء.[١]

وقد تحول قلة ذات اليد دون الارتحال، فمن ذلك أن قلة المال عند الإمام أحمد بن حنبل حالت بينه وبين الرحلة إلى جرير بن عبد الحميد (ت : ١٨٨) فيقول في ذلك : "ولو كان عندي تسعون درهمًا كنت رحلت إلى جرير بن عبد الحميد إلى الريّ، وخرج بعض أصحابنا فلم يُمكنني الخروج، لأنه لم يكن عندي شيء."[٢]

ومن أشكال المعاناة كذلك، معاناة الغربة والبعد عن الأهل والأوطان، وقد يطول ذلك، فقد مكث يعقوب بن سفيان الفسَوي (ت : ٢٧٧) ثلاثين سنة مغتربًا،[٣] وبلغ من طول التغرب أن يذهب الرجل شاباً ويعود إلى وطنه شيخًا، فقد بقي الحافظ محمد بن إسحاق بن منده في الرحلة أربعين سنة، وعاد إلى وطنه شيخًا.[٤]

ونختم صعوبات الرحلة بوصف الخليفة أبي جعفر المنصور (ت : ١٥٨) للمشاق، التي يتعرض لها المحدثون، عندما طلب منه بعض جلسائه أن يحدثهم فقال : "لستم بهم، إنما هم الدنسة ثيابهم، المشققة أرجلهم، الطويلة شعورهم، روّاد الآفاق، وقطّاع المسافات، تارةً بالعراق، وتارةً بالحجاز، وتارةً بالشام، وتارةً باليمن، فهؤلاء نقلة الحديث".[٥]

وأمّا فوائد الرحلة وآثارها التربوية والتعليمية فنوجزها فيما يلي :

١. إن الفوائد التي تحققها الصحبة، والتي سبق أن ذكرناها هي أيضًا من فوائد الرحلة، سواء كانت الاستفادة والمحاكاة والمباشرة، أم اكتساب الأدب والعشرة والأخلاق، وغيرها من الصفات الحميدة.[٦]

إن الرحلة تزيد في التحصيل، وتوسع دائرة الفهم والاجتهاد، لأن الترحال يؤدي إلى التعرف على ما لدى الآخرين مما يجهله المرتحل، أو لم يصله وهو في بلده، مما يؤدي إلى تغير في آرائه واجتهاداته،

---

١. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٠٩/١١. *

٢. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٤٠/١٠. انظر ترجمة جرير بن عبد الحميد في السير، ٩/٩.

٣. ابن كثير : البداية والنهاية، ٦٤/١١. *

٤. الخطيب البغدادي : الرحلة في طلب الحديث، ص ٢١١. وانظر ترجمته في السير، ٢٨/١٠.

٥. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢٩/١٠. انظر ترجمة المنصور في البداية، ١٢٤/١٠. وانظر في الصعوبات التي واجهها العلماء : الكتاب النفيس (صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل) لمصنفه الشيخ " عبد الفتاح أبو غدّة " -رحمه الله-.

٦. انظر في هذا البحث ص ٩٢.

ولعلّ أبرز مثالٍ على ذلك وجود مذهبين للشافعي – رحمه الله –، الجديد في مصر، والقديم في بغداد.[1] وقد عنون ابن خلدون للفصل الحادي والأربعين من مقدمته "في أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم".[2]

٢. نشر العلوم التي تمّ تحصيلها ونقلها بين الأمصار، وسبق وذكرنا أن عكرمة مولى ابن العباس ارتحل مدة أربعين سنة بين اليمن والشام وخراسان والعراق يبث علمه هناك.[3]

٣. تحقيق التكامل العلمي وبين علماء الأمصار على اختلاف مروياتهم واجتهاداتهم، فيتم التباحث والتناظر والتبادل لمختلف المعارف والعلوم، وتعرض الآراء للتمحيص والاختبار، ومن ذلك اجتماع الأوزاعي مع مالك وسفيان الثوري، فتذاكر الأوزاعي مع مالك، وتناظر مع سفيان.[4]

٤. زيادة عدد الشيوخ ومن يأخذ عنهم المرتحل فتتنوع المصادر والعلوم، وقد كان العلماء يذمون من يكتفي بالأخذ عن الكتب دون الشيوخ، فيقول الشافعي –رحمه الله– : "من تفقه في بطون الكتب ضيّع الأحكام"،[5] ونقل ابن جماعة عن بعضهم القول : "من أعظم البليّة تشييخ الصحيفة، أي الذين يتعلمون من الصحف".[6] لذا حرص كثير من العلماء على زيادة عدد شيوخهم، فبلغ عدد شيوخ البخاري خمسة آلاف شيخ كما ذكرنا، وفي ذلك زيادة علم، ودقة ضبط، وسعة فهم.

٦. تعود الرحلة على أصحابها بالمهارة في الفنون، والتميّز في العلوم، وإدراك الدقائق، وذلك لتجمّع فكر المرتحل، يقول ابن جماعة : "لذلك استحب السلف التغرب عن الأهل والبعد عن الوطن، لأن الفكرة إذا توزعت قصرت عن درك الحقائق، وغموض الدقائق، وما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفه".[7]

٧. انتشار الكتب والمصنفات وتناقلها عبر البلدان، وذلك لارتحال الرجل مع كتبه وأجزائه، وما دوّن في رحلته، فإذا انتقل إلى بلد آخر نقل عنه أهله، فعندما رحل الخطيب البغدادي إلى دمشق صحب معه كتبه ومصنفاته، فكان لهذه الرحلة الفضل فيما ظفرت به دمشق من كتب الخطيب.[8]

---

1. انظر الخطيب البغدادي : الرحلة في طلب الحديث، مقدمة المحقق نور الدين عتر، ص ٢٤.
2. ابن خلدون : المقدمة، ص ٥٣٩.
3. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٤٠/١٠.
4. ابن كثير : البداية والنهاية، ١١٩/١٠.
5. ابن جماعة : تذكرة السامع، ص ٨٧.
6. المصدر السابق، ص ٨٧.
7. المصدر السابق، ص ٧٠.
8. الخطيب البغدادي : الرحلة في طلب الحديث، مقدمه المحقق، ص ٤١.

وكان محمد بن إسحاق بن منده يرتحل ومعه الكتب، ولما عاد إلى أصبهان كان معه أربعون جملاً من الكتب والأجزاء،[1] ويقول أبو العباس الدغولي :" أربعة مجلدات لا تفارقني سفراً أو حضـراً، كتاب المزني، وكتاب العين، والتاريخ للبخاري، وكليلة ودمنة".[2]

٨. ولا نغفل ما تبعثه الأسفار – رغم صعوبتها – من لذة للعلم، وحلاوة للبحث، وتفريغ للهم، ومسارعة للحفظ، واستغلال الأوقات، وعدم شغل الأفكار، مما لابدّ منه للمقيم في البلدان.[3]

٩. نيل صحبة الماجد، فإن الرفيق يعين رفيقه في الأسفار ويقاسمه الغربة فيحصل لهما الاستئناس، ويتعاونان على طلب العلم، فقد ارتحل أحمد بن حنبل مع يحيى بن معين للسماع من عبد الرزاق (ت: ٢١١) في اليمن.[4]

وهذه الصحبة أثناء الرحلة تمكنهما من تذاكر الفوائد والقواعد والضوابط، وإعادة كلام الشيخ بينهم لتثبيت العلم في صدورهم،[5] ويقول الشافعي في ذلك :

تغرب عن الأوطان في طلب العلا وسافر ففي الأسفار خمس فوائد
تفرج هـــمّ واكتساب معيشــة وعلم وآداب وصحبة ماجـــد[6]

المطلب الثالث :

حفظ التلاميذ لعلم شيوخهم

إذا كان الشيوخ قد أحسنوا إلى تلاميذهم في تعليمهم وتفقيههم وإسماعهم الحديث، فإنّ التلاميذ قد حَفظوا هذا الفضل لأصحابه، وقابلوا الإحسان بالإحسان، إذ كان لهم دورٌ بارزٌ في حفظِ علم شيوخهم وتدوين آرائهم ونقلها إلى غيرهم.

فقد تلقى أصحاب ابن عباس تفسيره ونقلوه، وحفظ أصحاب ابن مسعود فقهه ودونوه، وسمع أصحاب أبي هريرة حديثه ورووه، وعند ظهور المدارس الفقهية قام التلاميذ بجمع فقه شيوخهم وتدوينه، بحيث عرفت المذاهب بأسماء شيوخها، فحفظ أصحاب مالك المذهب المالكي، وأصحاب أبي حنيفة المذهب الحنفي وهكذا، بينما ضاع فقه الليث بن سعد بتقصير من تلاميذه عندما تركوا تدوين

---

[1]. الخطيب البغدادي : الرحلة في طلب الحديث، ص ٢١١.

[2]. ابن جماعة : تذكرة السامع، ص ١١٨.

[3]. انظر المصدر السابق، ص ٧١.

[4]. الخطيب البغدادي : الرحلة في طلب الحديث، استدراكات المحقق، ص ٢٠. انظر ترجمة عبد الرزاق في السير، ٥٦٣/٩.

[5]. انظر ابن جماعة : تذكرة السامع، ص ١٤٣.

[6]. الشافعي، محمد بن إدريس : ديوان الشافعي، تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي، ص ٧٤.

فقهه وآرائه، وفي هذا يقول الشافعي - رحمه الله - : "كان الليث أفقه من مالك إلاّ أنه ضيَّعه أصحابه".[1]

وكان بعض التلاميذ ينقلون مذاهب الشيوخ إلى بلادهم، فمن ذلك أن زياد بن عبد الرحمن الأندلسي نقل فقه مالك إلى الأندلس،[2] وأدخل صعصعة بن سلام (ت : ١٩٢) مذهب الأوزاعي إلى الأندلس أيضًا.[3]

وخدم بعض التلاميذ كتب شيوخهم بنسخها، أو تهذيبها، أو الزيادة عليها، فقد قام سيبويه بزيادة وترتيب كتاب الجامع لشيخه أبي عمرو عيسى بن عمرو الثقفي (ت : ١٤٩) فزاد فيه وبسطه، وهو المعروف اليوم بكتاب سيبويه،[4] ومثله كتاب "العين في اللغة" للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت : ١٧٠) إذ لم يقم هو بإكماله، وإنما أكمله بعض تلاميذه مثل النضر بن شميل (ت : ٢٠٣) ومؤرج السدوسي (ت : ١٩٥) ونصر بن علي الجهضمي (ت : ٢٥٠).[5]

المطلب الرابع :

تأثر مسيرة التربية والتعليم ببعض الأحداث والفتن

سارت عملية إرساء العلوم بخطى ثابتة في خلافة الراشدين، وبعد كسر الباب الذي يعصم المسلمين ويحفظ تماسكهم وصفاء نبعهم ظهرت الفتن وبرزت الفرق، وأثار الوضّاعون شبهاتهم، واختلق المفترون كذبهم، مما أثر بوضوح على حركة التعليم، وظهرت ثلاث فتن رئيسة، وهي :

١ـ فتن الاقتتال : وهي الفتن التي أدت إلى تقابل المسلمين بسيوف مسلولة وجهاً لوجه في معارك طاحنة، أدت إلى ذهاب كثيرٍ من العلماء، وضياع كثيرٍ من العلم، وأولى هذه الفتن هي ما كانت بين الإمام علي - رضي الله عنه - ومعارضيه، حيث تلاقت الفئتان في معركتي "الجمل وصفّين"، ولسنا في معرض ذكر أسبابهما أو نتائجهما، ولكن الذي يعنينا فيها هو أثرها على الحركة العلمية، فقد أدت هذه المعارك إلى استشهاد أعداد كبيرة من الصحابة وعلمائهم وكبرائهم، أمثال :

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٧١/١٠.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٠١/١١.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢١٧/١٠. *

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٠٨/١٠. *

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٦٦/١٠. وانظر ترجمة النضر في السير، ٣٠٩/٩. ونصر بن علي، ١٢/ ١٣٦. ومؤرج السدوسي، ٣٠٩/٩.

طلحة والزبير وعمّار وغيرهم، وقد بلغ عدد القتلى في معركة الجمل وحدها من الصحابة وغيرهم عشرة آلاف رجل.[1]

وقد تبعتها كثيرٌ من المعارك والفتن التي اقتتل فيها المسلمون، ففي وقعة الحرة سنة ثلاث وستين قُتل سبعمائة من أهل القرآن وحملته،[2] منهم عبد الله بن حنظلة، وعبد الله بن مطيع، ومعقل بن سنان، ومسروق بن الأجدع وغيرهم.[3]

وأمّا الفتن زمن التابعين، فمن أشهرها وقعة دير الجماجم بين الحجاج والي العراق للدولة الأموية، وبين عبد الرحمن بن الأشعث (ت : ٨٤) قائد جيش الخارجين على الحجاج، سنة إحدى وثمانين، ويطلق عليها ثورة الفقهاء، لوجود عدد كبير من العلماء والفقهاء والقراء في جيش ابن الأشعث، من أمثال : سعيد بن جُبير، ومالك بن دينار (ت : ١٢٧)، وعامر الشعبي (ت : ١٠٤) وعبد الرحمن بن أبي ليلى (ت : ٨٣) وكُميل بن زياد (ت : ٨٢) وغيرهم.

وقد انتهت المعركة بهزيمةِ ابن الأشعث، وبلغ عدد القتلى في جيشه مائة وثلاثين ألفًا، على رأسهم مسلم بن يسار ومحمد بن سعد بن أبي وقاص (ت : ٨٣)، وتبعهم سعيد بن جُبير.[4]

و لم تهدأ الفتن والثورات في أيام الخلافة الأموية، وكذلك العباسية، ومن مختلف فئات المعارضة، كالشيعة، والخوارج وغيرهم، وما تفرع عنهم من مِلل ونِحل، أو غايرهم من أصحاب الفرق والمذاهب.

وأمّا الآثار السلبية للفتن فقد تمثلت بظهور الكذب على رسول الله (ﷺ)، وذلك بوضع أحاديث ترفع أقوامًا، وتضع آخرين، وتزين أفعالاً، وتنكر أخرى، وتنتصر لرأي وتقبح آخر، يضاف لذلك تصدع المجتمع المسلم، وبروز الأحقاد والضغائن بين أهل الأمصار من المسلمين، وقد ضاع كثير من العلم باستشهاد أهله وحفظته.[5]

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٥٦/٧. وانظر تفاصيل الفتنة، ٢٤٠/٧-٣٠٠.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٣٨/٦.

[3]. انظر ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٢٧/٨.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٥٥/٩. وانظر تفاصيل الفتنة، ٣٧/٩ وما بعدها. وانظر في السير ترجمة عامر الشعبي، ٢٩٤/٤، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، ٩٤/٤. ومسلم بن يسار، ٥١٤/٤. ومالك بن دينار، ٣٦٢/٥. ومحمد بن سعد بن أبي وقاص، ٣٤٨/٤. وانظر ترجمة ابن الأشعث في البداية، ٥٧/٩. وكميل بن زياد، ٥٠/٩.

[5]. انظر أكرم العمري : بحوث في السنة النبوية، ص ٢٠-٢٢. وانظر أبو الحسن، صديق : دراسات في السنة، ص ٧٢ - ٩١.

ومن جهة أخرى أحدثت هذه الفتن مدارس تربويةً شذت في فكرها ومنا هجها، مثل الخوارج، والشيعة، والمعتزلة، وأهل التصوف وما تفرع عنهم من ملل وفرق.[1]

يقول ابن خلدون : "وشذ أهل البيت بمذاهب ابتدعوها، وفقه انفردوا به، وبنوه على مذهبهم في تناول بعض الصحابة بالقدح، وعلى قولهم لعصمة الأئمة، ورفع الخلاف عن أقوالهم... فكُتُب الشيعة في بلادهم، وحيث كانت دولهم قائمة، في المغرب والمشرق واليمن، والخوارج كذلك، ولكلٍ منهم كتب وتأليف وآراء في الفقه غريبة.[2]

٢. ظهور الوضع والزندقة : كان وجود الصحابة رضوان الله عليهم كفيل بعدم التجرؤ على كتاب الله وسنة رسوله بالكذب أو الافتراء، ويقف وجودهم مانعاً وحاجزاً أمام الوضّاعين، وهذا ما بينه التابعي الجليل مؤرق العجلي عندما توفي أنس بن مالك سنة ثلاث وتسعين، فقد بلغه الخبر، فقال : "ذهب اليوم نصف العلم"، قيل : كيف ذلك يا أبا المعتمر ؟ قال : "كان الرجل من أهل الأهواء إذا خالفونا في الحديث عن رسول الله(ﷺ) قلنا لهم : "تعالوا إلى من سمعه منه".[3]

وعكس ظهور الوضع الصراع السياسي والفكري بين الفئات المختلفة، فكان الزنادقة يظهرون الإسلام ويبطنون مذاهبهم وأديانهم، ويقومون بالطعن في الإسلام واختلاق الأحاديث، ومن هؤلاء الزنادقة ابن المقفع، ومطيع بن إياس، ويحي بن زياد، كما قال ابن المهدي : "ما وُجِدَ كتاب زندقة إلا وأصله من ابن المقفع ومطيع بن إياس ويحي بن زياد".[4]

واعترف الزنديق محمد بن أبي العوجاء بوضع أربعة آلاف حديث، يحلّ فيها الحرام ويحّرم الحلال.[5]

وممن برز من الزنادقة أيضًا ابن الراوندي (ت : ٢٩٨)، حيث صنّف كثيرًا من الكتب التي تطعن في القرآن والشريعة،[6] ونقل عن الخليفة العباسي المهدي (ت : ١٦٩) قوله : "أقرّ عندي رجل من الزنادقة أنّه وضع أربعمائة حديث، فهي تجول في أيدي الناس.[7]

---

[1]. انظر حسان، محمد حسان : مدارس التربية في الحضارة الإسلامية، ص ١٨ ـ ١٠٥.

[2]. ابن خلدون : المقدمة، ص ٤١٧. والصواب قوله : وشذّ شيعة أهل البيت "، لأن أهل البيت لم يشذوا، وإنّما الذي شذّ هم الذين ناصروهم، وغالوا فيهم، وابتعدوا عن نهجهم.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٩٧/٩.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٩٨/١٠. وانظر أبو العوف، عاكف شكري : الزندقة والزنادقة، ص ١٧٧ ـ ١٨٦.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١١٦/١٠.

[6]. أكرم العمري : بحوث في السنة النبوية، ص ٣٢. انظر ترجمة المهدي في البداية، ١٥٥/١٠.

[7]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢٠/١١.

واحتاج ذلك إلى مضاعفة جهود العلماء للتصدّي لهذه الفئات، بكشف زيفها ودعاواها، وإبطال شبهاتها، والقيام على حديث الرسول (ﷺ) لتمييز صحيحه من سقيمه، بعد تتبع أحوال رواته جرحاً وتعديلاً.

٣- ظهور الفرق : لا يمكن الفصل بين هذه الفتنة وما سبق من فتن، إذ عملت تلك الفرق على الانتصار لمذاهبها بالطعن والدّس، أو الحشد والتجمع لقتال من خالفهم، وأولى هذه الفرق ظهورًا الخوارج، إذ ظهرت على أثر قصة التحكيم بين علي ومعاوية - رضي الله عنهما -، ونادوا ببدعة التكفير لمن لم يرى رأيهم، وأخذوا في تكفير كبار الصحابة، وخرجوا على الإمام علي، فقتلهم بالنهروان،[1] وتلا ذلك خروجهم المتكرر على الخلفاء والأمراء، بحيث أحرجوا دولة الخلافة في مرات عديدة.

ونمت فرق الشيعة، وأخذت في الامتداد حتى قامت بثورات عديدة، من أشهرها ثورة الزنج التي قامت سنة سبع وخمسين ومائتين، فدخل الزنج البصرة وقتلوا كثيرًا من علمائها وفقهائها ومحدثيها،[2] وابتليت الأمة كذلك بثورة القرامطة، وهم فرقة من الزنادقة الملاحدة كانوا يبيحون المحرمات، ثم انتسبوا إلى أهل التشيع، ويقال لهم الإسماعيلية،[3] فقد دخلوا دمشق و لم يتركوا بها أحدًا تمكنوا من الوصول إليه إلا قتلوه،[4] ثم انتقلوا إلى حمص وحماة والمعرة، فأخذوا في أهلها قتلاً، حتى الصبيان في المكاتب. [5]

وأمّا المعتزلة فمع أن ظهورها كان للوقوف في وجه الزنادقة والفلاسفة، والتصدي لشبهاتهم باستخدام المنطق نفسه إلا أن المغالاة أدت بهم إلى الخوض بمسائل عديدة، عادت بكثير من الأذى على المسلمين وعلمائهم، وأشهر هذه المسائل مسألة القول بخلق القرآن، حيث ظهرت هذه البدعة في عهد المأمون (ت : ٢١٨) سنة اثنتي عشرة ومائتي،[6] وبدأ بامتحان العلماء وفتنتهم سنة ثماني عشرة ومائتين، عندما أمر باختبار المحدثين والقضاة،[7] واشتدت الفتنة على العلماء لتصل إلى معاقبة كل من لا يقول بهذا القول، فإن كان له رزق في بيت المال قُطِعَ، وإن كان مُفتيًا مُنِعَ من الإفتاء، وإن كان شيخ حديث

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٩٣/٧ باختصار شديد.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣١/١١. وانظر علي أحمد، ثورة الزنج.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٦٥/١١ باختصار شديد، وانظر عاطف أبو العوض : الزندقة الزنادقة، ص ١٣٧ - ١٤٤.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٩٢/١١.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٠٢/١١.

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٧٨/١٠. انظر ترجمة المأمون في البداية، ٢٨٧/١٠.

[7]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٨٤/١٠.

رُدِعَ عن الإسماع والأداء،[1] وقد يحكم عليه بالسجن كما حدث مع الإمام أحمد بن حنبل، حيث مكث في السجن مع كِبرَ سنه نحوًا من ثمانية وعشرين شهرًا، وكان يُؤتي به بين يدي المعتصم فيجلد ويضرب.[2]

وقُتِلَ فيها أيضًا بعض العلماء، منهم الإمام البويطي صاحب الشافعي، حيث مات في السجن مقيدًا لامتناعه عن القول بخلق القرآن والثبات على ذلك.[3]

واستمر الأمر كذلك حتى بعث الله المتوكل بن المعتصم (ت : ٢٤٧)، فقضى على هذه الفتنة سنة سبع وثلاثين ومائتين، وأخذ في إكرام العلماء وتقريبهم أمثال : أحمد بن حنبل، ويحيى بن أكثم (ت : ٢٤٢)، وفي الوقت ذاته أعلن معاقبة من يشتغل بعلم الكلام، ونهى أن يشتغل أحدُ بغير الكتاب والسنة.[4]

وكان من نتائج هذه الفتن اعتزال كثير من العلماء والتزامهم بيوتهم، فبعد ثورة محمد ابن الحسن التي أيدها الإمام مالك سنة خمس وأربعين ومائة اعتزل الإمام مالك، ولزم بيته فلم يكن يخرج منه ولم يكن يأتيه أحد.[5] وكذلك الإمام أحمد بعد فتنة خلق القرآن لزم بيته، وامتنع عن التحديث، ولم يخرج إلى جمعة أو جماعة.[6] وقد تشكلت في هذه المرحلة أغلب الفرق مثل : الجهمية والمرجئة والكرامية وكثير من فرق الشيعة والخوارج.

المطلب الخامس :

تدوين العلوم

لم تكد تنقضي القرون الثلاثة الأولى حتى كانت العلوم قد دونت وقيدت في الكتب، فحفظت لنا جهود علماء خير القرون.

فنجد أن كتابة القرآن الكريم قد تمت في عهد النبي (ﷺ) بعد أن اتخذ كتاباً للوحي،[7] وروى ابن عساكر في تاريخ دمشق أن القرآن جمع في عهد النبي (ﷺ) على يد خمسة من الأنصار، وهم معاذ ابن جبل، وعبادة بن الصامت، وأُبي بن كعب، وأبو أيوب الأنصاري، وأبو الدرداء.[8]

---

١. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٨٦/١٠.

٢. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٤٦/١٠.

٣. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٢١/١٠.

٤. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٠٣/١٠. انظر ترجمة المتوكل في البداية، ٣٦٤/١٠. ويحي بن أكثم في السير، ٥/١٢.

٥. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٨٠/١٠.

٦. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٥١/١٠.

٧. انظر ابن كثير : البداية والنهاية، كتّاب الوحي، ٢٥٩/٥ وما بعدها.

٨. ابن عساكر : تاريخ دمشق، ترجمة عبادة بن الصامت، ص ٢٣.

وبعد وفاة النبي (ﷺ) قام أبو بكر يجمع القرآن في مصحف واحد باقتراح من عمر ابن الخطاب.[1]

ثم قام الخليفة عثمان بنسخه وتوزيعه على الأمصار،[2] واستمر بعد ذلك نسخ القرآن في الأمصار حتى انتشرت المصاحف بين الناس، ومما يدّل على سرعة انتشارها أن أهل الشام في معركة حطين رفعوا خمسمائة نسخة من المصحف.[3]

وأمّا القراءات فقد روى الصحابة القرآن عن الرسول (ﷺ) مع اختلاف في بعض الألفاظ وكيفيات أداء الحروف، ثم استمرت هذه القراءات حتى استقرت منها سبع طرق محددة تواتر نقلها، واختصت بالانتساب إلى من اشتهر بروايتها، فصارت هذه القراءات السبع أصولاً للقراءة، ولم يزل القرّاء يتداولون هذه القراءات ويروونها حتى كُتبت ودُوّنت.[4]

وأمّا تدوين التفسير فإن القرآن قد نزل بلغة العرب، وعلى أساليب بيانهم، فكانوا يحسنون فهمه، وكان النبي (ﷺ) يبين مجمله، ويميز الناسخ والمنسوخ منه، ويعرّفه لأصحابه.

وتداول التابعون ذلك فكانت مدرسة التفسير في مكة على يد ابن عباس وتلاميذه والذين سبق أن أشرنا إليهم، ولم يزل الأمر كذلك حتى دونت الكتب، ونقلت الآثار الواردة في تفسير الصحابة والتابعين للقرآن.[5]

وقد اقترن تدوين التفسير في بدايته مع تدوين الحديث، ثم فُصل التفسير عن الحديث، وذلك للوصول إلى جمع شامل للتفسير في كتب مستقلة.[6]

وأمّا تدوين الحديث فالأمر مختلف، إذ ظهر في تدوينه رأيان، أحدهما يجيز والآخر يمنع، وذلك لورود أحاديث وآثار تجيز كتابته وأخرى تمنع ذلك، فأما التي تجيز الكتابة وتدّل على وقوعها فمنها : ما رواه البخاري في صحيحه عن وهب بن منبه عن أخيه قال : سمعت أبا هريرة يقول : "ما من

---

[1]. انظر الزرزور، عدنان محمد : علوم القرآن، ص ٨٧-٩٠.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٩٠-١٠١.

[3]. أيبض، ملكة : التربية والثقافة العربية الإسلامية في الشام والجزيرة، ص ٨٧.

[4]. ابن خلدون : المقدمة، ٤٠٧. والقراءات السبع هي قراءة نافع (ت : ١٦٩)، وابن كثير (ت : ١٢٠)، وعاصم (ت : ١٢٧)، وحمزة (ت : ١٥٨)، وأبي عمرو بن العلاء (ت :١٥٤)، وابن عامر (ت : ١١٨)، والكسائي (ت : ١٨٩). (عدنان الزرزور : علوم القرآن، ص ١٨٤).

[5]. انظر ابن خلدون : المقدمة، ص ٤٠٩. ومحمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون، ٣٢/١ وما بعدها.

[6]. انظر عدنان زرزور : علوم القرآن، ص ٤٠٤ - ٤٠٦.

أصحاب النبي (ﷺ) أحدٌ اكثر حديثًا عنه مني، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب".[١]

وأما الحديث الصريح في النهي عن الكتابة فقد رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول (ﷺ) قال : "لا تكتبوا عنيّ ومن كتب عنيّ غير القرآن فليمحه".[٢]

وتبعاً لذلك فقد رُويَ عن كثير من الصحابة والتابعين كراهية الكتابة منهم أبو سعيد الخدري، وعبد الله بن مسعود، وأبو موسى الأشعري، وابن عباس وابن عمر،[٣] وممن كرهه من التابعين القاسم ابن محمد (ت : ١٠٧)، والضحاك بن مزاحم (ت : ١٠٢).[٤]

وأمّا الذين أجازوا الكتابة، فمن الصحابة أبو بكر الصديق وعمر، وهو القائل : "قيدوا العلم بالكتاب"، وعلي بن أبي طالب وأنس بن مالك،[٥] ومن التابعين سعيد بن المسيّب والشعبي والحسن البصري.[٦]

وقد ذهب العلماء إلى التوفيق بين هذه الروايات، فذكر ابن قتيبة رأيين في ذلك :

١. أن يكون من منسوخ السنة بالسنة لأن النبي (ﷺ) نهى في أول الأمر عن أن يكتب قوله، ثم رأى بعدما علم أن السنين تكثر ويفوت الحفظ أن تكتب وتقيد.

٢. أن يكون مخصوصاً بعبد الله بن عمرو، لأنه كان قارئاً للكتب المقدسة، فأمن من وقوعه في الغلط، وأمّا غيره من الصحابة فكثير منهم أمّيون، فخشي عليه الغلط فنهاهم عن الكتابة،[٧] وذكر بعض العلماء أن المنع يدور مع العلة ولكن وقع خلاف في تحديد العلّة لخصه الخطيب البغدادي بنقاطٍ ثلاثة :

١- خوف الانكباب على درسٍ غير القرآن.
٢- خوف الاتكال على الكتاب وترك الحفظ.
٣- خوف صيران العلم إلى غير أهله.[٨]

---

١. البخاري : الصحيح بشرح فتح الباري، كتابة العلم، باب كتابة الحديث، حديث (١١٣)، ٢٤٩/١.

٢. مسلم : الصحيح بشرح النووي، كتاب الزهد، باب التثبت في الحديث، حديث (٣٠٠٤)، ١٢٩/١٨.

٣. انظر الخطيب البغدادي : تقييد العلم، ص ٣٦-٤٤.

٤. المصدر السابق، ص ٤٥-٤٨. انظر ترجمة القاسم بن محمد في السير، ٥٣/٥.

٥. المصدر السابق، ص ٨٧ ـ ٩٨.

٦. المصدر السابق، ص ٩٩ ـ ١٠٢.

٧. ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم : تأويل مختلف الحديث، ص ١٨٠.

٨. انظر الخطيب البغدادي : تقيد العلم، ص ٤٩ ـ ٦٣.

ومع ذلك وردت صحف كثيرة مكتوبٌ فيها حديث النبي (ﷺ)، فمن أبرزها الصحيفة الصادقة لعمرو بن العاص، وصحيفة علي بن أبي طالب، وصحيفة سعد بن عبادة، وأيضًا حفظت لنا أحاديث النبي (ﷺ) التي كتبها لأمرائه وعُمّاله، مثل كتابه لعمرو بن حزم عامله على اليمن، وكتابه لوائل ابن حجر.[١]

وقد اتفق العلماء بعد ذلك على كتابة الحديث، ونقل ذلك ابن حجر حيث قال : "وإن كان الأمر استقر والإجماع انعقد على جواز كتابة العلم بل على استحبابه، بل لا يبعد وجوبه على من خشي النسيان ممن يتعين عليه تبليغ العلم".[٢]

وقد مّيز الأستاذ نور الدين عتر بين مرحلتين تم فيها تدوين الحديث :

المرحلة الأولى : مرحلة جمع الحديث في صحف خاصّة بمن يكتب، دون أن يتداولها الناس، وهذه بدأت في عهد النبي (ﷺ) وبإذنه.

المرحلة الثانية : الكتابة التي تقصد مرجعًا يعتمد عليه، ويتداولها الناس وهذه بدأت من القرن الثاني الهجري، وتبعها دور التصنيف الذي اتخذت فيه الكتابة طابع التبويب والترتيب من منتصف القرن الثاني، وبلغ أوجه وذروته في القرن الثالث المعروف بعصر التدوين،[٣] وعلى هذا يحمل قول الإمام مالك من أنّ "أولّ من دون العلم ابن شهاب"،[٤] ويبين ذلك أبو المليح بقوله : "كان هشام هو الذي أكره الزهري على كتابة الحديث فكان الناس يكتبون بعد ذلك"،[٥] ووردت روايات أخرى تبين أن عمر ابن عبد العزيز هو الذي طلب من الزهري ذلك أولاً قبل هشام،[٦] وأكد ذلك ابن حجر حيث يقول : "أول من دون الحديث ابن شهاب الزهري على رأس المائة بأمر عمر بن عبد العزيز (ت : ١٠١)، ثمّ كثر التدوين ثمّ التصنيف".[٧]

ولا تعارض بين الأمرين إذ بدأ عمر بذلك وتبعه هشام ممّا يؤكد هذا الأمر أن عمر بن عبد العزيز لم تطِل مدة خلافته فأكمل هشام ما بدأه عمر بن عبد العزيز.

---

١. انظر نور الدين عتر : منهج النقد في علوم الحديث، ص ٤٥-٤٨.

٢. ابن حجر : فتح الباري، ٢٤٦/١.

٣. نور الدين عتر : منهج النقد في علوم الحديث، ص ٤٥.

٤. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٥٩/٩.

٥. انظر الخطيب البغدادي : تقيد العلم، ص ١٠٦.

٦. ابن حجر : فتح الباري، ٢٥١/١.

٧. المصدر السابق، ٢٥١/١. انظر ترجمة عمر بن عبد العزيز في البداية، ٢٠٠/٩.

ومن هنا فأصل التدوين بدأ من عصر النبي (ﷺ) في صحائف خاصة غير منظمة من قبل الصحابة، وفي رسائل النبي (ﷺ) إلى الملوك، وفي كتبه إلى أصحابه المتفرقين في البوادي والأمصار.

وأما الجمع الذي قام به الزهري فهو جمع منظم شامل، يجمع الصحف والروايات المتفرقة، ليكون أول من جمع بهذا الشمول، وانطلق يكتب كل ما جاء عن النبي (ﷺ) يقول صالح بن كيسان : "اجتمعت أنا والزهري ونحن نطلب العلم، فقلنا نحن نكتب السنن، فكتبنا ما جاء عن النبي (ﷺ)، ثم قال لي الزهري هلم فلنكتب ما جاء عن أصحابه فإنه سنة، فقلت: إنه ليس بسنة فلا تكتب، قال : فكتب ما جاء عنهم ولم أكتب فانجح وضيعت".[١]

وكان الباعث على التصنيف حفظ سنة النبي (ﷺ)، وما جاء عن أصحابه، فصنفت كتب الحديث وفتاوى الصحابة والتابعين، ونظمت سيرة النبي (ﷺ) ومغازيه على يد ابن إسحاق، والواقدي وغيرهم،[٢] وألف عروة بن الزبير (ت : ٩٤) في المغازي، وهو أول من صنف في هذا العلم،[٣] وصُنفت كتبٌ في شرح السنة وبيان معناها، فاستمر أبو عبيد بن سلام في تأليف كتابه غريب الحديث أربعين سنة،[٤] وفي الأصول طلب عبد الرحمن بن المهدي من الشافعي أن يكتب له كتاباً في الأصول فصنف الرسالة.[٥] وشجع الخلفاء حركة التأليف فطلب المأمون من الفرّاء (ت : ٢٠٧) كتاباً في النحو ففعل، وأملاه على الناس.[٦]

وبسبب الكلام في مسائل العقيدة كالصفات والقدر وأفعال العباد صنف البخاري كتابه "خلق أفعال العباد"،[٧] ومع انتشار الفرق الضالة تصدى ثلة من العلماء لكشف زيفهم وبطلان دعاواهم، فصنف عثمان بن سعيد الدارمي (ت : ٢٨٠) كتابًا في الرد على بشر المريسي وتأويلاته الجهمية.[٨]

وتفاوت العلماء في التصنيف بين مكثر ومقل، فقد كتب أبو بكر بن أبي الدنيا (ت : ٢٨١) ثلاثمائة مصنف.[٩]

---

١. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٥٨/٩ و ١٠٤/٩. وقام بجمع مغازيه وكتابتها الحسن بن عثمان الزياري، (انظر الفهرست : ١٧٦).

٢. ومن أشهر كتب ابن إسحاق : الخلفاء، والسيرة والمسند المغازي، وقام بتهذيبه عبد الملك بن هشام. (ابن النديم : الفهرست، ١٤٨).
ومن كتب الواقدي : الطبقات، فتوح الشام، أخبار مكة، السيرة، المغازي. (انظر الفهرست، ١٥٨).

٣. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٠٤/٩. وقد قام بجمع مغازيه وكتابتها الحسن بن عثمان الزيادي. (انظر ابن النديم : الفهرست، ص ١٧٦).

٤. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣/١٠.

٥. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٦٤/١٠. وقام الحارث بن سريج بنقل الرسالة لابن المهدي. (ابن النديم : الفهرست، ص ٢٩).

٦. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٧٢/١٠. *

٧. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٨٥/١٠.

٨. ابن كثير : البداية والنهاية، ٧٤/١١. *

٩. ابن كثير : البداية والنهاية، ٧٦/١١. *

واشترك بعض الوزراء بالتصنيف، فصنّف أبو دلف العجلي (ت : ٢٢٦) أحد قادة المأمون والمعتصم كتاب سياسة الملوك، وكتبا أخرى في الصيد والسلاح.[١]

وكان بعض العلماء يعرضون كتبهم على شيوخهم بعد تصنيفها، فقد عرض الترمذي (ت : ٢٧٩) جامعه على أهل العلم، حيث يقول : "صنّفت هذا المسند وعرضته على علماء الحجاز فرضوا به، وعرضته على علماء العراق فرضوا به، وعرضته على علماء خراسان فرضوا به"،[٢] ولما صنّف أبو داود كتاب السنن قام بعرضه على الإمام أحمد بن حنبل فاستجاده واستحسنه.[٣]

وبعد تدوين كتب الحديث انتقلت الرواية من رواية أحاديث مفردة إلى رواية كتب كاملة، فروى محمد بن محبوب كتاب الترمذي عنه،[٤] وروى يونس بن حبيب (ت : ٢٦٧) مسند أبي داود الطيالسي،[٥] وروى أبو محمد الشعراني (ت : ٢٨٢) الفوائد في الجرح والتعديل عن يحيى بن معين (ت : ٢٣٣)"،[٦] وروى صحيح البخاري عنه عدد كبير منهم الفريري (ت: ٣٢٠)، وحمّاد بن شاكر (ت: ٣١١)، وإبراهيم بن معقل (ت: ٢٩٥)، وطاهر بن مخلد وغيرهم.[٧]

المطلب السادس :

تشجيع الخلفاء والأمراء للعلم

كان كثير من الخلفاء والأمراء على قدر من العلم، مما أدى إلى انعكاس ذلك على حبهم للعلم، ورعايتهم لأهله، ومنحهم الهبات والعطايا لمن اشتغل به.

وبرز من بين الخلفاء عبد الملك بن مروان (ت : ٨٦)، فقد كان من أهل العلم، وكان يقرب العلماء، وقد فرض للزهري شيئاً من الديوان،[٨] وقرب عبد الملك إليه روح بن زنباع (ت : ٨٤) الذي يقول : "أقمت مع عبد الملك سبع عشرة سنة من أيامه ما أعدت عليه حديثاً".[٩]

وقام الأمير الحجاج بن يوسف والي العراق من قبل عبد الملك بالإكثار من التصدق على أهل القرآن، يقول عمر بن عبد العزيز : "ما حسدت الحجاج عدو الله على شئ حسدي إياه على حبه

---

١. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٠٧/١٠. *
٢. ابن كثير : البداية والنهاية، ٧١/١١. *
٣. ابن كثير : البداية والنهاية، ٥٩/١١.
٤. ابن كثير : البداية والنهاية، ٧١/١١.
٥. ابن كثير : البداية والنهاية، ٤٥/١١. انظر ترجمة يونس بن حبيب في السير، ٥٩٦/١٢.
٦. ابن كثير : البداية والنهاية، ٧٧/١١. *
٧. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٨/١١. انظر ترجمة الفربري في السير، ١٠/١٥، وحمّاد ٥/١٥، وإبراهيم ٤٩٣/١٣.
٨. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٦١/٩. انظر ترجمة عبد الملك بن مروان في البداية، ٦٦/٩.
٩. الجاحظ، عمرو بن بحر : التاج في أخلاق الملوك، ص ١١٣. انظر ترجمته في البداية، ٥٨/٩.

للقرآن وإعطائه أهله عليه"،[1] وقد قام الحجاج بتكليف أبي الأسود الدؤلي (ت : ٦٩) بتنقيط المصحف.[2]

وأما الوليد بن عبد الملك فقد سار على طريقة أبيه في تقريب العلماء ورعايتهم، يقول ابن عُليّه : "الوليد أين مثله ؟ بنى مسجده، وكان يعطيني قطع الفضة فأُقَسّمها على قرّاء بيت المقدس".[3]

وأنشأ الوليد أول بيمارستان في التاريخ الإسلامي، حتى يتم فيه رعاية المرضى ومعالجتهم، وألحق به كُتباً ومعلمين.[4]

وبرز دور عمر بن عبد العزيز في جمع الأحاديث، وتدوين العلم، فقد كتب إلى أبي بكر ابن محمد بن حزم في المدينة :"انظر ما كان من حديث رسول الله (ﷺ) فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء، ولا تقبل إلا حديث النبيّ (ﷺ)، ولتُفشوا العلم، ولتجلسوا حتى يُعلّم من لا يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً"،[5] وقد أوكل إلى الزهري أيضا القيام بالمهمة نفسها كما ذكرنا، وكان عمر يعطي من انقطع إلى المسجد الجامع من بلده وغيرها للفقه ونشر العلم وتلاوة القرآن في كل عام من بيت المال مائة دينار.[6]

وأوصى مسلمة بن عبد الملك (ت : ١٢١) عند وفاته بثلث ماله لأهل الأدب وقال : "إنها صنعة جحف أهلها".[7]

وتعاقب عبد الملك بن مروان وابنه سليمان وعمر بن عبد العزيز على رعاية رجاء بن حيوة (ت : ١١٢)، وكانوا يقدمون له كل ما يحتاج إليه في سبيل نشر العلوم.[8]

وأحاط خلفاء بني أمية الأوزاعي بضروب العناية، وأعانوه على نشر علمه ومذهبه الفقهي في أرجاء البلاد.[9]

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٤٤/٩.

[2]. الكنواري : محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر ، ص ٦٦. انظر ترجمته في البداية، ٣١٥/٨.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٦٨/٩. *

[4]. عدنان الأمين : التربية والتعليم في ظل الإسلام، ص ١٢.

[5]. البخاري : الصحيح بشرح فتح الباري، كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم، ٢٣٤/١.

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢١٦/٩.

[7]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٤٢/٩. *

[8]. ملكة أبيض : تاريخ التربية وعلم النفس عند العرب، ص ١٨. وانظر ترجمة رجاء بن حيوة في السير، ٥٥٧/٤.

[9]. المصدر السابق، ص ١٨.

وكان لهشام بن عبد الملك دور بارز في إكمال ما بـدأه عمر بـن عبـد العزيـز في جمـع العلـوم والحديث، ويقول أبو المليح : "كان هشام هو الذي أكره الزهري على كتابة الحديث، فكـان النـاس يكتبون بعد ذلك". [١]

ويضاف لذلك أن هشام بن عبد الملك كـان علـى صلـة وثيقـة بـالمحدثين والفقهـاء، وكـانوا يقدمون إليه من مختلف الأمصار، منهـم أبـو الزنـاد (ت : ٢٤٢)، وعطـاء بـن أبـي مسـلم الخرسـاني، وعطاء بن أبي رباح، ومكحول وغيرهم.[٢]

وقرب هشام بن الملك وأخوه يزيد والوليد بن يزيد حَمّادَ بن أبى ليلى (ت : ١٥٥) المعـروف بحماد الراوية. [٣]

وشجع الوليد بن يزيد جمع العلوم العربيّة من أخبار وأيام، وأنسـاب، ومعـارف، وأشـعار، وفي سبيل تحقيق ذلك قرب إليه حَمّاد الراوية.[٤]

وأما الخلفاء العباسيون فقد برزوا في إنشاء المدن العلمية، فقد بنى المنصور (ت : ١٥٧) بغداد سنة ست وأربعين ومائتين، وقد بلغت تكلفتها ما قارب خمسة ملايين درهم،[٥] وبنى بعد ذلك الرصافـة وكان يعطي الفقهاء فيأخذون، [٦] واستقبل في بغداد كثيرا من العلماء، أمثال الأوزاعي وعبد الرحمن ابن يزيد بن جابر.[٧]

وتتبع المهدي الزنادقة، فأفنى منهم خلقًا كثيرًا، وهو أول من أمر بتصنيف كتب الجدل في الـرّد على الزنادقة والملحدين.[٨]

وكان هارون الرشيد يحب الفقه والفقهاء، ويميل إلى العلماء، يحبّ الشعر والشعراء، ويُعظم في صدره الأدب والأدباء.[٩]

---

[١]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٥٩/٩. انظر ترجمة هشام بن عبد الملك في البداية، ٣٦٥/٩.

[٢]. ملكة أبيض : التربية والثقافة العربية الإسلامية في الشام والجزيرة، ص ١٤٤. وانظر ترجمة عطاء الخرساني في السـير، ١٤٠/٦، وأبو الزناد ٤٤٥/٥.

[٣]. ابن عساكر : تاريخ دمشق، ١٥/ ١٥٠. انظر ترجمة حماد الرواية في البداية، ١١٧/١٠.

[٤]. ملكة أبيض : التربية والثقافة العربية الإسلامية، ص ١٤٨.

[٥]. ابن كثير : البداية والنهاية/ ١٠١/١٠. انظر ترجمة المنصور في البداية، ١٢٣/١٠.

[٦]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٨٢/١٠.

[٧]. ملكة أبيض : التربية والثقافة العربية الإسلامية، ص ١٧١.

[٨]. السيوطي، جلال الدين : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٥٩.

[٩]. الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد، ٧/١٤.

وحرص على تربية أولاده على تلقي العلم وحب العلماء، فقد رحل بولديه الأمين والمأمون لسماع الموطأ على مالك،[1] وكان الرشيد إذا حجّ أحجّ معه مائة من العلماء والفقهاء وأبنائهم، وإذا لم يحج أحجّ ثلاثمائة بالنفقة السابغة والكسوة التامّة.[2]

وهو من أسس بيت الحكمة في بغداد، إذ جلب إليه أنواعاً عديدة من الكتب، وعني بترجمة العديد منها إلى اللغة العربية. [3]

وكان جعفر بن يحيى البرمكي (ت : ١٨٧) ينفق على سفيان بن عيينة في الشهر ألف درهم، وبعد وفاته دعا سفيان : "اللهم إن جعفرًا كفاني مؤونة الدنيا فاكفه مؤونة الآخرة".[4]

وأمّا المأمون فقد اشتهر بعنايته بترجمة كتب العلوم اليونانية، وقد وصف ابن طباطبا المأمون بقوله : "واعلم أن المأمون كان من عظماء الخلفاء، ومن عظماء الرجال، وله اختراعات كثيرة في مملكته منها : أنه أول من محص منهم علوم الحكمة، وحصل كتبها، وأمر بنقلها إلى العربية وشهرّها، وحلّ إقليدس، ونظر في علوم الأوائل، وتكلم في الطب وقرب أهل الحكمة". [5]

وقال عنه زتر شتاين : "لقد حظي الشعر والعلوم في ظل المأمون بعصر ذهبي، وكان الخليفة يهتم بصورة خاصة بالفلسفة والعلوم البحتة، وقد أنشأ في بغداد مرصداً فلكياً جهز مكتبة ضخمة، وما هي إلا فترة قليلة، حتى كانت مؤلفات الأطباء والفيزيائيين اليونان قد ترجمت إلى العربية عبر الترجمات السريانية، وقد ترجم في عهد المأمون أكثر مما ترجم في أي عصر آخر".[6]

وأما الأمير عبد الله بن طاهر (ت : ٢٣٠) فعندما اطلع على كتاب القاسم بن سلام (ت : ٢٢٤) في غريب الحديث رتب له كل شهر خمسمائة درهم، وقال : "ما ينبغي لعقل بعث صاحبه على تصنيف هذا الكتاب أن نحوج صاحبه إلى طلب المعاش".[7]

ونشير هنا إلى أن بعض العلماء كان يرفض عطاء الخلفاء، منهم سعيد بن المسيب فقد كان له مال يتجر فيه، وكان يقول : "إنما أريد أن أصون وجهي عن بني مروان حتى ألقى الله فيحكم فيّ

---

[1]. ابن وردان : تاريخ العباسيين، ص ٨٤.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٠ /٢٢٢.

[3]. الأبراشي، محمد عطيّة : التربية الإسلامية وفلاسفتها، ص ٩٧.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٠ / ٢٠٥. انظر ترجمة جعفر بن يحيى في البداية، ١٠/٢٠١.

[5]. حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام، ٢/٥٨.

[6]. ملكة أبيض : التربية و الثقافة العربية الإسلامية، ص ١٨٧.

[7]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٠ /٣٠٤. * انظر ترجمة عبد الله بن طاهر في البداية، ١٠/٣١٥.

وفيهم"،[1] وكان الإمام أحمد يقول : "لو أعلم أنّ هذا المال أخذ من حقه وليس بظلم ولا جور لم أبال".[2]

المطلب السابع :

استمرار بناء المدن

ذكرنا سابقاً بناء الكوفة والبصرة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومع استمرار زيادة أعداد الجند تم بناء العديد من المدن الجديدة، والتي أصبحت فيما بعد مراكز وحواضر للعلم، فبنى عقبة بن نافع الفهري (ت : ٦٢) مدينة القيروان سنة خمسين للهجرة،[3] وقام أبو جعفر المنصور ببناء بغداد سنة ست و أربعين ومائتين، وقد بلغت تكلفتها ما يقارب خمسة ملايين درهم،[4] وأصبحت بعد ذلك مدينة العلماء، وفي ذلك يقول ابن عليّة : "ما رأيت أعقل في طلب الحديث من أهل بغداد"، ويقول الخطيب البغدادي : "لم يكن لبغداد نظير في الدنيا في جلال قدرها وفخامة أمرها وكثرة علمائها وأعلامها".[5]

وبنى المنصور مدينة الرصافة سنة إحدى وخمسين ومائة،[6] وبنى على منوال بغداد مدينة الرافقة سنة خمس وخمسين ومائة [7] لتزداد حواضر العلم وتكثر المؤسسات ويتخرج العلماء، ويعمّ هدي الإسلام بقاع المعمورة.

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٩/١٠٦.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٠ / ٣٥٣.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٨/٤٧. انظر ترجمة عقبة بن نافع في البداية، ٨/٢١٩.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٠/١٠١.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٠/١٠٥.

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٠/١١٢.

[7]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٠/١١٦.

المبحث الرابع :

مواد التعليم في القرون الثلاثة الأولى

منذ نزول القرآن الكريم وصدع النبي (ﷺ) به بمكة المكرمة كان القرآن الكريم هو المادة الرئيسة التي يتدارسها المسلمون، وكان النبي (ﷺ) يوضح ويبين أحكامه، لذا كان هذا المصدران هما مرجعية المسلم في معرفة الحلال والحرام، ومرجعية الدولة في تنظيم شؤونها، وقد استمر التركيز على هذين المصدرين حفظاً وفهماً وتدويناً وشرحاً، وازدادت الحاجة إلى العناية بهما عند دخول غير العرب الإسلام.

وكان هناك بعض العلوم لا ترتبط بمعرفة الكتابة، وإنما كانت تتم عن طريق المشافهة والسماع.[1] بالإضافة للقرآن والسنة ظهرت علوم عديدة تعين وتساعد على فهم نصوص القرآن والسّنة وفيما يلي نستعرض أهم هذه العلوم التي كانت تدرس في هذه المرحلة :

المطلب الأول :

القرآن الكريم وتفسيره

كان النبي (ﷺ) يجتمع بأصحابه في دار الأرقم بن أبي الأرقم يعلمهم القرآن، لتثبيت العقيدة في نفوسهم، ولغرس معاني الصبر والتضحية في حياتهم، لمواجهة تحديات الباطل.[2]

وعندما أشرق نور الإسلام على المدينة وقبل الهجرة بعث النبي (ﷺ) مصعباً إليها، وأتبعه بابن أمّ مكتوم لتعليم الناس القرآن،[3] وكانت تتم عملية تعليم القرآن في عصر النبي (ﷺ) بإحدى طريقين :

أ ـ الطريق المباشر : وهو التلقي من فيّ النبيّ (ﷺ) مباشرة، وذلك عند قراءته (ﷺ) على الناس سواء في الصلاة أم الخطبة، أم المجالس الخاصة والعامة، أم عند إملائه على كتبة الوحي، أم غيرها من المجالات. وفي هذا يقول ابن مسعود : "لقد حفظت سبعين سورة من في النبيّ (ﷺ)".[4] وعن الحارثة بنت نعمان قالت : "ما حفظت ﴿ق والقرآن المجيد﴾ إلا من في رسول الله (ﷺ) يخطب بها كل جمعة".[5]

---

[1]. انظر أكرم العمري : التعليم في عصر السيرة والراشدين، ١/٥٩.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٥/٢٩٦.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣/١٤٩.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣/١٣.

[5]. انظر تخريج الحديث ص ٥٧.

ب ـ الطريق غير المباشر : ويكون بتلقي القرآن ممن سمعه من النبي (ﷺ)، إذ كان الصحابة ينقلون آيات الله بعد سماعها من النبي (ﷺ) إلى بيوتهم، وقد حفظ زيد بن ثابت بضع عشرة سورة قبل أن يرى النبي عليه السلام وله إحدى عشرة سنة.[1]

وأيضاً يندرج تحت هذه الطريقة تعليم الرسل الذين يبعثهم النبي (ﷺ) إلى القبائل والبوادي فكانت الركبان تتناقل القرآن، سواءٌ من أسلم منهم أم من لم يسلم، وربما حفظ بعض الصحابة شيئاً من القرآن منهم، فمن ذلك أن عمرو بن سلمة أمّ قومه وهو ابن ست أو سبع سنين لكثرة حفظه للقرآن، وأمّا كيف حفظ ذلك دون أن يسمع مباشرة من النبي (ﷺ) ؟ فقد بين هو ذلك قائلاً : "كنا بماء ممر الناس، وكان يمّر بنا الركبان فنسألهم ما للناس ؟ ما للناس ؟ ما هذا الرجل ؟ فيقولون : يزعم أنّ الله أرسله وأوحى إليه كذا، فكنت أحفظ ذاك الكلام فكأنما يغري في صدري، ... فنظروا فلم يكن أحد أكثر قرآنا مني، لما كنت أتلقى من الركبان فقدموني بين أيديهم".[2]

وقد برز اهتمام النبي (ﷺ) بالقرآن حفظاً وتعليماً وتدويناً من خلال منعه الصحابة من كتابة غير القرآن حتى قال (ﷺ) : "لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن فليمحه"،[3] وذكر بعض العلماء أن علة النهي هي خوف انكباب الصحابة على غير القرآن، وترك القرآن اعتماداً على شرح النبي (ﷺ) وبيانه وأقواله.[4]

واستمر تناقل القرآن بين جيل الصحابة ومن تبعهم، وتلقى صغار الصحابة القرآن عن كبارهم، فأخذ ابن عباس علم أبي بكر وعلي وأبيّ، وكان يسألهم عمّا نزل من القرآن، فبرع وأصبح أعلم الناس بتفسير كتاب الله.[5]

وقرأ التابعون على الصحابة، فقد قرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمي على عثمان وابن مسعود، وأصبح مقرئ أهل الكوفة.[6]

وقرأ أناس من التابعين بقراءة ابن مسعود، وقرأ بعضهم بقراءة أبي موسى، وقد سبق أن ذكرنا ذلك واستمر الاهتمام بالقرآن وتفسيره في عهد الخلفاء الراشدين، فكان عمر بن الخطاب يوصي ولاته بالقرآن دون غيره، فقد أوصى أبا موسى الأشعري بالقرآن عندما بعثه إلى العراق فقال له : "إنك تأتي

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٥/٣٠١.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٤/٣٢٠، رواه البخاري : الصحيح بشرح فتح الباري، كتاب المغازي، باب ٥٣، حديث (٤٣٠٢).

[3]. مسلم : الصحيح بشرح النووي، الزهد، التثبت من العلم، ١٨/١٢٩، حديث (٣٠٠٤).

[4]. نور الدين عتر : منهج النقد في علوم الحديث، ص ٤٣.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٨/٣٠٥.

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٦/٢٠٨.

قوماً لهم في مساجدهم دويٌّ بالقرآن كدوي النحل فدعهم على ما هم عليه ولا تشغلهم بالأحاديث وأنا شريك في ذلك".[1]

ولا يفهم من هذا إغفال عمر لتعليم حديث رسول الله (ﷺ) وإنما تُحْمَل ذلك على الأحاديث التي لا تثمر عملاً، وتلك التي يحملها الناس على غير ما تحتمله، أو يتتبع الناس أحاديث الرخص، فقد قال عمر رضي الله عنه : "أقلّوا الرواية عن رسول الله (ﷺ) إلا فيما يعمل به".[2]

وفي خلافة عثمان - رضي الله عنه - تم تخصيص اثني عشر رجلاً يستخرجون القرآن وأحكامه ومنهم أبي بن كعب وسعيد بن العاص وزيد بن ثابت.[3]

وقد ذكرنا نشوء القراءات السبع، وكيف قرأ كل مصر بقراءة الصحابيّ الذي نزل فيهم، حتى أصبحت هذه القراءات أصولاً للقراءة، عرفت باسم رواتها.

وأما تفسير القرآن وهو علم يعرف به معاني الآيات وأحكامها وأسباب نزولها وترتيبها والناسخ والمنسوخ منها،[4] فقد ذكرنا مثالاً مدرسة مكة التي تولّاها ابن عباس، وضمت كبار أصحابه مثل عكرمة ومجاهد وابن جبير وغيرهم ممن سبق ذكرهم،[5] واستمر تناقل التفسير حتى دونت الآثار والأحاديث في الكتب فحفظت لنا تفاسيرهم.

وقد ساعد على الاهتمام بالقرآن إضافةً لما سبق عظم الأجر الذي بينته النصوص لمن قام على تعلّم القرآن وتعليمه، والمكانة التي أولاها النبي لأهل القرآن،[6] وسار عليها الصحابة من بعده، فيقول أنس بن مالك رضي الله عنه : "كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران عزّ فينا - يعني عَظم -".[7]

وكان الصحابة أيضاً يتنادون بالغزوات بما يثير هممهم، فكانوا يتنادون في معركة اليمامة : "يا أصحاب سورة البقرة ويا أهل القرآن زيّنوا القرآن بالفعل".[8]

ونشير أخيراً إلى أن أول ما يتعلمه صبيان الكتّاب القرآن لتعتاد ألسنتهم الفصاحة والبلاغة والبيان.

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٨/١١٠.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٨/١١٠.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٨/٨٧.

[4]. التهانوي : كشاف اصطلاحات الفنون، ص ٣٣.

[5]. انظر هذا البحث : تدوين التفسير ص ١٠٦.

[6]. انظر في هذا البحث : ص ٧٢-٧٣.

[7]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٦/١٧٩.

[8]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٦/٣٢٩.

المطلب الثاني :

الحديث الشريف

ارتبط الحديث بالقرآن منذ بداية الدعوة الإسلامية، فكان النبي (ﷺ) يبين ما أشكل من نصوص القرآن وتفسيره للصحابة، وفي أهمية الحديث يقول السمعاني : "اعلم وفقك الله أنّ علم الحديث أشرف العلوم بعد العلم بكتاب الله سبحانه وتعالى إذ الأحكام مبنية عليها ومستنبطة منها".[1]

وفيما كان للقرآن كتبة لم يكتب الحديث سوى عبد الله بن عمرو بن العاص عن إذن النبي (ﷺ) له بعد منعه من ذلك، وقد بيّن أبو هريرة ميزة عبد الله بن عمرو عنه في الكتابة حيث يقول : "ما من أحد من أصحاب رسول الله (ﷺ) أكثر حديثاً عنه مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب".[2]

واستمرت العناية بالحديث النبوي، ولكن بدرجة أقل من العناية بالقرآن، وكان الصحابة يسيرون وفق ضوابط دقيقة، سواءً في قبول الحديث أم روايته، ومن هذه الضوابط :

أ ـ تقليل الرواية عن رسول الله (ﷺ) خوفاً من حدوث الخطأ والنسيان ويظهر ذلك بوضوح في موقف عمر بن الخطاب عند قوله لأبي هريرة : "لتتركن الحديث عن رسول الله (ﷺ) أو لألحقنك بأرض دوس"،[3] وقوله لكعب الأحبار : "لتتركن الحديث عن الأول أو لألحقنك بأرض القردة".[4]

ب – التثبت عند الأخذ عند الأداء.

جـ – عرض الرواية على نصوص وقواعد الدين وبيان مدى مطابقتها له.[5]

وبعد تعرض حديث النبي (ﷺ) للطعن والدس، سخّر الله لهذه الأمة ثلة من العلماء الأفذاذ الذين دافعوا عن حديث النبي (ﷺ)، وبينوا صحيحه من سقيمه. وقد تصدر في هذه المرحلة علم الحديث اهتمام العلماء، وبرز المحدثون على غيرهم حيث يقول الشافعي : "عليكم بأصحاب الحديث فإنهم أكثر الناس صواباً".[6] ويقول : "إذا رأيت رجلاً من أصحاب الحديث فكأنّما رأيت رجلاً من أصحاب رسول الله (ﷺ) جزاهم الله خيراً حفظوا لنا الأصل فلهم علينا الفضل".[7]

---

1. السمعاني : أدب الإملاء، ص ٦١.
2. ابن كثير : البداية والنهاية، ٨/١١٠ والحديث تقدم وتخريجه انظر ص
3. ابن كثير : البداية والنهاية، ٨/١١٠.
4. ابن كثير : البداية والنهاية، ٨/١١٠.
5. انظر نور الدين عتر : منهج النقد في علوم الحديث، ص ٥٢–٥٤.
6. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٠/٢٦٥.
7. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٠/٢٦٥.

واشتهر أصحاب الحديث بالرحلة سماعاً وروايةً له، وقد تحدثنا عن الرحلة وعن تدوين الحديث سابقاً.

وفي هذه الفترة ظهرت التخصصات الدقيقة في علم الحديث كالجرح والتعديل، وعلم الرجال، والعلل، والشرح والبيان، وفي ذلك يقول هلال بن المُعلّى الرقيّ : "مَنّ الله على هذه الأمة بأربعة : بالشافعي فَهِم الأحاديث وفسّرها، وبين مجملها من مفصلها والخاص والعام والناسخ والمنسوخ، وبأبي عبيد بيّن غريبها، وبيحيى بن معين نفى الكذب عن الأحاديث، وبأحمد بن حنبل ثبت في المحنة لولا هؤلاء الأربعة لهلك الناس".[1]

و لم تكد تمضي الثلاثة قرون الأولى حتى صُنِّفت مئات الكتب في مختلف علوم الحديث، وحُفِظَ حديث النبي (ﷺ) وفق منهج علمي دقيق، متصل السند إلى النبي (ﷺ)، وقد أطلق على هذه المرحلة مرحلة الرواية.

المطلب الثالث :

علم الفقه

اعتمد الفقه على القرآن والسنة بصفتها مصادر رئيسة تُستخرج الأحكام منها، و لم يكن هنالك فصل بين الفقه والقرآن والحديث، إذ تعلم أحكام الدين يشمل الثلاثة.

وظهر بين الصحابة تفاوت في معرفة الأحكام الشرعية فأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وبالفرائض زيد بن ثابت.[2]

وفي عهد التابعين نبغ بعض العلماء في استخراج الأحكام الشرعية وفق أسس ومناهج دقيقة فبدأت مدارس الفقه بالظهور وكان مذهب أبي حنيفة أول المذاهب الأربعة ظهوراً، حيث لازمه أصحابه وحملوا فقهه ونشروه، يقول الشافعي ـ رحمه الله ـ : "من أراد الفقه فهو عيال على أبي حنيفة ومن أراد السير فهو عيال على ابن إسحاق".[3]

وتوالت بعد ذلك بقية المذاهب الأربعة وهي : المالكي والشافعي والحنبلي، وتناقل الناس مذاهب الأئمة وفتاواهم.

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٥٠/١٠.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية ٣٠١/٥ الحديث سبق تخريجه انظر ص ٧٨، والفرائض علم يبحث في كيفية قسمة تركة الميت بين الورثة، وقد أصبح بعد ذلك مندرجًا مع علم الفقه، (التهانوي : كشاف اصطلاحات الفنون، ص ٤٤).

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٥/١١.

وظهر كذلك المذهب الظاهري على يد داود بن على (ت : ٢٧٠) بصفته مذهبا يختلف عن المذاهب السابقة ويقوم على نفي القياس والأخذ بظاهر النصوص، وجعلوا مدارك الشرع كلها منحصرة في النصوص والإجماع، وردّ القياس الجلي والعلة المنصوصة إلى نص.[١]

وكان علم الفقه متصلاً إلى الصحابة لقرب عهدهم، فقد تلقى الشافعي الفقه عن مسلم ابن خالد عن ابن جُريج عن عطاء عن ابن عباس وابن الزبير وجماعة من الصحابة.[٢]

أما أصول الفقه فيعرف بأنه مجموعة القواعد والبحوث التي يُتوصل بها إلى استنباط الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية.[٣]

ويعدّ علم أصول الفقه من العلوم المستحدثة، فقد كان الصحابة والتابعون في غنى عنه، لأن الأحكام تتلقى من النبي (ﷺ) مشافهة في عصره، ثم أُخذت عن صحابته بعد وفاته، ولكن بعد تفرق الصحابة في الأمصار، ودخول كثير من غير العرب في دين الله أفواجاً، ووقوع حوادث ومستجدات لم تكن معهودة، اتجه العلماء إلى وضع قواعد وضوابط لاستخلاص الأحكام الشرعية من مصادرها، فكان أول من كتب فيه الشافعي رحمه الله حيث أملى فيه رسالته المشهورة تكلم فيها عن الأوامر والنواهي، والبيان والخبر والنسخ، وحكم العلّة المنصوصة من القياس،[٤] وقد أورد ابن كثير خبراً مفاده أن عبد الرحمن بن المهدي طلب من الشافعي تأليف كتاب في أصول الفقه فصنف الرسالة.[٥]

المطلب الرابع :

علوم اللغة

كان العرب المسلمون على درجة من الفصاحة والبلاغة، بحيث يسهل عليهم فهم القرآن الكريم والسنة، وخصوصاً أن القرآن نزل بلسان عربي مبين، ولكن بعد دخول غير العرب في الإسلام وانتشار اللحن ازداد الاهتمام بعلوم اللغة، وعلى وجه الخصوص علم النحو وذلك لأن معرفته ضرورية في استخراج الأحكام من القرآن والسنة لمن أراد معرفتها.[٦]

ومن علوم العربية التي كان يتمّ تعليمها :

---

[١]. ابن خلدون : المقدمة، ص ٤١٧.

[٢]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٦٣/١٠.

[٣]. أبو العينين، بدران : أصول الفقه الإسلامي، ص ٣١.

[٤]. انظر ابن خلدون : المقدمة، ص ٤٢٤-٤٢٦، وانظر الأسباب التي دفعت الشافعي للتصنيف، أبو العينين، بدران : أصول الفقه الإسلامي، ص ١٢.

[٥]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٦٧/١٠.

[٦]. انظر ابن خلدون : المقدمة، ص ٥٤٥.

أ ـ الكتابة : وقد عُرِفت الكتابة قديماً وكان في مكة والمدينة من يتقنها وشجع النبي (ﷺ) على تعلمها عندما جعل فداء أسرى بدر تعليم أبناء الأنصار الكتابة.[1]

وبرزت الحاجة إلى إتقان الكتابة في مرحلة النسخ والتدوين، إذ كانت الوسيلة الرئيسة لحفظ العلوم وقيدها، واشتغل كبار العلماء بالنسخ، وقد سأل مالك بن دينار جابر بن زيد عن صنعته حيث كان يتخذ من النسخ حرفة فقال : "كيف ترى صنعتي هذه يا أبا الثعثاء ؟ فقال : نعم الصنعة صنعتك، تنقل كتاب الله ورقة إلى ورقة وآية إلى آية وكلمة إلى كلمة هذا الحلال لا بأس به"،[2] وكان الإمام أحمد أيضاً ينسخ بالأجرة.[3]

ومن نصائح يحيى بن خالد البرمكي لبنيه قوله : "اكتبوا أحسن ما تسمعون واحفظوا أحسن ما تكتبون، وتحدثوا بأحسن ما تحفظون".[4]

ب ـ النحو : وهو ما يعرف به كيفية التركيب العربي صحة وسقماً، وكيفية ما يتعلق بالألفاظ من حيث وقوعها،[5] وقد ظهر علم النحو نتيجة لما طرأ من تغير على اللسان العربي بانتشار اللحن، الذي قد يؤدي إلى سوء فهم للنصوص، أو تفسيرها على غير وجهها المراد، ونتيجة لذلك تمَّ وضع قواعد علم النحو، وكان أول ظهوره على يد أبي الأسود الدؤلي فنسب إليه علم النحو، وقيل بل هو أول من تكلم فيه، وإنما أخذه عن علي بن أبي طالب، وكلفه زياد بن أبيه بوضع قواعد لهذا العلم، وكان وقتها مؤدب بنيه.[6]

وتوالى بعد ذلك علماء النحو أمثال أبي عمرو الثقفي وقد أخذ عنه الخليل بن أحمد والأصمعي وسيبويه، وصنفت كتب متخصصة في هذا العلم منها كتاب سيبويه.[7]

جـ ـ الشعر : بلغ تأثير الشعر غايته في حياة العرب قبل الإسلام، يقول ابن خلدون : "واعلم أنّ فنّ الشعر من بين الكلام كان شريفاً عند العرب، ولذلك جعلوه ديوان علومهم وأخبارهم وشاهد صوابهم وخطئهم، وأصلاً يرجعون إليه في الكثير من علومهم وحكمهم".[8] وجاء الإسلام فوضع له ضوابط يلتزمها لتحول بينه وبين الشطط والكذب، وقد حث النبي (ﷺ) حسّان بن ثابت

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٢٩/٣٠٠.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٠٠/٩.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٤٣/١٠.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٠/.٢١٢.

[5]. التهانوي : كشاف اصطلاحات الفنون، ص ٢٣.

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣١٥/٨.

[7]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣١٥/١٠.

[8]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٠٨/١٠.

على هجاء المشركين يوم قريظة فقال : "اهجهم أو هاجهم ومعك جبريل"،[1] وكان ابن عباس يخصص يوماً لتعليم الشعر،[2] وكانت أم المؤمنين عائشة من أعلم الناس به، حيث يقول عروة بن الزبير : "ما رأيت أحدًا أعلم بفقه ولا طب ولا شعر من عائشة".[3]

وقد أدى الشعر دوراً مهماً في نظم العلوم في قصائد مطولة ليسهل حفظها على الطلبة، ومن ذلك ما نظمه أبو العباس الناشئ (ت : ٢٩٣) حيث نظم قصيدة في مختلف فنون العلم بلغ عدد أبياتها أربعة آلاف بيت.[4]

د ـ **العروض** : وهو علم تعرف به كيفية الأشعار من حيث الميزان والتقطيع،[5] وأول من أوجده الخليل بن أحمد الفراهيدي، حيث قسم الشعر إلى خمس دوائر وفرّعه إلى خمسة عشر بحراً، وزاد الأخفش آخر، ليصبح عدد بحور الشعر ستة عشر بحرًا.[6]

المطلب الخامس :

علم المغازي والأنساب

أما المغازي فتشمل غزوات النبي (ﷺ) وسراياه التي كان يبعث بها، وقد كان هذا العلم محل اهتمام الصحابة والتابعين، يقول علي بن الحسين زين العابدين ـ رحمه الله ـ : "كنا نعلم مغازي النبي (ﷺ) كما نعلم السورة من القرآن".[7]

ويقول الزهري : "في علم المغازي علم الآخرة والدنيا"،[8] وكان الصحابة يحدثون غيرهم بهذا العلم فقد أخذ عكرمة المغازي عن ابن عباس،[9] وكان ابن عباس يخصص يوماً للحديث في المغازي،[10] وعندما التقى الأوزاعي ومالك في المدينة غمره الأوزاعي بالمغازي.[11]

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣٢/٤. رواه البخاري : الصحيح بشرح فتح الباري، كتاب الأدب، باب هجاء المشركين حديث (٦١٥٣)، بلفظ "اهجهم أو هاجهم ـ وجبريل معك "، ٥٦٢/١٠.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٠٤/٨.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٩٥/٨.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٠٧/١١. *

[5]. التهانوي : كشاف اصطلاحات الفنون، ص ٢٩.

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٦٦/١٠.

[7]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٤١/٣.

[8]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٤١/٣.

[9]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٥٥/٩.

[10]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٠٨/٨.

[11]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١١٩/٩.

و أول من صنف في علم المغازي عروة بن الزبير،[1] وكـان أبـو إسـحاق الفـزاري (ت :٢٨٩) إمام أهل الشام في المغازي، وعنه أخذ الثوري والأوزاعي.[2]

وأما الأنساب فهو العلم الذي يُعنى بأنساب العرب وقبائلهم وبطونهم، وقـد اشتهر أبـو بكـر الصديق رضي الله عنه بذلك حيث كان يُسمّى نسّابة العرب، وعنه أخذ الجبير بن مطعم النسب.[3]

وكان الزهري يتعلم الأنساب من عبـد الله بـن ثعلبـة (ت : ٨٩)،[4] وللزبـير بـن بكّـار (ت : ٢٥٦) كتاب وسمه بـ "أنساب قريش"،[5] وأول من ضبط علم الأنساب هو هشام بن محمد بن السـائب الكلبي (ت: ٢٠٤) وصنف في ذلك كتباً كثيرة منها : المنزلة، الجمهرة، والفريد، والملوك.[6]

المطلب السادس :

علم القصاص والوعظ

ذُكرت قصص السابقين في القرآن، وعلى لسان النبي (ﷺ)، ولكن بإيجاز، بحيث تؤدي الغرض من إيرادها، دون الخوض بالتفاصيل التي لا تؤثر في مغزى القصة.

وعندما أسلم بعض أهل الكتاب حملوا ما ورثوه من قصص، وأخذوا في سردها وتحديث الناس بها لإكمال خيوط القصة وكشف كثير من تفاصيلها، وأما ابتـداء القصـاص فقـد كـان علـى يـد تميـم الداري، في أواخر خلافة عمـر، فقـد روى حميـد بـن عبـد الرحمـن أن تميمـاً الـداري استأذن عمـر في القصاص سنين، فأبى أن يأذن له، فلما أكثر عليه قال له : ما تقول ؟ قال : أقرأ عليهم القرآن وآمرهم بالخير وأنهاهم عن الشّر، فال عمر : ذلك الذبح، ثم قال : عظ قبل أن أخرج في الجمعة، فكـان يفعـل ذلك يوماً واحداً في الجمعة، فلما كان عثمان استزاده فزاده يوماً آخر.[7]

وقيل للحسن البصري : "متى أحدث القصاص ؟ قال : في خلافة عثمان بن عفـان قيـل : مـن أول من قص ؟ قال : تميم الداري".[8]

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٠٧/٩.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٠٨/١٠. *

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٤٨/٨.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٨٢/٩. *

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٧/١١. *

[6]. القنوجي : أبجد العلوم، ١١٤/٢. وانظر ترجمة هشام بن السائب في السير، ١٠١/١١.

[7]. ابن عساكر : تاريخ دمشق، ٨١/١١.

[8]. المقريزي : الخطط، ١٢٠/٣.

وكان القصّاص في ابتداء أمرهم يخضعون لمراقبة الخليفة، فقد ذكرنا منع عمر لكعب الأحبار من الإكثار من الحديث والقصص وقد هدده بالنفي.[1]

ومرّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه على أحد القصاص وهو يقصّ فقال له : تقص ونحن قريبوا عهد ؟ إني سائلك فإن تجب فيما سألتك وإلاّ أدبتك : فقال القاص : سل يا أمير المؤمنين عمّا شئت فقال علي : ما ثبات الإيمان وزواله ؟ قال القاص : ثبات الإيمان الورع وزواله الطمع. قال : فذلك فقص.[2]

وكان ابن أبي السائب يقص في المدينة فقالت له عائشة : "ثلاثاً لتبايعني عليها أو لأناجزنّك"، فقال : "ما هنّ ؟، بل إنا أبايعك يا أم المؤمنين، قالت : اجتنب السجع من الدعاء فإني عهدت رسول الله (ﷺ) وأصحابه لا يفعلون ذلك، قص على الناس في كل جمعة مرّة، فإن أبيت فثنتين، فإن أبيت فثلاثاً، ولا تَمّل الناس هذا الكتاب".[3]

وكان بعض القُصّاص يقف على العبر والعظات في قصصه فقد كان الأوزاعي ـ رحمه الله ـ يكتب عن بلال بن سعد (ت : ١٢٤) العبر والعظات في قصصه.[4]

وقد كان للقُصّاص أثر سلبي في وضع الحديث، والكذب على رسول الله (ﷺ)، ونشر ذلك بين العامة، يقول ابن قتيبة عن القصاص : "فإنهم كانوا يميلون وجوه العامة إليهم، ويستدرون ما عندهم بالمناكير والغريب والأكاذيب من الأحاديث، ومن شأن العوام القعود عند القاص ما كان حديثه عجيباً خارجًا عن فطر العقول، أو كان رفيقاً يحزن القلوب، ويستغزر العيون،[5] وقد اختلفت أساليب ومواقف العلماء في التصدي لهؤلاء القصاص، بين فضحهم أمام الناس وزجرهم وبيان كذبهم، إلا أنّهم مع ذلك بقى صدى صوتهم ووقع كلامهم مؤثراً في نفوس العوام.[6]

المطلب السابع :

اللغات والترجمة

كان الاتصال مع غير العرب يتطلب معرفة لغتهم، لذلك طلب النبي (ﷺ) من زيد بن ثابت أن يتعلم العبرية بهدف قراءة كتب اليهود ورسائلهم والرد عليهم،[7] وتعلّم أيضاً الفارسية من رسول

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٧/١١.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٦/٩.

[3] الزركشي : الإجابة، ١٨/١.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٦٢/٩. *

[5]. ابن قتيبة : تأويل مختلف الحديث، ص ١٧٦.

[6]. انظر أكرم العمري : بحوث في تاريخ السنّة، ص ٣٥-٣٧.

[7]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٧/١١.

كسرى في ثمانية عشر يوماً، وتعلم الحبشية والرومية والقبطية من خدّام رسول الله (ﷺ)، وقد كانت قوّة حفظه وشدة فطنته وذكائه وصغر سنه عوامل تساعده في ذلك،[1] ولم يكن زيد وحده من بين الصحابة من يتقن ذلك فقد كان عبد الله بن عمرو بن العاص يتقن لغة اليهود،[2] ومثله المغيرة ابن شعبة.[3]

أما الترجمة فقد كان أغلب المترجمين من غير العرب، إذ يُقبلون على تعلّم العربية، فيجمعون اللغتين وينقلون كتب لغتهم إلى اللغة العربية، ومن أبرز المترجمين حسان بن أبي سنان (ت : ١٨٠) حيث كان نصرانياً فأسلم، وكان يعرب الكتب بين يدي والي الأنبار، وقد كان يتقن العربية والفارسية والسريانية.[4] ومنهم حنين بن إسحاق (ت : ١٦٠) الذي عّرب كتاب إقليدس والمجسطي لأرسطاطاليس، وغيرها من كتب الطب اليونانية، ولذلك كان المأمون يدنيه ويرعاه،[5] وقام ابن المقفع (ت : ١٤٥) بترجمة العديد من الكتب، ومن أشهرها كتاب كليلة ودمنة.[6]

المطلب الثامن :

الكيمياء

وهو علم يعرف به طرق سلب الخواص من الجواهر المعدنيّة، وطلب خاصية جديدة إليها وإفادتها خواصاً لم تكن لها،[7] وقد برز فيه خالد بن يزيد بن معاوية (ت : ٨٥)، وكان من أعلم قريش بفنون العلم، وله يدٌ طولى في الطب، وأصاب كثيراً من علم الكيمياء، وقد استفاد من راهب اسمه مريانش،[8] ولم يكن هذا العلم معروفا عند المسلمين أو مشتهرًا في القرون الثلاثة الأولى.[9]

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٦/٩.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٦٦/٨.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٩٠/٧.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٨١/١٠. *

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٥/١١. *

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٩٨/١٠. *

[7]. القنوجي : أبجد العلوم، ٤٥٦/٢.

[8]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٦٤/٩.

[9]. انظر ابن خلدون : المقدمة، ٥٠٧.

المطلب التاسع :

الطب

وقد عرف عند العرب قبل الإسلام، ومن أشهر أطباء العرب الحارث بن كلدة الثقفي، وفي الإسلام [1] وُجِدَ من يعرف الطب فقد كانت النساء يقمن بتمريض الجرحى في الغزوات، واشتهرت أم المؤمنين عائشة بمعرفة الطب،[2] وقد جاء الإسلام بمعلومات غزيرة وفريدة عن الطب، سواءٌ في مرحلة الوقاية، أم مرحلة العلاج، أم الحجر الصحي أم غيرها من الأدوية والعلاجات، وأفرد مصنفوا كتب الحديث كتباً مستقلة للطب والمرض كالبخاري وغيره،[3] يقول ابن خلدون عن أهمية الطب :"هذه الصناعة ضرورية في المدن والأمصار، لما عرف من فائدتها، فإن ثمرتها حفظ الصحة للأصحاء، ودفع المرض بالمداراة، حتى يحصل لهم البرء من الأمراض،[4] وقد برز المأمون في الاهتمام بنقل كتب الطب اليونانية، فقد جمع له أبو الحسن على بن موسى رسالة مشتملة على علوم طبية عديدة. [5]

المطلب العاشر :

الفلسفة وعلم الكلام

الفلسفة كلمة يونانية تعني الحكمة، ونُعَـرِّف الفلسفة بأنها السعي لإدراك الوجود الحسي وما وراء الحس وأساليبها وأصولها بالأنظار الفكريّة والأقيسية العقليّة، وتصحيح العقائد الدينية من خلال النظر لا من جهة السمع.[6]

وأما علم الكلام ويسمى أصول الدين وعلم النظر والاستدلال فهو الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة التفصيلية، والردّ على المبتدعة والمنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة،[7] ومن هنا فالعلاقة وطيدة بين هذين العلمين، فقد أدّى دخول ثقافات جديدة إلى المجتمع المسلم وقيام حركة نقل اللسان اليوناني إلى اللسان العربي إلى دخول تصورات حسية عن الإله فقاموا بعرض مسائل

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢٢/٩.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٩٥/٨.

[3]. انظر دياب، عبد الحميد : مع الطب في القرآن الكريم.

[4]. ابن خلدون : المقدمة، ٣٨٤.

[5]. القنوجي : أبجد العلوم، ٣٦١/٢٠. انظر ترجمة علي بن موسى في السير، ٢٣٦/١٤.

[6]. ابن خلدون : المقدمة، ص ٥١٤.

[7]. المصدر السابق، ص ٤٢٩.

الألوهية بالطرق المنطقية والأدلة الفلسفية، ورداً عليهم استخدم بعض علماء المسلمين القواعد والطرق العقلية، مما أدي إلى ظهور علم الكلام.[1]

ولم تكد تمضي فترة من الزمن حتى عاد علم الكلام على المسلمين ببدعتين شنيعتين هما : القول بخلق القرآن، وتفضيل علي على بقية الصحابة، وقد تعرض منذ ظهوره إلى ذم العلماء له، فيقول الإمام الأوزاعي : "العلم ما جاء عن أصحاب محمد (ﷺ) وما لم يجئ عنهم فليس بعلم"،[2] ويقول أيضاً : "اصبر على السنّة وقف حيث وقف القوم وليسعك ما وسعهم"،[3] ويقول أبو يوسف (ت : ١٨٢) : "من طلب العلم بالكلام تزندق".[4]

المطلب الحادي عشر :

علم النجوم

وهو علم يعرف به أحوال الشمس والقمر والنجوم،[5] وقد خلق الله هذه النجوم لفوائد كثيرة بينها الله تعالى في كتابه أنها زينة وتحمل شهباً تطرد الشياطين فقال تعالى **﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين﴾**،[6] ويهتدي الناس بها في حلهم وترحالهم ، يقول عز وجل : **﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر﴾**،[7] وقد تم استخدام حركات النجوم والكواكب لادعاء معرفة الغيب، وربط حركة الكواكب بحوادث أرضية ستقع وهو ما عرف بالتنجيم .

ومن هنا فعلم النجوم على نوعين : **أحدهما محمود** وهو دراسة الفلك والتدبر في خلق الكون، واستخدام النجوم لحساب الشهور والسنين.

الآخر مذموم : وهو الذي يقوم على مراقبة حركات النجوم ومنازل سيرها، وربط ذلك بحوادث أرضية من ضّر أو نفع لإنسان، وهذا النوع هو المحرّم لأنه يقود إلى الادعاء بعلم الغيب.[8]

---

[1]. انظر ابن خلدون : المقدمة، ص ٥١٥، والنجار، عبد المجيد : فقه التدين فهما وتنزيلا، الجزء الثاني.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢٠/١٠.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢٠/١٠.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٨٧/١٠.

[5]. التهانوي : كشاف اصطلاحات الفنون، ص ٧٢.

[6]. سورة الملك، آية ٥.

[7]. سورة الأنعام، آية ٩٧.

[8]. انظر ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٧/١.

وقد حرص الإسلام على إبطال عقائد الناس المتعلقة بنفع النجوم وضُرِّها، وادعاء المنجمين معرفة علم الغيب فعندما خسفت الشمس في عهد النبي (ﷺ) بَيَّنَ النبي (ﷺ) خطأ اعتقادهم بأنها تخسف لموت عظيم فقال (ﷺ) : "إن الشمس والقمر آيات الله وانهما لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتموهما فكبروا وادعوا الله وصلوا وتصدقوا".[1]

يقول الزرنوجي في ذمه : "وعلم النجوم بمنزلة المرض فتعلمه حرام لأنه يضر ولا ينفع والهرب من قضاء الله وقدرة غير ممكن"،[2] وقد ساق ابن خلدون الأدلة على بطلان ذلك ثم قال : "فقد بان لك بطلان هذه الصناعة من طرق الشرع، وضعف مداراتها مع ذلك من طريق العقل، مع ما لها من المضار في العمران الإنساني، مما تبعث في عقائد العوام من الفساد إذا اتفق الصدق من أحكامها في بعض الأحايين اتفاقاً لا يرجع إلى تعليل ولا تحقيق".[3]

---

[1]. انظر تخريج الحديث، ص ٦٤.

[2]. الزرنوجي : تعلم المتعلم، ص ٣١.

[3]. ابن خلدون : المقدمة، ٥١٩.

المبحث الخامس :

طرائق التعليم في القرون الثلاثة الأولى

يطلق مصطلح طرائق التعليم على تلك الأساليب المتبعة في التعليم، وتكاد تتشابه هذه الطرائق إلى حد كبير في هذه المرحلة وتتمثل في السماع والعرض والمذاكرة والسؤال من خلال المجالس والحلقات والرحلة والصحبة وغيرها،[1] ونورد فيما يلي أهم هذه الطرائق :

المطلب الأول :

المذاكرة

وتعني اجتماع العلماء وإفادة كل منهم للآخر، وقد تذاكر الإمام مالك مع الأوزاعي عند قدومه للحج، فجلسا في المدينة من الظهر حتى المغرب، فغمره الأوزاعي في المغازي ومالك في الفقه،[2] وتذاكر الأمام أحمد بن حنبل مع أبي إسحاق المزكّي (ت : ٢٥٩) في الحديث، فقد كان أبو إسحاق إمام أهل نيسابور في الحديث والرجال والعلل.[3]

وسُئل القاضي شريح (ت : ٧٨) : بم أصبت هذا العلم ؟ فقال : بمعارضة العلماء،[4] وإذا كان بعض العلماء يمتنع عن التحدث لسبب ما فإن ذلك لا ينطبق على الذاكرة وقد امتنع أحمد بن محمد البغدادي عن التحديث ولكنه كان يسمع منه في الذاكرة.[5]

وتستحب المذاكرة عند انتهاء الدرس، وقبل تفرق الأذهان، وتشتيت الأفكار والخواطر، ونسيان ما تمّ سماعه، يقول ابن جماعة : "وينبغي أن يتذاكر مواظبوا مجلس الشيخ ما وقع فيه من الفوائد والضوابط والقواعد وغير ذلك، وأن يعيدوا كلام الشيخ فيما بينهم، فإنَّ في المذاكرة نفعًا عظيمًا".[6]

وقد نبّه الزرنوجي إلى ضرورة أن تكون المذاكرة مع الفقيه النبيه المُتقن، حيث يقول : "وإيَّاك والمذاكرةَ مع مُتَعنّتٍ غير مستقيم الطبع، فإنَّ الطبيعة مسترقة، والأخلاق متعدية، والمجاورة مؤثرة".[7]

وقد تكون المذاكرة مع النفس، وهذا ما يسمّى التكرار، وسيأتي الحديث عنه، وقد تكون مع طرف آخر، وهو مقصودنا هنا.

---

[1]. انظر أكرم العمري : التعليم في عصر السيرة والراشدين، ٧٤/١.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١١٩/١٠.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١١٢/١١. *

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٥/٩. *

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١١٥/١١. *

[6]. ابن جماعة : تذكرة السامع، ص ١٤٣.

[7]. الزرنوجي : تعليم المتعلم، ص ٨٨.

وأما وقت المذاكرة فأفضله الليل، فقد روى ابن جماعة عن الخطيب البغدادي قوله : "أفضل المذاكرة مذاكرة الليل"، وكان جماعة من السلف يبدؤون في المذاكرة في العشاء، فربما لم يقوموا حتى يسمعوا أذان الصبح"،[1] ويقول ابن جماعة : "أجود الأوقات للحفظ الأسحار، وللبحث الأبكار، وللكتابة وسط النهار، وللمطالعة والمذاكرة الليل".[2]

المطلب الثاني :

المناظرة

ويكون فيها طرفان مختلفان في الرأي حول مسألة ما يسعى كلٌّ منهما إلى إثبات صحة رأيه وبطلان قول الآخر، حتى يظهر الحق لأحدهما فيعود الآخر إليه، وقد تناظر أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - في قتال المرتدين، فقال عمر - رضي الله عنه - لأبي بكر : "كيف تقاتل الناس ؟ وقد قال رسول الله (ﷺ) : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله)"، فقال : "لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقًا كانوا يؤدونها إلى رسول الله (ﷺ) لقاتلتهم على منعها". قال عمر : "فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر فعرفت أنه الحق".[3]

وتناظر الإمامان الأوزاعي وسفيان الثوري (ت : ١٦١) في مسجد الخيف حول مسألة رفع اليدين في الركوع والرفع منه، فحجَّ الأوزاعي سفيان الثوري.[4]

وكان كثير من العلماء يحضر مجلس حكم القاضي أبي يوسف فيتناظرون، وكان الإمام أحمد يحرص على حضور هذا المجلس،[5] وتناظر الإمام أحمد مع ابن أبي دؤاد (ت : ٢٤٠) في قصر المأمون حول مسألة خلق القرآن،[6] وفي النحو تناظر الفرّاء مع صالح بن اسحق الحربي (ت : ٢٢٦).[7]

وفي حديثه عن أهمية المذاكرة للطلبة يقول الزرنوجي : "ولا بد لطالب العلم من المذاكرة والمناظرة والمطارحة والمشاورة".[8]

---

[1]. ابن جماعة : تذكرة السامع، ص ١٤٤.

[2]. المصدر نفسه، ص ٧٣.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣١٥/٦. رواه البخاري : الصحيح بشرح فتح الباري، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، ح (١٣٩٩، ١٤٠٠).

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١١٩/١٠.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٨٧/١٠.

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٣٥/١٠، ٣٤٧. ترجمة ابن أبي دؤاد في البداية : ٣٣٣/١٠.

[7]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٠٦/١٠. *

[8]. الزرنوجي : تعليم المتعلم، ص ٧٨.

ومن أهم الآداب التي يجب مراعاتها من قبل المتناظرين أن يكون الهدف هو إظهارَ الحق، ولا يحل أن يكون الهدف إلزام الخصم وقهرَه،[1] وتتحقق عند المناظرة فوائد تفوق غيرها من الأساليب، يقول الزرنوجي : "وفائدة المطارحة والمناظرة أقوى من فائدة مجرد التكرار لأن فيها تكرار وفائدة".[2]

المطلب الثالث :

التعليم بالقدوة

كان الصحابة – رضوان الله عليهم – حريصين على التشبه بالنبي (ﷺ) في كل أفعاله، من صلاة وصيام وحج وسائر أعماله، وكان التابعون يتشبهون بالصحابة كذلك، وهكذا من جاء بعدهم، فكان ابن مسعود يشبه النبي (ﷺ) في هديه وسَمتِه، وكان علقمة يُشبهه، وكان إبراهيم يشبه علقمة، وكان منصور يشبه إبراهيم، وكان سفيان يشبه منصور، وكان وكيع يشبه سفيان، وكان أحمد يشبه وكيعًا، وكان أبو داود يشبه أحمد".[3]

يقول الزهري في بيان أهمية القدوة : "كنا نأتي العالِم، فما نتعلم من أدبه أحب إليه من علمه"،[4] وقد ساعد طول المعايشة والملازمة والصحبة على هذا النوع من الأساليب التعليمية.

المطلب الرابع :

الإعادة والتكرار

وهو فرع عن المذاكرة، ولكن في هذه الحالة تكون المذاكرة مع النفس فيقوم المتعلم بإعادة ما سمع، وتدريس ما علم، سواء بينه وبين نفسه، أو بينه وبين غيره، وذلك لتثبيت ما سمع، وإتقان ما حفظ، واستقرار ذلك في القلب، كان الزهري – رحمه الله – يرجع من عند عروة بن الزبير فيقول لجارية عنده فيها لُكنة : "ثنا عروة ثنا فلان ويسرد عليها ما سمعه، فتقول له الجارية : "والله ما أدري ما تقول، فيقول لها : اسكتي لكاع، فإني لا أريدك إنما أريد نفسي"،[5] وكان ينزل بالأعراب يعلمهم لئلا ينسى العلم، ويقول : "إنما يُذهِبُ العلمَ النسيانُ وتركُ المذاكرة".[6]

---

[1]. المصدر السابق، ص ٧٨.

[2]. المصدر السابق، ص ٨٨.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٥٩/١١.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٥٨/٦.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٥٥/٩.

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٥٩/٦.

وأما مقدار التكرار فيقول الزرنوجي : "وينبغي أن يكرر ما سَبْق (درس) الأمس خمس مرات، وسبق اليوم الذي قبل الأمس أربع مرات، والسبق الذي يليه ثلاثًا والذي قبله اثنتين، والذي قبله واحدة، فهذا أدعى إلى الحفظ".[1]

وينبغي أن يسبق التكرار والحفظ تصحيح ما يحفظ تصحيحا متقنا، إما على الشيخ أو على المعيد أو على صاحبه، ثم يحفظ بعد ذلك حفظا متقنا، ولا يحفظ شيئًا قبل تصحيحه، لأنه يقع في التحريف،[2] وقد ذكرنا أن أجود أوقات الحفظ والتكرار هي الأسحار.

ومما يعين على الحفظ التكرار في الغرف، وكل موضع بعيد عن الملهيات، وليس بمحمود الحفظ بحضرة النبات، والخضرة والأنهار، وقوارع الطرقات، وضجيج الأصوات، لأنها تمنع من خلو القلب غالبا.[3]

المطلب الخامس :

القراءة على الشيخ والسماع منه

وأكثر ما يوجد هذا الأسلوب في مجالس المحدثين وحلقاتهم، ويكون ذلك بعرض الطالب لما يقرأ على الشيخ، وقد يكون هو القارئ أو غيره، سواءٌ عن ظهر قلب أم من كتاب، وأما السماع فهو إملاء الشيخ للحديث وسماع الطلبة منه، وتنتهي بالحصول على إجازة بما سمع أو قرأ، وقد عدَّ الإمام الزهري القراءة والسماع بمرتبة واحدة، حيث يقول : "القراءة على العالم والسماع عليه سواء -إن شاء الله تعالى-"،[4] ولم أجد كثير حديث عند ابن كثير عن هذا الأسلوب، ولكن هناك ثمان طرق في وصف الأخذ عن الشيخ، إضافة لما سبق، ويطلق عليها طرق التحمل، وهي :

١ – **السماع من لفظ الشيخ** : سواء من حفظه أم كتاب، وهو أرفع الأقسام عند الجمهور.

٢ – **العرض** : وهي القراءة على الشيخ سواء هو يقرأ أم غيره، وسواء من كتاب، أم من حفظه.

٣ – **الإجازة** : وهي أن يأذن الشيخ لغيره أن يروي عنه حديثا، أو كتابا، أو أكثر، من غير أن يسمع منه أو يقرأ عليه.

٤ – **المناولة** : وهي أن يعطي الشيخ للتلميذ كتابًا أو صحيفة ليرويها عنه.

---

[1]. الزرنوجي : تعليم المتعلم، ص ٩٥.

[2]. ابن جماعة : تذكرة السامع، ١٢٢/١٢.

[3]. المصدر السابق، ص ٧٣.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٥٧/٩.

٥ – **المكاتبة :** وهي أن يكتب الشيخ لتلميذه شيئا من حديثه بخطه، سواء كان التلميذ حاضرًا أم غائبًا.

٦ – **الإعلام :** وهو أن يُعلم الشيخ تلميذه بأن هذا الحديث أو الكتاب سمعه من فلان، دون أن يطلب منه روايته.

٧ – **الوصية بالكتب :** بأن يوصي الشيخ بكتاب يرويه عند موته أو سفره لشخص.

٨ – **الوِجادة :** وهو أخذ العلم من الصحيفة من غير سماع و لا إجازة ولا مناولة.[١]

المطلب السادس :

أسلوب السؤال

ويعكس هذا الأسلوب صورة حقيقية عن المسائل العملية والحوادث الواقعية التي يواجهها السائل، فقد كان الصحابة يسألون النبي (ﷺ) عما يعترضهم من الحوادث والمسائل،[٢] وقد سجل القرآن لنا كثيرًا منها : **﴿يسألونك عن الأهلّة﴾**[٣] و **﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾**[٤] و **﴿يسألونك ماذا أحلّ لهم﴾**.[٥]

وخاطب علي بن أبي طالب أهل الكوفة قائلا لهم : "يأيها الناس، يأتوني فقهاؤكم يسألوني وأسألهم"، فلما كان من الغد غَدَوا إليه حتى امتلأت الرحبة، فجعل يسألهم ما كذا ما كذا، ويسألونه ما كذا ما كذا، فيخبرهم ويخبرونه".[٦]

ويؤكد الزهري أهمية السؤال بقوله : "كان يصطاد العلم بالمسألة كما يصاد الوحش".[٧]

وجمع عبد السلام التنوخي – سحنون المالكي – (ت : ٢٤٠) المدونة في الفقه المالكي من أسئلة أسد بن الفرات التي سألها لعبد الرحمن بن القاسم (ت : ١٩٢) صاحب مالك، حيث ارتحل أسد إليه في مصر، فأجابه عليها، فحفظها ودخل بها المغرب فانتسخها منه سحنون، ثم قدم على ابن القاسم

---

[١]. ابن الصلاح : علوم الحديث، ص ١٨١/١٣٢ باختصار شديد، وانظر ابن حجر : شرح نخبة الفكر، ص ١٣٥.

[٢]. انظر سليمان، دحدرح : الصحابي يسأل والنبي (ﷺ) يجيب.

[٣]. سورة البقرة، آية ١٨٩.

[٤]. سورة البقرة، آية ٢١٩.

[٥]. سورة المائدة، آية ٤.

[٦]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٥/٩.

[٧]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٥٩/٩.

في مصر، فأعاد أسئلته عليه، فزاد فيها، ورجع عن أشياء، فرتبها سحنون وعاد بها، فصارت إليه الرحالة وانتشرت عنه المدونة.[1]

وشرط العلماء لطالب العلم عدم الحياء من السؤال عما أشكل عليه، وصعب فهمه وقد روى مسلم عن عائشة – رضي الله عنها – قولها : "نعم النساء نساء الأنصار، لم يكن الحياء يمنعهن أن يتفقهن في الدين".[2]

وللسؤال آداب منها التلطف والأدب عند عرض السؤال، ولا يسأل الطالب عن شيء في غير موضعه، ولا يلحّ على الشيخ إذا سكت عن الجواب، وعدم تكرار سؤال يعلمه، ولا استفهام يفهمه، فإنه يضيع الوقت.[3]

المطلب السابع :

الاختبارات

لم تكن هنالك طرق واضحة لاختبار الطلبة، إنما كان الشيخ يمتحن الطالب قبل أن يسمح له بالدخول في حلقته، كما فعل الإمام مالك عند قبوله الشافعي –رحمهما الله –.[4]

وتأتي فائدة هذا الاختبار ليرشد الشيخ تلميذه إلى كتاب يدرسه، وفنّ يتعلمه، بما يتلاءم مع قدراته، وكانت طريقة اختبار المحدثين تعتمد قلب الأسانيد والمتون، وإدخالها في بعضها البعض، فيلتحق بالمتن سند متن آخر، فقد اختبر هشام بن عبد الملك الزهري قبل أن يوكل إليه مهمة تأديب أولاده، فطلب إليه أن يُملي على بنيه شيئا من الحديث، وأمر كاتبه بتدوينها، فحدَّث بأربعمائة حديث ثم خرج، فدعاه هشام مرة أخرى، وطلب إليه إعادة الأحاديث مدعيا أن الكتاب الأول قد ضاع، فأعادها الزهري، فأخرج هشام الكتاب الأول، فإذا هو لم يغادر منها حرفا، وهدف هشام من ذلك اختبار حفظه.[5]

واجتمع الإمام البخاري بسمرقند بأربعمائة من علماء الحديث فيها، فركبوا إسناد الشام في إسناد العراق، وخلطوا الرجال في الأسانيد، وجعلوا متون الأحاديث على غير أسانيدها، ثم قرؤوها

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٣٧/١٠. * وانظر ترجمة عبد الرحمن القاسم في السير، ١٢٠/٩. وأسد بن الفرات، ٢٢٥/١٠.

[2]. مسلم : الصحيح بشرح النووي، كتاب الحيض، غسل المستحاضة، حديث (٣٣٢)، ١٦/٤.

[3]. انظر ابن جماعة : تذكرة السامع، ص ١٥٦-١٥٧.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٦٣/١٠.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٥٦/٩.

على الإمام البخاري، فرد كل حديث إلى إسناده وقوَّم تلك الأحاديث، ولم يعثروا له على سقطة في إسنادٍ أو متن، وكذلك صُنِع معه في بغداد.[1]

المطلب الثامن :

تأديب الصبيان

تلقى الصبيان في عصر الراشدين التعليم في مكاتبهم، التي سبق الإشارة إليها، وفي بداية الخلافة الأموية اختص أبناء الخلفاء والأمراء بأسلوب مختلف في التربية والتعليم أُطلق عليه لفظ "التأديب"، وذلك لإعدادهم لمراكز ومناصب مهمة في الدولة، والتأديب مأخوذ من الأدب، وهو التهذيب وحميد الخصال وجميلها، والسداد وحسن السيرة،[2] وتعدّ وظيفة المؤدب من الوظائف المهمة بالنسبة للخلفاء والأمراء، لما يترتب عليها من تأثير على سلوك أبنائهم، يقول الماوردي : "لا بد من أن يجتهد في اختيار المعلم والمؤدب له، لأن الولد يأخذ من مؤدبه من الأخلاق والشمائل والآداب والعادات أكثر مما يأخذ من والده"،[3] ولذلك اختار الخلفاء لتأديب أولادهم من اشتهر بالعلم والحفظ والأمانة، فكان أبو الأسود الدؤلي مؤدب أولاد زياد بن أبيه،[4] والإمام الزهري مؤدب أولاد هشام بن عبد الملك.[5]

واختار المهدي العباسي الكسائي (ت : ١٨٩) لتأديب ولده الرشيد، واختاره الرشيد بعد ذلك لتأديب ولده الأمين، [6] وطلب المتوكل من الإمام أحمد تأديب ولده المعتز وكان صغيرا، فاعتذر الإمام أحمد عن ذلك.[7]

وكان كثير من الخلفاء يقدم نصائحه وتوجيهاته لمؤدب ولده، فقد أوصى عبد الملك بن مروان مؤدب أولاده إسماعيل بن أبي المهاجر بجملة وصايا، حيث قال له : "علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن، وجنبهم السِّفلة فإنهم أسوأ الناس رغبة في الخير، وأقلهم أدبا، وجنبهم الحشم، فإنهم لهم مفسدة، واحفِ شعورهم تغلظ رقابهم، وأطعمهم اللحم يقووا، وعلمهم الشعر يمجدوا وينجدوا، ومرهم أن يستاكوا عرضا، ويمصوا الماء مصًّا، ولا يعبُّوا عبًّا، وإذا احتجت أن تتناولهم بأدب، فليكن ذلك في سر، لا يعلم بهم أحد من الغاشية، فيهونوا عليهم".[8]

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٨/١١.

[2]. التهانوي : كشاف اصطلاحات الفنون، ٧٩/١.

[3]. الماوردي : نصيحة الملوك، ص ١٦٣.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣١٥/٨.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٥٥/٩.

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٠٧/١٠. * وانظر ترجمة الأمين في السير، ٣٣٤/٩.

[7]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٥٣/١٠.

[8]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣١٥/٨. انظر ترجمة إسماعيل بن أبي المهاجر في السير، ٢١٣/٥.

فهذه جملة من الوصايات تشمل بعض الأخلاق والآداب، وكان عبد الملك بعد ذلك يختبر أولاده بنفسه، فقد جمع الوليد وسليمان ومسلمة بين يديه، فاستقرأهم القرآن فأجادوا، ثم استنشدهم الشعر فأجادوا، إلا أنهم لم يُكملوا شعر الأعشى.[1]

وأما مكان التأديب فقد يكون قصر الخليفة كما حصل مع أولاد عبد الملك، وقد يكون بيت المؤدب، حيث أودع عبد العزيز بن مروان ولده عمر عند صالح بن كيسان (ت : ١٤٠) في المدينة، وكان هو في مصر، فكان يتابع أخباره، ويرسل الرسائل للسؤال عن ولده،[2] وبعث عمر بن عبد العزيز أولاده إلى مؤدب لهم في الطائف،[3] وضم يحيى بن خالد (ت : ١٩٠) ولده جعفر (ت : ١٨٧) إلى أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم فتفقه على يديه،[4] وكان المؤدب يتقاضى عن عمله راتبا، فقد ورد أن أبا بكر بن أبي الدنيا (ت : ٢٨١) كان يتقاضى عن تأديب المكتفي با لله المعتضد خمسة عشر دينارا في اليوم الواحد.[5]

وأما مواد التأديب فتشمل القراءة والكتابة وحفظ شيء من القرآن، يقول الماوردي : "فالوجه أن يبدأ بتعليم القرآن مع اللغة العربية، لأنها اللغة التي أنزل ا لله بها كتابه، وخاطب بها في شرائع دينه، وفرائض ملته، وبها بلغ رسول ا لله (ﷺ) سنته.[6]

ويجب أن يختار من الشعر أمثله، ويراعي في حفظ الأشعار الحِكْمِية، التي ضمت الحكمة والتوحيد والدين، والحث على العلم، والزهد، والشجاعة، والجود، ومكارم الأخلاق.[7]

ويجب أن يتهم المؤدب بتربية أولاد الملوك تربية بدنية، "ولا بدَّ لأولاد الملوك من الرياضة، والرماية، والفروسية والسباحة والمراكضة".[8]

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٨٥/٩.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٠١/٩. انظر ترجمة صالح بن كيسان في السير : ٤٥٤/٥. وترجمة عبد العزيز، ٢٤٩/٤.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٢٥/٩.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٠٢/١٠. *

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٧٦/١١. *

[6]. الماوردي : نصيحة الملوك، ص ١٦٨.

[7]. الصدر السابق، ص ١٦٩.

[8]. المصدر السابق، ص ١٧١.

المبحث السادس :

أماكن التعليم في القرون الثلاثة الأولى

يُعد المسجد المؤسسة الرئيسة للتعليم الإسلامي في هذه القرون، فكان أول ما فعله النبي (ﷺ) عند قدومه إلى المدينة المنورة بناء مسجد قباء، وأتبعه بعد ذلك بمسجده الشريف، إضافة إلى بعض المؤسسات الأخرى، وفيما يلي أهم هذه المؤسسات :[1]

المطلب الأول :

المسجد

قبل أن يبادر النبي (ﷺ) إلى بناء بيت يأويه وأهله سارع إلى بناء مسجد قباء، ليكون أول مسجد يبنى في الإسلام، وبعد أربع عشرة ليلة بنى مسجده (ﷺ)، وجعل بيته فيه، ولم تتعد المدة بين بناء المسجدين بضعة عشرة يوما.[2] وقد جمع المسجد النبوي وظائف عديدة من علم وعبادة وقضاء، وتصريف كافة شؤون الدولة، فكان النبي (ﷺ) يعلم أصحابه فيه، ويستقبل الوفود فيه، ويحبس الأسرى فيه، ليكون أرقَّ لقلوبهم.[3]

وعندما شعر أبو لبابة بأنه قد خان الله ورسوله ربط نفسه بإحدى سواري المسجد، حتى يتوب الله ورسوله عليه.[4]

وقد استمر دور المسجد النبوي بعد وفاته (ﷺ)، حيث اعتنى الخلفاء بتوسعته، والعلماء بالتعليم فيه، وكان لفقهاء المدينة العشرة حلقات تعقد في هذا المسجد، كحلقة سعيد بن المسيب وزيد ابن أبي أسلم،[5] وكذلك المسجد الحرام بعد فتح مكة وإقامة الصحابة فيه، وقصد الطلبة له، وكانت القبيلة التي يشرح الله صدرها للإسلام تسارع إلى بناء المسجد كما فعل أهل ثقيف في الطائف بعد إسلامهم،[6] وبادر الصحابة ومن تبعهم إلى الاقتداء بالرسول (ﷺ)، فكانوا إذا ما فتحوا بلدًا أو بنوه سارعوا إلى إقامة المسجد فيه، فعندما خط سعد بن أبي وقاص الكوفة بنى المسجد أولاً ثم أحاطت البيوت به.[7]

---

[1]. انظر ملكة أبيض : بحث مؤسسات التربية العربية في الشام، التربية العربية الإسلامية، ٢/١٤٦-١٦٥.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣/٢١٣.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٥/٤٥.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٤/١٢٢.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٩/١٢٦.

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٤/٢٤٧.

[7]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٧/٧٦.

وكذلك فعل الحجاج عند بنائه مدينة واسط،[1] وكان شرط مسلمة بن عبد الملك لفك حصار القسطنطينية أن يُسمح له ببناء مسجد هناك،[2] وبعد فتح دمشق سنة ثلاث عشرة بنى أبو عبيدة جامع دمشق، وانتشرت فيه بعد ذلك حلقات العلم ودروسه، وقام الوليد بن عبد الملك بتوسيعه، وكان الطلبة والعلماء يقصدونه على حد سواء، وعُقدت فيه مجالس التحديث وحلقات الفقه وغيرها من العلوم.[3]

وقد استمرت أهمية المسجد التعليمية قرونا طويلة، إذ يجتمع فيه الناس خمسة أوقات للصلاة، وتنعقد فيه حلقات العلم، ويخطب فيه كل جمعة، ويتلى فيه القرآن، لذلك سلط أعداء الإسلام في العصور الحديثة سهامهم إلى المسجد لينتزعوا منه دور القيادة والتوجيه، وتحويله إلى مكان منعزل يقتصر دوره على العبادة.[4]

المطلب الثاني :

بيوت العلماء

بعد انتشار الصحابة في الأمصار، وبنائهم فيها بيوتهم، قصدهم الناس ليأخذوا عنهم، فكان ابن عباس من كثر المزدحمين على باب بيته يقسِّم الناس جماعات، لكل علم جماعات مختلفة، فيدخل عليه من يريد السؤال عن القرآن أو غيره ثم يخرجون، ويدخل بعدهم من يريد السؤال عن الحلال والحرام، وهكذا حتى يدخل أصحاب الشعر واللغة والمغازي وأيام العرب،[5] وكان الناس يجتمعون عند رحبة الإمام علي ليحدثهم،[6] وأخذ الشافعي شيئا من العلم عن محمد بن الحسن الشيباني عند إقامة الشافعي في بيته.[7]

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٩٣/٩.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٤١/٩.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢١/٧. وانظر ملكة أبيض : بحث مؤسسات التربية العربية في الشام، ١٠٨/١٠-١١٧.

[4]. انظر الوشلي، عبد الله قاسم : المسجد وأثره في تربية الأجيال ومؤامرة أعداء الإسلام عليه.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٠٥.

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٥/٩.

[7]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٦٣/١٠.

المطلب الثالث :

قصور الخلفاء

كان الخلفاء على قدر من العلم فقد وصف ميمون بن مهران علم عمر بن عبد العزيز بقوله : "كانت العلماء عند عمر بن عبد العزيز تلامذة"،[1] وكان الخلفاء يحضرون المحدثين والفقهاء إلى قصورهم ليحدثوهم ويفقهوهم، ومن ذلك أن المهدي كان يرسل خلف شيوخ الحديث والفقهاء، فيجلسوا إليه يتحدثون في العلم،[2] وكان أبو جعفر المنصور يُوصي أولاده قائلا : "يا بني، لا تجلس مجلسًا إلا وعندك من أهل الحديث من يحدثك".[3]

وكان الرشيد يُرسل خلف أبي معاوية محمد بن حازم ليسمع منه الحديث، ويجتمع إليه شيوخ الحديث لِيُسمعوا ولديه، وجمع مرة المأمون مجموعة من القضاة والعلماء، فيهم يحيى بن أكثم وغيره، فأملى عليهم من حفظه ثلاثين حديثا.[4]

وكانت هذه القصور مؤسسة لتعليم أبناء الخلفاء والأمراء وتأديبهم، ومجلس سمر يتداول فيها موضوعات دينية وتربوية وعلمية وتاريخية.[5]

المطلب الرابع : مكاتب الصبيان

وورد أول ذكر لها في خلافة الراشدين، إذ استشار عبد الرحمن بن عوف أهل المدينة في اختيار خليفة حتى على دار الأطفال في المكاتب،[6] وانتشرت المكاتب في شتى أرجاء الدولة، وهي تمثل مرحلة إعداد لمن أراد أن يتمَّ تعليمه.

وكان يُدرَّس فيها القرآن والشعر، ويتعلم الصبيان القراءة، والكتابة، والحديث، فمن ذلك أن الإمام البخاري حفظ الحديث وهو صغير في المكتب.[7]

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٠٣/٩.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٥٧/١٠.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢٩/١٠.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٨٨/١٠.

[5]. انظر ملكة أبيض : بحث موسسات التربية العربية في الشام، ١٥٥/١.

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٥١/٧.

[7]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٨/١١.

الفصل الثاني

الآثار التربوية من القرن الرابع حتى أواخر القرن الثامن

ويضم ستة مباحث، وهي :

المبحث الأول : المؤسسات التعليميّة، وفيه اثنا عشر مطلباً، وهي :

المطلب الأول : المدرسة.

المطلب الثاني : المدارس النظاميّة.

المطلب الثالث : دور الحديث.

المطلب الرابع : دور القرآن.

المطلب الخامس : التُرب.

المطلب السادس : الربط.

المطلب السابع : المشاهد

المطلب الثامن : الزوايا.

المطلب التاسع : الخوانق.

المطلب العاشر : المكتبات.

المطلب الحادي عشر : مؤسسات تعليم الصبيان، الأسرة، مكاتب الصبيان، مكاتب الأيتام.

المطلب الثاني عشر : الجوامع والمساجد.

المبحث الثاني : مواد التعليم.

المبحث الثالث :طرائق التعليم.

المبحث الرابع : الدور التعليمي للمرأة.

المبحث الخامس : العوامل المؤثرة في العمليّة التعليميّة.

المبحث السادس : التتبع التأريخيّ للألقاب العلميّة.

الفصل الثاني :

الآثار التربوية من القرن الرابع حتى أواخر القرن الثامن

تمهيد

سبقت الإشارة إلى مجموعة من السمات المشتركة للقرون التي تلت القرون الثلاثة الأولى من الهجرة، والذي يعنينا في هذا البحث هو التمايز التربوي التعليمي المتمثل بشكل رئيس في المؤسسات التربوية التعليمية.

فقد ازدادت المؤسسات التربوية التعليمية كمًّا ونوعا زيادة كبيرة، أما الزيادة الكميّة فقد تمثلت بانتشار هذه المؤسسات في شتى البقاع الإسلامية، وبأعداد كبيرة، وأخذ الخلفاء والأمراء والأغنياء والعلماء يتسابقون في إنشائها ورعايتها، وساهمت المرأة بدور فاعل في حركة البناء والوقف، مع ثبات المؤسسات التي ظهرت في القرون الأولى، والتي شملت الجوامع، والمساجد، وبيوت العلماء، وقصور الخلفاء، ومكاتب الصبيان.

وأما التمايز النوعي فقد تمثل بظهور أنماط جديدة من المؤسسات التربوية التعليمية، وكانت المدرسة من أبرزها، ومنها الربط، والخوانق، والزوايا، والتُّرب.

وقد شرعت هذه المؤسسات في الظهور في أواخر القرن الرابع، ونمت وتطورت في القرن الخامس، وبلغت أشدَّها وتكامل بناؤها، واتسعت رقعتها، وزاد عددها زيادة كبيرة في القرنين السادس والسابع.

وقد أدت هذه المؤسسات دورًا مهمًّا في تخريج العلماء، الذين كانت تنتظرهم وظائف القضاء والتدريس والخطابة وغيرها.

وساهمت بفتح أبواب التعليم والدراسة على مصراعيها، أمام جميع طبقات المجتمع، وخصوصا الفقراء والمتصوفة منهم، فاختصت بهم مؤسسات الربط والزوايا والمشاهد والترب والخوانق.

وسنتتبع في هذا الفصل المؤسسات التعليمية، وما يتعلق بها من مدرسين وطلبة ونفقات ونظم تعليمية، إضافة إلى العوامل الفاعلة في العملية التربوية التعليمية، سواءٌ بالتنشيط أم الإعاقة.

المبحث الأول :

المؤسسات التعليمية في هذه القرون

المطلب الأول :

المدرسة

عند تتبع الوظائف التي كانت تؤديها المدرسة في هذه المرحلة، نجد أنها في القرون الثلاثة الأولى قد أدت دور المسجد، وستتضح هذه الحقيقة عند حديثنا عن وظائف المدرسة -إن شاء الله -.

ونعود للتتبع التأريخي لظهور أول مدرسة، فقد أورد ابن كثير في أحداث سنة ثلاثمائة وثلاث وثمانين خبرًا مفاده أن الوزير البويهي سابور بن إزدشير (ت : ٤١٦) ابتاع دارًا بالكرخ، وجدَّد عمارتَها، ونقل إليها كتبًا كثيرة، ووقفها على الفقهاء، وسمّاها دار العلم، وعلّق ابن كثير على هذا الخبر بقوله : "وأظنُّ أنَّ هذه أولُ مدرسة وقفت على الفقهاء، وكانت قبل النظامية بمدة طويلة".[١]

فابن كثير يغلب على ظنه أن هذه هي أول مدرسة للفقهاء، خاصة بهم، دون الجزم بذلك، ولعل ذلك في معرض ردِّه على الرأي المشهور بأن أول مدرسة هي النظامية، بدليل مقارنته بين ظهور هذه المدرسة وبين ظهور النظامية.

فالمقارنة عند ابن كثير بين هاتين المدرستين، ولكن مدرسة الوزير سابور لم تُعرف باسم مدرسة، بل عرفت باسم دار العلم، و لم تكن قائمة عند بناء النظامية، بل أحرقت بعد سبعين سنة، عند قدوم الملك طغرل بك السلجوقي (ت : ٤٥٥) سنة أربعمائة وخمسين، حيث قام بحرقها.[٢]

وورد ذكر المدرسة مرة أخرى، ولكن تحت اسم دار العلم أيضًا، وذلك عندما بنى الحاكم بأمر الله الفاطمي (ت : ٤١١) دار العلم، وأجلس فيها الفقهاء، ولكنه هدمها بعد ثلاث سنوات، وقتل خلقا كثيرًا من الفقهاء.[٣]

ونخلص من هذا التتبع إلى القول بأن ابن كثير قد أورد اسم مدرستين عرفتا بدار العلم، وقد بُنِيَتا قبل النظامية في المشرق الإسلامي، ولكن لم تكونا قائمتين عند بنائها.

---

[١]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٣٣/١١. وانظر ترجمته في البداية، ٢١/١٢.

[٢]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢١/١٢. وانظر ترجمة طغرل بك في السير، ١٠٧/١٨.

[٣]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٦٥/١١. وانظر ترجمة الحاكم بأمر الله الفاطمي، ١٠/١٢.

ويرى المقريزي (ت : ٩٤٥) أن هناك العديد من المدارس سبقت المدرسة النظامية، حيث يقول: "المدارس مما حدث في الإسلام، ولم تكن تعرف زمن الصحابة، ولا التابعين، وإنما حدثت بعد الأربعمائة من سني الهجرة،[١] وأول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة في الإسلام أهل نيسابور، فبنيت لهم المدرسة البيهقية".

بينما يرى الدكتور حسام الدين السامرائي أن هناك مدارس أقدم من التي ذكرها المقريزي، فيقول : "والحق أن أول مدرسة برز ذكرها في مصادرنا المعتمدة يعود تاريخها إلى أواخر القرن الثاني، وأوائل القرن الثالث الهجري، وهي مدرسة أبي حفص الفقيه البخاري".[٢]

وقام الدكتور ناجي معروف بالتوسع في بحثه لهذه المسألة، وخلص إلى القول بأنه "يمكننا أن نذكر على الأقل ثلاثا وثلاثين مدرسة أحادية المذهب بنيت في المشرق قبل نظامية بغداد سنة تسع وخمسين وأربعمائة".[٣]

وقد قام بإحصائها، وبيان منشئيها، وأماكن وجودها، ومن أشهرها مدرسة حسّان بن محمد الأموي (ت : ٣٤٩) بنيسابور، ومدرسة ابن البستي بنيسابور أيضًا.[٤]

والملاحظ أن جميع هذه المدارس أنشئت في المشرق الإسلامي، وقد ازدادت المدارس وازدهرت في هذه المنطقة من العالم الإسلامي أثناء حكم السلاجقة، "ويوصف العصر السلجوقي رغم كل سلبياته بأنه عصر انتشار المدارس وشيوعها في العراق والمشرق بخاصة، وفي العالم الإسلامي بعامة".[٥]

وأما في مصر فأول مدرسة أنشئت هي الناصرية، يقول المقريزي : "وأول مدرسة أحدثت بديار مصر المدرسة الناصرية، بجوار الجامع العتيق بمصر".[٦]

وازدادت المدارس في العصر الأيوبي، وخصوصا عندما تسلم صلاح الدين (ت : ٥٨٩) مصر، وعمل على نصرة المذهب السُّنِّيّ هناك، بعد سقوط الدولة الفاطمية الشيعية.[٧]

---

١. المقريزي : الخطط، ٣١٤/٣. المدرسة البيهقية : أسسها علي بن الحسين البيهقي (ت : ٤١٤)، وكان شافعيا، معروف ناجي : مدارس قبل النظامية، ص ٤٠.

٢. السامري، حسام الدين : بحث المدرسة مع التركيز على النظاميات، التربية العربية الإسلامية، ٣٢٤/٢. ومدرسة أبي حفص : أسسها أبو حفص البخاري (ت : ٢٦٠) في بخارى، واستمرت هذه المدرسة قرونا عديدة، انظر ترجمة أبي حفص في السير، ١٤٨/١٨.

٣. معروف، ناجي : مدارس قبل النظامية، ص ٢٥.

٤. انظر معروف، ناجي : علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي، وقد وقفها شيخ خراسان حسان بن محمد (ت : ٤١٤)، البداية والنهاية، ٢٥٢/١١. وابن البستي هو أحمد بن محمد (ت : ٤٢٩). انظر ترجمته في طبقات الشافعية، للسبكي، ١٠/٤.

٥. السامرائي، حسام الدين : المدرسة مع التركيز على النظامية، ٣٢٤/٢.

٦. المقريزي : الخطط، ٣١٥/٣. والمدرسة الناصرية : وقفها صلاح الدين بمصر سنة ٥١٦ على الشافعية، (الخطط، ٣١٥/٣) .

٧. انظر محمد أمين : بحث الأوقاف والتعليم في مصر، التربية العربية الإسلامية. ٨٠٨/٣٠-٨٠٩. وانظر ترجمة صلاح الدين في البداية، ٥/١٣.

وأما الشام فيذكر الدكتور عبد الجليل عبد المهدي أنّ أول مدرسة أنشئت هناك هي المدرسة الصادرية المنسوبة إلى صادر بن عبد الله سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة.[1]

وتكاثرت المدارس في عهد نور الدين زنكي بحيث انتشرت في مختلف أعمال الشام،[2] وقد بلغ من شدة الاعتناء بالبناء أن تُحوَّل الدور والبيوت بعد وفاة أصحابها إلى مدارس، بل أشد من ذلك، أن لا تترك بقعة يمكن الاستفادة منها إلا وتقام عليها مدرسة، فقد قام الناصر شمس الدين الصبّاب (ت : ٦٤٩) بتحويل خربة شنيعةٍ لا يردها أحدٌ إلى مدرسة، تضم دار قرآن وحديث للحنابلة، عرفت بالمدرسة الصبّابية.[3]

وحتى في الأوقات العصيبة لم يتوقف بناء المدارس، فمع وقوف التتار على مشارف بغداد بنيت مدرسة بسوق العجم في بغداد.[4]

وسنتحدث في المباحث التالية عما يتعلق بالمدرسة من نظم تعليمية ومرافق مدرسية وتراتيب إدارية :

أولا – العوامل التي ساهمت في تنشيط حركة البناء المدرسي :

لم تكن لتزدهر حركة إنشاء المدارس دون تآزر عدة عوامل، أدت بمجموعها إلى هذا الكم الهائل من المدارس، وفيما يلي نورد أهم هذه العوامل :

أ – اهتمام الخلفاء والأمراء والقادة بحركة التعليم : لقد شهدت الساحة الإسلامية قبل انتشار المدارس تغلغل الخطر الشيعي بين المسلمين، وانتشاره في بلادهم، فقد فتحت عليهم أبواب الملك مع مطلع القرن الرابع الهجري، حيث حكمت دويلاتهم المختلفة كثيرًا من بلاد المسلمين، فالفاطميون في مصر والشام، والحمدانيون في الموصل والجزيرة وديار بكر، والبويهيون في بغداد وفارس، والقرامطة في البحرين واليمامة، وكان العوام من أهل التشيع والرفض يجدون في هذه الدويلات سندًا لهم ضد أهل السنة، فكانت تقع العديد من المعارك فيما بينهم، تؤدي إلى وقوع كثير من القتل، وحرق العديد من المساجد، ووقفت الدول الشيعية خلف عوامها، وكفلت لهم سبل نشر معتقداتهم، وإقامة بدعهم،

---

[1]. عبد المهدي، عبد الجليل : المؤسسات التعليمية في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، التربية العربية الإسلامية، ٥٢٣/٢. والمدرسة الصادرية وقفت بدمشق على الأحناف، الدارس، ٤١٣/١.

[2]. انظر المصدر السابق، ٥٢٤/٢-٥٢٥. وانظر ترجمة نور الدين في البداية، ٢٩٧/١٢.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣٨/١٤. *

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣٩/١٣.

وسبّ الصحابة، وقد حدث ذات مرة أن كتبوا على المساجد لعن أبي بكر وعمر وعثمان – رضي الله عنهم –، وبلغ ذلك معز الدولة بن بويه (ت : ٣٥٦) فلم ينكره أو يغيره.[١]

وفي الوقت نفسه سارعوا إلى إقامة العديد من المؤسسات التي تخدم تشيعهم، وتصدر فكرهم، مثل دور العلم، والجوامع، التي من أشهرها الجامع الأزهر، وجامع الحاكم في مصر.[٢]

إن هذا الواقع السياسي، والامتداد العلمي للحركة الشيعية، شغل قادة أهل السنة في البحث عن وسائل وأساليب جديدة لمقاومة المدّ الشيعي في ميدان العلم وساحة الحرب، وباستخدام السيف والقلم معا.

وتصدى السلاجقة لذلك بداية، فقد تولى السلطان طغرل بك قيادة المعركة العسكرية، فهزم الدولة البويهية، وقضى على فتنة البساسيري بعد قيامه بالفساد في الأرض، بنشر بدع الروافض، وقام بطرد الخليفة، فأعاد السلطان طغرل بك الخليفة إلى بغداد، وقام بقتل البساسيري.[٣]

وفي ميدان العلم أخذ القادة المسلمون في بناء المؤسسات، وعلى وجه الخصوص المدارس، "ووقع عبء هذه المهمة على دولة السلاجقة الفتية، التي عملت على تقوية المذاهب السنّيّة، وكان من وسائلها التعليم لمواجهة الآراء الشيعية"،[٤] فشرع نظام الملك (ت : ٤٨٥) سنة سبع وخمسين وأربعمائة ببناء النظامية في بغداد وغيرها، واستمر السلطان السلجوقي ملك شاه (ت : ٤٨٥) ببناء المدارس، فأنشأ مدرسة أبي حنيفة،[٥] وبنى الوزير السلجوقي أبو الغنائم (ت : ٤٥٨) المدرسة التاجية مقدار ودرس فيها وقتئذ أبو بكر الشاشي (ت : ٤٨٨)، [٦] ووقف استكن بن آنشمند إتابك دمشق، الذي يُقال له أمين الدولة (ت : ٥٤١) المدرسة الأمينية على الشافعية بدمشق وبُصرى،[٧] وبنى الوزير أبو سعد المستوفي مدرسة ببغداد، وأخرى بمرو على الحنفية، [٨] وبنى محمد بن منصور القسري (ت : ٤٩٤) مدرستين في نيسابور ومرو.[٩]

---

١. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٥٦/١١. وانظر ترجمة معز الدولة بن بويه في البداية، ٢٧٩/١١.

٢. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٦٥/١١.

٣. انظر بالتفصيل ابن كثير : البداية والنهاية، ٨٢/١٢ وما بعدها.

٤. أمين محمد محمد : الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، ص ٢٣٤.

٥. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٥١/١٢. * وانظر ترجمة نظام الملك في البداية، ١٤٩/١٢.

٦. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٥٣/١٢. * وانظر أبا بكر الشاشي في البداية، ١٦١/١٢.

٧. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٦٩/١٢.

٨. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٧٢/١٢. *

٩. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٧٢/١٢. *

وامتدت حركة البناء نحو غزنة والهند، إذ كان السلطان إبراهيم بن محمود بن سبكتكين (ت : ٤٩٣) لا يبني دارًا إلا بنى قبلها مسجدًا أو مدرسة أو رباطًا.[١]

وكانت الدولة الزنكية أثرًا من آثار دولة السلاجقة، فأول من تولى منهم آقا سنقور الأتابك (ت : ٤٨٧)، الذي عُيِّن أميرًا على حلب، وديار بكر، والجزيرة، من قِبَل ملك شاه بإشارة من نظام الملك، وتولى الحكم بعده ولده عماد الدين زنكي (ت : ٥٤١)،[٢] وبعد وفاته نشط ولده سيف الدولة غازي بالموصل، ونور الدين محمد بحلب، فأما غازي (ت : ٥٤٤) فقد بنى مدرسة كبيرة بالموصل ورباطا للصوفية،[٣] وأما نور الدين فقد فاق أخاه غازي إذ قَدِم دمشق سنة تسع وأربعين وخمسمائة، وبنى كثيرًا من المدارس والمساجد والربط، ووقف وقفا على من يُعلّم الأيتام والخط والقراءة، وهو أول من بنى دار حديث، وبنى مدرسة للحنفية بدمشق، وأخرى للشافعية، وشرع في بناء مدرستين، إحداهما بدمشق، والأخرى على حافة دجلة، ولكنَّ المنيَّة عاجلته.[٤]

وبعد وفاة نور الدين ظهرت الدولة الأيوبية على يد صلاح الدين يوسف، بعدما حافظ مع عمِّه أسد الدين شيركوه على الإسكندرية، واستعادها من الفرنج سنة اثنتين وستين وخمسمائة، وكان أسد الدين قائدًا لجيش نور الدين، وأما صلاح الدين، فقد ترقى في مصر حتى نال الوزارة.[٥]

وبدأ صلاح الدين بتهيئة الناس لإحداث التغير المذهبي، بعدما حكمهم الفاطميون قرابة ثلاثمائة سنة، فعزل قضاة مصر الشيعة، وولى القضاء للشافعية، واستناب في كافة المعاملات والوظائف قضاة شافعية، وبنى لهم مدرسة، وأخرى للمالكية، وشارك ابن أخيه تقي الدين عمر، فابتنى مدرسة وأوقف عليها أوقافا كثيرة.[٦]

ولما تم له تحرير بيت المقدس من الخطر الصليبي سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة أقام مدرستين للشافعية، هما الصلاحية والناصرية، وأقام للصوفية رباطًا، وأجرى على الفقهاء والفقراء الرواتب.[٧]

يقول الدكتور عبد الجليل : "وأما الاهتمام الخاص الذي لقيته المدرسة في بلاد الشام في العهود الزنكية والأتابكية والأيوبية والمملوكية، فإنه يعود إلى العمل على نشر المذهب السني، بمذاهبه الفقهية،

---

١. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢/١٦٨. *

٢. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢/١٥٧. * وانظر ترجمة عماد الدين في البداية، ١٢/٢٨٧.

٣. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢/٢٤٤. *

٤. انظر ترجمة نور الدين في البداية والنهاية، ١٢/٢٩٧ وما بعدها.

٥. انظر ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢/٢٤٧-٢٧٥. وانظر محمد أمين :الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، ص ٢٢٤، وانظر ترجمة أسد الدين شيركوه في البداية، ١٢/٢٧٨.

٦. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢/٣٤٨.

٧. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢/٢٣٨.

ومقاومة المذهب الشيعي الإسماعيلي، بعد القضاء على الدولة الفاطمية"،[1] وأما الصالح أيوب فقد بنى كثيرًا من المدارس في مصر.[2]

ثم جاءت بعد ذلك دولة المماليك وتصدت للخطر التتري، وكانت أحوج من غيرها إلى المدارس ليتم لها القبول في نفوس العلماء أولا، وبعد ذلك يسهل تقبل العامة لها.

وبرز من بينهم الظاهر بيبرس بعدما استعاد كثيرًا من السواحل الشاميّة من الفرنج، وله بدمشق المدرسة الظاهرية، حيث وقفها على الشافعية، وكذلك فعل أغلب سلاطين المماليك.[3]

وهكذا تحمَّل الأمراء والقادة مسئولياتهم في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، والوقوف في وجه الروافض والغلاة، الذين سددوا سهامهم إلى المذاهب السنيَّة.

يقول الأستاذ ناجي معروف : "إنَّ الوضع السياسي المضطرب الذي خلفه البويهيون في العراق وخراسان، نتيجة سعيهم للقضاء على الخلافة العباسية دفع السلاجقة وعددًا من العلماء إلى تثبيت قواعد الإسلام، بإنشاء مدارس في خراسان وما وراء النهر، ثم في العراق، والوقوف أمام خطر الباطنية والإسماعيلية.[4]

ولم تكن الأخطار الثلاثة -الشيعي والصليبي والتتري- هي وحدها التي دفعت الأمراء والسلاطين لتبنّي حركة البناء وتشجيعها، بل حبُّ العلم لذاته، والرغبة فيه وبأهله، والفوز برضا الله ودخول الجنة، وكون الأمراء والسلاطين على قدر من العلم، "وتمثلت تلك الغايات في نشر العلم، وإحياء الشرع، ودوام ظهور الحق، وهمود الباطل، ودوام خير الأمة بكثرة علمائها".[5]

فهذه العوامل جميعا أثمرت هذا القدر من الرعاية والعناية لإنشاء المؤسسات عموما، والمدارس خصوصا، فكان نظام الملك يشتغل بالقرآن والقراءات، وتفقه على مذهب الإمام الشافعي، وكان محافظًا على الصلوات، وعلى صيام الاثنين والخميس من كل أسبوع، وكان يقول : (إنـي لأعلم أنّي لست أهلا للرواية، ولكني أحب أن أربط في قطار نقلة حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم-)[6]،

---

[1]. عبد الجليل، عبد المهدي : بحث المؤسسات التعليمية والثقافية في بلاد الشام، ٢٥٢/٢.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٦٨/١٣.

[3]. انظر ترجمة الظاهر في البداية، ٢٩٠/١٣. وانظر النعيمي : الدارس، ٢٦٣/١.

[4]. معروف، ناجي : علماء النظاميات، ص ١٤.

[5]. عبدالجليل، عبدالمهدي : بحث المؤسسات التعليمية والثقافية في بلاد الشام، ٥٢٥/٢.

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٥٠/١٢.

وأمّا نور الدين زنكي فقد تعلم القرآن والفروسية والرمي، وكان حنفي المذهب، محبًّا للعلماء، ومطالعًا للكتب الدينية، متّبعا للآثار النبوية، محافظًا على الصلوات في الجماعات.[1]

وكان صلاح الدين محبًّا للعلم وسماع القرآن والحديث، وكان يواظب على سماع الحديث، ولديه فضائل في اللغة والأدب وصنف له قطب الدين النيسابوري كتاباً في العقيدة، فكان يحفظها ومن عقل من أبنائه،[2] وهكذا هو حال أغلب قادة المسلمين، صفت قلوبهم لله، فقلّت ساعاتهم وكثرت آثارهم، وبارك الله لهم في أعمارهم، وطابت مراميهم فحسنت مساعيهم، وجاهدوا بالسِّنان والبَيان، فخلّصوا البلاد وحَمَوا العِباد والعُبّاد، وأقاموا للعلم مؤسسات، وأغدقوا على أهله العطايا والهبات.

ونشير إلى سبب آخر خاص بالمماليك، وهو الطريقة التي وصلوا بها إلى الحكم، وكان من نتيجتها أن لم تتقبلهم نفوس الناس، مما دفعهم إلى تقريب العلماء، وإقامة المؤسسات، ورعاية الفقراء، والمتصوفة، كل ذلك لإزالة ما يعترض شرعيّة حكمهم من أقاويل، تقول الدكتورة حياة الحجي : "أمّا عن العوامل السياسية التي أثرت على نظام الوقف ... فترجع إلى الطريقة التي وصل بها المماليك إلى حكم مصر والشام".[3]

ب – طبيعة الحوافز والدوافع التي غرسها الله في نفوس عباده، والأهداف التي يسعى المسلم لتحقيقها في الدنيا والآخرة، سواء البركة في المال والعمر، أم نيل رضا الله، أم الفوز بالجنة، والنجاة من النار، أم التزام الأمانة وتَحمُّل المسئولية، بالإضافة لمكانة العلم والعلماء في الإسلام، ورغبة كثيرين في استمرار أجرهم بعد وفاتهم عن طريق الصدقة الجارية، ومن هذه الحوافز قوله تعالى **﴿إن المصدقين والمصدقات، وأقرضوا الله قرضا حَسَنًا يضاعف لهم ولهم أجر كريم﴾**.[4]

وقول النبي (ﷺ) : "إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث، إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له"،[5] وقول النبي (ﷺ) : "ما تصدق أحدٌ بصدقة من طَيِّبٍ، ولا يقبل الله إلا الطيب، إلا أخذها الرحمن بيمينه، وإن كانت تمرة، فتربوا في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل، كما يربي أحدهم فَلُوَّه أو فصيله".[6]

---

1. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢/٢٩٧-٢٩٨.
2. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣/٦.
3. الحجي، حياة ناصر : السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده، ص ٧٥..
4. سورة الحديد، آية ١٨.
5. رواه مسلم : الصحيح بشرح النووي، كتاب الوصية، باب وصول ثواب الصدقة، حديث (١٦٣١)، ١١/٨٥.
6. المصدر السابق، كتاب الصدقات، باب كل نوع من المعروف صدقة، حديث (١٠١٤)، ٧/٩٨. والفلو : المهر. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣/١٦١.

كل ذلك جعل الجميع يسابق ويسارع إلى تحويل بيته أو داره إلى مؤسسة للعلم، أو وقف مدرسة، حتى وجدنا الخلفاء والسلاطين والأمراء والقضاة والتجار والأغنياء وحتى النساء، يتسابقون إلى بناء المدارس.

وقد عرضنا آنفا لأمثلة على إقامة السلاطين للمدارس، وأما الوزراء فيقف في مقدمتهم نظام الملك صاحب النظاميات، التي سنتحدث عنها في موضعها، وأما القضاة، فقد بنى القاضي الفاضل (ت : ٥٩٦) وزير صلاح الدين مدرسة في مصر وقفها على الشافعية والمالكية[١]، ووقف القاضي المبارك بن علي المخرمي (ت : ٥١٣) مدرسة بباب الأزج[٢]. ووقف قاضي قضاة دمشق كمال الدين الشهرزوري (ت : ٥٧٢) مدرستين للشافعية بالموصل ونصيبين[٣]. وأما الأمراء، فقد وقف الأمير مجاهد الدين الكردي (ت : ٥٥٥) بدمشق على الشافعية المجاهدتين،[٤] ووقف الأمير عز الدين آيبك (ت : ٥٤٦) بدمشق على الأحناف العزيتين البرانية والجوانية،[٥] وأما التجار، فقد ابتنى التاجر ابن رواحة (ت : ٦٢٣) المدرسة الرواحية، وقفها على الشافعية وبنى لهم أخرى بحلب.[٦]

ومن العلماء الذي شيدوا المدارس عبد القاهر محمد السهروردي (ت : ٥٦٣) حيث كان مدرسا في النظامية، فابتنى لنفسه مدرسة ورباطا،[٧] ومثله جمال الدين الدولعي (ت : ٦٣٥) حيث كان مدرسا وخطيبا في الغزالية، فوقف مدرسة بجيرون.[٨]

وأما النساء فكثيرات هنَّ اللواتي وقفن المدارس، فمن ذلك الست خاتون عصمت بنت معين الدين نائب دمشق (ت : ٥٨١) حيث وقفت كثيًرا من المدارس، منها الخاتونيّة الجوانية،[٩] حيث وقفتها على الأحناف، ووقفت ست الشام بنت أيوب (ت : ٦١٦) الشاميتين البرانية والجوانية،[١٠]

---

[١]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٨/١٣. *

[٢]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٩٨/١٢. *

[٣]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣١٧/١٢. * انظر بدران : منادمة الأطلال، ص ١٤٦.

[٤]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٦١/١٢. *

[٥]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٨٦/١٣. *

[٦]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢٥/١٣. *

[٧]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٧٣/١٢.

[٨]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٦١/١٣. * والمدرسة الغزالية : تقع داخل الجامع الأموي، وسميت بذلك لتدريس الغزالي بها، ويطلق عليها أيضًا الزاوية الغزالية، (النعيمي : الدارس، ٣١٣/١).

[٩]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٣٩/١٢. *

[١٠]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٩٢/١٣. * والشاميتين : أنشأتهما ست الشام أخت الناصر صلاح الدين (ت : ٦١٦) وكانت الجوانية دارها فحولتها إلى مدرسة، (الدارس، ٢٠٨/١).

ونختم بالست ربيعة خاتون بنت أيوب (ت : ٥٨١) فقد وقفت المدرسة الصاحبية بسفح قاسيون على الحنابلة.[١]

وهذا غيض من فيض، فلو تتبعت كل من وقف أو كلَّ ما وُقِفَ، لاستغرق ذلك صفحات عديدة، ولكني ذكرت ما يدل على اشتراك الجميع في البناء والوقف.

جـ – التنافس المذهبي في بناء المدارس : مع ظهور حركة بناء المدارس أخذ التعصب المذهبي شكلا جديدا، إذ تسابق أصحاب كل مذهب لإقامة المدارس التي تقوم على خدمة المذهب، وتدريس فقهه، فكانت كل مدرسة في الغالب لمذهب بعينه، بكل ما تضمه المدرسة من مدرّسين أو طلاب أو مناهج، وكان التنافس شديدا، بين الشافعية والحنفية و "يبدو أن التنافس المذهبي الذي كانت تعيشه بغداد حاضرة الخلافة.. وقد امتد إلى بلاد ما وراء النهر، حيث اشتد التنافس بين أتباع المذهب الشافعي وأتباع مذهب أبي حنيفة"،[٢] وأولى هذه المدارس المذهبية النظامية، حيث كانت وقفا خاصا على الشافعية، كما سنبين ذلك، ومن ذلك أيضا أن السلطان صلاح الدين كان شافعيا، فأكثر من بناء المدارس للشافعية، دون أن يستثني غيرهم، وكان نور الدين حنفيا، فبنى كثيرا من المدارس للحنفية، وكان أبو سعد المستوفي أيضا متعصبا لأصحاب أبي حنيفة فبنى لهم مدرسة في بغداد، وأخرى في مرو[٣]، وكان السلطان علاء الدين بن خوارزم شاه (ت : ٥٩٦) فقيها على مذهب أبي حنيفة، فبنى للحنفية مدرسة عظيمة [٤]، وتفقه المبارك بن على المخرمي (ت : ٥١٣) على مذهب الإمام أحمد فبنى للحنابلة مدرسة بباب الأزج[٥]، ومع انتشار هذه المدارس المذهبية وقفت مدارس كبرى تضم المذاهب الأربعة، كالمستنصرية.

وقد يقف أحدهم مدرسته لأكثر من مذهب فقد بنى إقبال الخادم (ت : ٦٠٣) أحد قادة صلاح الدين مدرستين، إحداهما للشافعية، والأخرى للحنفية، ومثلها المدرسة الظاهرية [٦]،ومن هنا فقد كان للمذهب الشافعي الحظ الأوفر من المدارس لاشتهار المذهب وانتشاره في مصر والشام، تلاه بعد ذلك المذهب الحنفي كما سنبين بعون الله.

---

١. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٣٩/١٢. *

٢. السامرائي، حسام الدين : بحث المدرسة مع التركيز على النظاميّة، ٣٣٧/٢.

٣. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٧٢/١٢.

٤. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٥/١٣. *

٥ ابن كثير : البداية والنهاية، ١٩٨/١٢.

٦ ابن كثير : البداية والنهاية، ٥١/١٣. * والمدرسة الظاهرية : وقفها الظاهر بيبرس في القاهرة على الحنفية والشافعية، وتم الانتهاء منها سنة ٦٦٢، (المقريزي، الخطط : ٣٤٠/٣).

وكانت هناك المذهبية العقدية، فقد كان النزاع محتدما بين الأشاعرة والحنابلة، فمن ذلك أن جماعة من أهل نيسابور لعنوا أبا الحسن الأشعري (ت : ٣٢٤)، فشكا الأشاعرة ذلك إلى السلطان.[١]

ويذكر المقريزي أن صلاح الدين حمل الكافّة على عقيدة الشيخ أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، وشرط ذلك في أوقافه التي بديار مصر، كالمدرسة الناصرية، واستمر الحال على عقيدة الأشعري بديار مصر وبلاد الشام، وأرض الحجاز، وبلاد اليمن، والمغرب، لنقل ابن تومرت (ت : ٥٢٤) العقيدة الأشعرية إليها.[٢]

وكذلك فعل نظام الملك في مدارسه، وقد أشار لذلك الدكتور حسام الدين السامرائي إذ يقول : "بل إنه قام بإنشاء المدارس النظامية في أمَّهات مدن الشرق الإسلامية، وذلك لنشر المذهب الشافعي بشكل عام، والدفاع عن العقيدة الأشعرية، حتى أنه كتب اسم أبي الحسن الأشعري على باب نظامية بغداد".[٣]

وتلقت الحركة الصوفية كذلك الدعم الكثير من السلاطين والأمراء، "فقد شايع سلاطين المماليك وأمراؤهم حركة التصوف بمصر، فأنشئوا الكثير من البيوت التي خصصت للصوفية، وأطلق عليها مسميات عديدة مثل خوانق ورُبُطَ و زوايا".[٤] بالإضافة إلى التنازع بين أهل السنة والشيعة الذي سبق أن أشرت إليه.

د- **وجود العلماء المبرزين والطلبة الحريصين** : لم تكن المدرسة لتقوم بذاتها فقط مع أهمية البناء في العملية التعليمية، فلا بد من وجود عناصر أخرى، تتمثل بالعلماء الذين يدرِّسون، والطلبة الحريصين على تلقي العلوم الشرعية بجد واجتهاد، وبذل الوسع في سبيل تحصيل ذلك، والمنهاج المتكامل والشامل الذي يبعث حماس المدرس وتفاعله، ونشاط الطالب وهمَّته، أما المدرسون فقد كانوا من أبرز علماء عصرهم، فقد اشتهر من العلماء الذي اشتهروا بالتدريس الشيرازي، والجويني (ت : ٤٧٨)، والكيا الهراسي الطبري (ت : ٥٠٤)، وأبو بكر الشاشي، وجميعهم قد درَّسَ في النظامية، وابن الجوزي (ت : ٥٩٧)، وابن الصلاح، والنووي (ت : ٦٧٦) وابن خلكان، وابن تيمية، والذهبي، وابن القيم (ت : ٧٥١) وابن كثير : فجميع هؤلاء وغيرهم قد اشتغل بالتدريس.[٥]

[١] ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي : المنتظم في تاريخ الأمم، ٣٤٠/١٥. وانظر ترجمة أبي الحسن الأشعري في البداية والنهاية، ١٩٩/١١.

[٢] المقريزي : الخطط، ٢٧٩/٣. وانظر ترجمة ابن تومرت في السير : ٤٩٩/١٥.

[٣] السامرائي، حسام الدين : بحث المدرسة مع التركيز على النظاميات، ٣٤٤/٢.

[٤] محمد أمين : الحياة الاجتماعية والأوقاف، ص ٢٠٦.

[٥] انظر تراجمهم في البداية والنهاية، الجويني، ١٣٦/١٢، الكيا الهراسي، ١٨٤/١٢، وابن القيم، ٢٤٦/١٤.

وأما الطلبة فكانوا على درجة من الحفظ والعلم والحرص، وأما المناهج فكانت تعتمد على أشرف العلوم وأرفعها وأعظمها أجرا متمثلة بالعلوم الشرعية، من قرآن وحديث وفقه ونحو ولغة وبعض العلوم التطبيقية كالطب والحساب.[1]

هـ – تثبيت العالِم في بلد معين ببناء مدرسة له : سعى كثيرٌ من السلاطين والأمراء لجمع أهل العلم حولهم، فكان بعضهم يقوم بإنشاء مدرسة للعالِم لإبقائه في هذه البلدة، فقد أكرم السلطان غياث الغوري حاكم غزنة (ت : ٥٩٩) فخر الدين الرازي (ت : ٦٠٦) فبنى له مدرسة هراة عندما قدم عليه سنة خمسمائة وخمس وتسعين.

وكان معظما عند ملوك خوارزم فبنوا له مدارس كثيرة في بلدان شتى،[2] ويلحق بهذه العوامل الخمسة توفر المال وكثرته وحب الناس للعمل وانتشاره فيهم، وبساطة البناء المدرسي وقلة تكلفته، مما أثمر عددا كبيرا من المدارس، فغطت مساحات واسعة من الأرض.[3]

و– التنافس بين الأمراء وبين أصحاب الأموال : فكان كلما بنى أحدهم مدرسة سارع الآخر لبناء أخرى تفوقها، وكان السلاطين والأمراء يتباهون بعمائرهم وما أنفقوه عليها من الأوقاف، لذلك كانوا يفتتحون وقفهم بمراسم كبيرة، حتى أصبح من سمات الأمراء والسلاطين والكبراء بناءُ المدارس،[4] يقول الدكتور حسام السامرائي : "وينبغي ألا نهمل أثر المنافسة بين حكام الأطراف من أجل الشموخ أمام الآخرين، ولا شك في أن تجميع العلماء واستقطاب طلبة العلم وشيوخ المناظرات العلميّة، ووفرة الإنتاج الأدبي وهو ما تحققه المدارس من الأمور التي تتضمن تطمين طموحات أولئك الحكام ومنافساتهم".[5]

---

[1]. انظر حسن عبد العال : التربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ص ١٤٠-١٤١.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٢/١٣. انظر ترجمة غياث الغوري في البداية والنهاية، ٣٨/١٣، والرازي، ٦٠/١٣.

[3]. انظر عبد الجليل عبد المهدي : المؤسسات التعليمية والثقافية في بلاد الشام، التربية العربية الإسلامية، ٥٢٤/٢-٥٢٦.

[4]. محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، ص ٩٤-٩٥ بتصرف.

[5] السامرائي، حسام الدين : المدرسة مع التركيز على النظاميات، ٣٦٢/٢.

ثانيا – كتاب وقف المدارس :

كانت المدرسة تستند بجميع نظمها وتراتيبها ونفقاتها إلى الجهة التي أنشأتها، وحتى تحافظ هذه الجهات على الهدف من إنشائها لهذه المدارس، والنفقات المعدة لها والمواد التي تدرس فيها، كان يسبق عملية التدريس كتابة وثيقة تبين كل ما يتعلق بالمدرسة، وتسمى هذه الوثيقة "كتاب الوقف" أو "الوقفية".

و لم أعثر على نص لكتاب وقف في البداية والنهاية، ولكن قام بعض الباحثين بنشر العديد منها، فمن ذلك كتاب وقف الأمير تنكز لمدرسته في بيت المقدس، وقد قام بنشره كامل العسلي، وكتاب وقف القاضي عثمان بن أسعد بن المنجا، وقام بنشره صلاح الدين المنجّد وغيرهما من كتب الوقف.

ويشتمل كتاب الوقف على كل ما يتعلق بالمدرسة ومن ذلك :

أ– مكان المدرسة : فيحدد الواقف مكان المدرسة تحديدا دقيقا من الجهات الأربعة، فقد نص الأمير تنكز (ت : ٧٤١) على مكان مدرسته، فقال : "فمن ذلك جميع المدرسة المباركة التي أنشأها الواقف المسمَّى، وهي بمدينة القدس الشريف جوار الحرم الشريف على الباب المعروف بباب السلسلة".[١]

ب – المذهب الذي يدرس فيها : وقد نص نظام الملك في كتاب الوقف على تدريس الفقه الشافعي في النظاميات.[٢]

جـ – العلوم والمواد التي تدرس فيها : وكان بعضهم يكتفي بتحديد المذهب، كالمدرسة الصلاحية في بيت المقدس، التي وقفها صلاح الدين الأيوبي على الشافعية، ووقف التاجر ابن رواحة المدرسة الرواحية على أصحاب المذهب الشافعي أيضا.[٣]

وقد يحدد الواقف كتب الدراسة في وقفيته، فقد نصت إحدى الوثائق على أن يكون المدرس قادرا على إلقاء الدروس على الطلبة من الكشاف للزمخشري، ومن المفتاح للسكاكي، ومن الهداية في فقه الإمام أبي حنيفة.[٤]

---

[١]. العسلي، كامل جميل : وثائق مقدسية، وقفية الأمير تنكز، ٩٠١/١، وانظر ترجمة الأمير تنكز في البداية والنهاية، ١٩٨/١٤.

[٢]. ابن الجوزي : المنتظم، ٦٦/٩.

[٣]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢٥/١٣. * انظر النعيمي : الدارس، ١٩٩/١.

[٤]. محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية، ص ٢٤٢.

د- المدرس الذي سيدرس في المدرسة : فقد عين واقف المدرسة القيمريّة للتدريس في مدرسته الشيخ شمس الدين الشهروزي (ت : ٦٧٥) ولذريته من بعده.[١]

هـ - الأموال والممتلكات والأوقاف المخصصة للمدرسة : وكانت هذه الأموال تشمل الأراضي والضياع والأسواق والحمامات والبساتين والبرك وغيرها، فقد وقف صلاح الدين على المدرسة الصلاحية في بيت المقدس سوقا بدكاكينها، وأرضا ببساتينها.[٢]

ووقف القاضي عثمان بن أسعد المنجا (ت : ٦٤١) العديد من الدور، والحمامات، والأسواق، والبساتين، على تربيته الحافظين لكتاب الله وغيره، وقد استغرق تعداده لأوقافه إحدى عشرة ورقة من وقفيته.[٣]

و- وقد يلحق أحيانا بكتاب الوقف شروطا خاصة يحددها الواقف : فقد اشترط نجم الدين البادرائي (ت : ٦٥٥) عندما وقف مدرسته البادرائية في الطلبة جملة من الشروط، تهدف إلى تحقيق الهدف من المدرسة على أكمل وجه وأتم صورة، فمن هذه الشروط أن يكون الفقيه عازبا، وألا يكون في غيرها من المدارس، وألا تدخلها امرأة.[٤]

واشترطت ست الشام واقفة الشامية البرانية ألا يجمع المدرِّس فيها معها غيرها من المدارس.[٥]

وكانت كتب الوقف تسجل عند القضاة، ويشهد عليهم مجموعة من القضاة والعلماء،[٦] ولذلك كان كتاب الوقف المرجعية الوحيدة في كل ما يتعلق بالمدرسة، وفي ذلك يقول الدكتور محمد أمين :

"ويمكننا القول بأن كتاب الوقف كان بمثابة اللائحة الأساسية للمؤسسة التعليمية، والتي تضم الأسس التربوية للتعليم، والشروط التي تتوافر في المعلمين والطلبة، ومواعيد الدراسة، وغيرها من التنظيمات الإدارية والمالية".[٧]

---

١. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٨٨/١٣. * والمدرسة القيمرية : وقفها الأمير ناصر الدين بن علي (ت : ٦٦٥) بدمشق على الشافعية. (النعيمي : الدارس، ٣٣٥/١).

٢. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٧٣/١٢، وانظر العلمي، أحمد : وقفية صلاح الدين، ص ٣٠-٣٣.

٣. انظر صلاح الدين المنجد : كتاب وقف القاضي عثمان بن أسعد الحنبلي، ص ١٥-٢٦. وانظر ترجمته في السير : ٨٩/٢٣.

٤. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٠٩/١٣.

٥. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٣٥/١٣.

٦. انظرحياة الحجي : السلطان الناصر محمد، وصلاح الدين المنجد : كتاب وقف القاضي عثمان بن أسعد المنجا.

٧. محمد أمين : بحث الأوقاف والتعليم في مصر، التربية العربية الإسلامية، ٢٤٢/١.

وكان الواقف يُشدِّد في كتاب الوقف على الالتزام بما ورد فيه، فقد ختم السلطان صلاح الدين الأيوبي كتاب وقفه بالقول : "فلا يَحِل لأحد يؤمن با لله واليوم الآخر من راع ولا رعية لقوة سلطانه، أو لطيف حيله، و دقة فطنته، واتساع تأويله أن يبطلها، ولا شيئا منها، ولا شيئا من شروط أحكامها، ولا يغيرها من أصل ولا رسم ولا يبدلها ولا يقدم فيها بما لا ينبغي اتهامها، ولا يسعى في شيء من ذلك بأمر ولا بإيماء ولا بتعطيل ولا بشيء يعلمه ا لله الذي يعلم خافية ما تخفي الصدور".[1]

وبالمقابل كانت هذه الشروط تبادل بالالتزام التام من قبل من تعلق الشرط به، فمن ذلك أن علي بن داود القفجاري ترك التدريس بالمدرسة الركنية بالصالحية لّما اطلع على شرط واقفها وهو أن يكون المدرس مقيما بالجبل و لم يكن هو كذلك.[2]

وكذلك فعل القاضي بدر الدين بن جماعة (ت : ٧٣٣)، فعندما تولى تدريس الكاملية رأى في كتاب الوقف في شرط الطلبة المبيت، فجمع ما كان أخذه وهو طالب، وأعاده للوقف لأنه كان لا يبيت فيها وهو طالب.[3]

ثالثا – أنواع المدارس :

كان هناك مجموعة من الصفات المشتركة بين جميع المدارس من حيث مواد التدريس والتراتيب الإدارية، ومع ذلك وجد نوع من التباين بينها، وفي مجالات عديدة يمكن تصنيفها ضمن أربعة مجالات :

أ– من حيث الجهة التي توقف عليها المدرسة : وتنقسم المدرسة بهذا الاعتبار إلى ستة أنواع، وهي :

١ –أن توقف المدرسة لمذهب معين: وقد ذكرنا أمثلة لذلك فيما سبق، وهنا تبرز المدارس الشافعية على غيرها من حيث عدد المدارس الموقوفة على المذهب الشافعي، ومن أبرز هذه المدارس النظامية التي سنفصل الحديث عنها، والرواحية[4] والدولعيَّة[5] والشاميتين البرانية والجوانية.[6]

---

[1]. العلمي، أحمد : وقفية صلاح الدين، ص ٣٦.

[2]. ابن حجر : الدرر الكامنة، ١١٧/٣. والمدرسة الركنية : وقفها الأمير ركن الدين منكورس (ت : ٦٣٠) على الأحناف. (النعيمي : الدارس، ٣٩٨/١).

[3]. المصدر السابق، ٣٦٩/٣. * والكاملية : هي دار حديث بناها الكامل محمد بن العادل أبي بكر (ت : ٦٣٥)، ثم وقفها مدرسة على الفقهاء الشافعية بمصر، (الخطط : ٣٣٥/٣).

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٧٧/١٤.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٥٦/١٣، "المدرسة الدولعيَّة : وقفها محمد بن أبي الفضل الدولعي (ت : ٦٣٥) وهو أول من درَّس بها". (النعيمي : الدارس، ١٨٢/١).

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٨٤/١٤.

وجاء المذهب الحنفي بعد المذهب الشافعي من حيث عدد المدارس، وهو يقارب الشافعي، ومن أشهر هذه المدارس الركنية[1] والتاجية [2]، والإقبالية.[3]

ثم المذهب الحنبلي، ومن أشهر مدارسه الجوزية[4] والصدرية.[5]

ويعدُّ المذهب المالكي الأقل حظا في عدد المدارس، ومن مدارسه الصمصاميَّة [6] والصلاحية [7]، وقد عدَّ النعيمي (ت : ٩٧٨) في كتابه "الدارس" ستين مدرسة للشافعية، وثلاثا وخمسين للحنفيَّة، وللحنابلة إحدى عشرة مدرسة، وللمالكية أربع مدارس.[8]

"ويتبين من هذا أن المذهبين اللذين كانا سائدين في القرن السابع الهجري هما المذهب الشافعي والمذهب الحنفي، ويكاد عدد مدارس كل من المذهبين الفقهيين يكون متساويا ويليهما المذهب الحنبلي ثم المالكي".[9]

وكانت المذهبية في وقف المدرسة تمتد لتشمل المدرس والناظر والطلبة والمواد وجميع العاملين فيها.

٢- المدارس المشتركة بين مذهبين : فقد كان بعض الواقفين يجعلون وقفهم على مذهبين، وكان المذهب الشافعي في الغالب طرفا فيها، ومن المدارس المشتركة بين الشافعية والحنفية المدرسة الظاهرية.[10] ومن المدارس المشتركة بين الشافعية والمالكية مدرسة القاضي الفاضل.[11]

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١١٠/١٤.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٩٤/١٣، التاجية : وقفها تاج الدين الكندي أبو اليمن (ت : ٦١٣) وكان شيخ الحنفية بدمشق، (الدارس، ٣٧٠/١).

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٨/١٤، والإقبالية : وقفها الأمير جمال الدين إقبال سنة ٦٠٣، (الدارس، ٣٦٣/١).

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٥٤/١٤، والجوزية : وقد أنشئت للشيخ محي الدين بن أبي الفرج الجوزي (ت : ٦٥٦)، وهي من أشهر مدارس الحنابلة، (الدارس، ٣٢/٢).

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٣٤/١٣، والصدرية : وقفها صدر الدين بن منجا (ت : ٦٥٧) وقد درس بها ابن الجوزية، (الدارس، ٦٧/٢).

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٩٥/١٤، والصمصامية : وقفها الصالح شمس الدين المسلماني (ت : ٧٣٤)، الدارس، ٦/٢.

[7]. ابن كثر : البداية، ٦٩/١٤، والصلاحية : وقفها صلاح الدين الأيوبي في دمشق، وهنا أخرى بمصرو ثالثة بالقدس، (الدارس، ٨/٢).

[8]. انظر النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس.

[9]. عبدالجليل، عبدالمهدي : بحث المؤسسات التعليمية والثقافية في بلاد الشام، ٥٢٨/٢.

[10]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٥٦/١٣، والمدرسة الظاهرية : ويطلق عليها الظاهرية الجوانية، وقفها الظاهر بيبرس (ت : ٦٧٦)، (النعيمي : الدارس، ٢٦٣/١).

[11]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٨/١٣.

٣- المدارس المشتركة بين المذاهب الأربعة : وعادة ما يقوم بوقف هذا النوع من المدارس السلاطين والأمراء لأن نفقاتها كثيرة، والمستنصرية أول مدرسة وقفت على المذاهب الأربعة ببغداد، وقد وقفها الخليفة المستنصر (ت : ٦٤٠)، ورتب فيها مدرسين وفقهاء من المذاهب الأربعة. [1]

ومنها مدرسة الأمير شيخون (ت : ٧٥٨) حيث جعلها الأمير وقفا على المذاهب الأربعة. [2]

٤- المدارس التي توقف على مدرس بعينه : ومن الأمثلة عليها المدرسة التي وقفها الأمير علي بن سلار العادل (ت : ٥٤٨) بالإسكندرية على الحافظ أبي طاهر السلفي (ت : ٥٧٦). [3]

ومثلها المدرسة الخاتونية، حيث وقفتها زمرد خاتون بنت جاولي (ت : ٥٥٧) على الشيخ برهان الدين علي بن محمد البلخي الحنفي. [4]

وقد يمتد الوقف ليشمل ذرية المدرس من بعده، فالمدرسة القيمرية وقفها الأمير ناصر الدين الحسين ابن علي على القاضي شمس الدين الشهرزوري ولذريته من بعده. [5]

٥ - المدارس التي توقف على فئة محددة من الناس : كالمدرسة التقوية حيث وقفها الملك المظفر تقي الدين بن شاهنشاه (ت : ٥٨٧) على المجاهدين [6]، ومثلها مدرسة الشيخ أبي عمر المقدسي (ت : ٦٠٧) حيث وقفها على المشتغلين بالقرآن من الفقراء. [7]

٦ - وكان هناك مدارس خاصة بالشيعة : ومن أبرزها المدرسة التي بناها نصير الدين الطوسي (ت : ٦٧٢) بمدينة مراغة. [8]

ب- من حيث العلوم التي تدرس فيها :

فيمكن تقسيمها إلى قسمين رئيسين :

١- المدارس الشاملة : وهي التي تُدرِّس علوما عديدة، كالفقه والحديث والقرآن والطب والكتابة والقراءة للصبيان، بحيث يخصص لكل علم طلبته وشيوخه، ومن أبرز الأمثلة على هذا النوع

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٥٠/١٣، وانظر معروف، ناجي : تاريخ علماء المستنصرية، ٣٧/١.

[2]. ابن كثير : البداية، ٢٧٠/١٤. *

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٤٨/١٢. * وانظر ترجمة أبي طاهر السلفي في البداية والنهاية، ٣٢٨/١٢.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٦٤/١٢، * وانظر النعيمي : الدارس، ٣٨٤/١.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٨٨/١٣، وانظر النعيمي : الدارس، ٣٣٥/٢.

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣١١/١٤، وانظر النعيمي، الدارس، ١٦٢/١. وانظر ترجمة تقي الدين في البداية، ٣٦٩/١٣.

[7]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٦٤/١٣. *

[8]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٢٨/١٣. *

المدرسة المستنصرية، التي افتتحها الخليفة المستنصر بالله سنة إحدى وثلاثين وستمائة في بغداد، حيث رتب فيها مدرسين للمذاهب الأربعة وشيخ حديث مع مساعديه وشيخ طب ومكتب أيتام.[1]

٢- **مدارس مخصصة لنوع واحد من العلوم** : وأغلب المدارس من هذا النوع إذ مادة الفقه هي المادة الرئيسة التي تدرس في المدرسة، وقد يلحق بها مواد أخرى، ومدارس خاصة بتدريس القرآن الكريم كالمدرسة التي بناها التاجر بافريدون (ت : ٧٤٩) حيث جعلها لتدريس القرآن،[2] ومدارس خاصة لتدريس الحديث، مثل المدرسة الوداعية، حيث خصصت لتدريس الحديث من قبل واقفها شمس الدين العطار الشافعي (ت : ٧٦٥).[3]

وهناك مدارس خاصة بتدريس اللغة العربية بجميع علومها من نحو وبلاغة منها تلك التي أنشأها الملك المعظم عيسى بن العادل (ت : ٦٢٤) في بيت المقدس سنة أربع وستمائة وخصصها للاشتغال بالعربية.[4]

وهناك مدارس خاصة بتدريس الطب، منها المدرسة الدخوارية بدمشق وقفها الطبيب مذهب الدين عبد الرحيم الدخوار (ت : ٦٢٨) لدارسي الطب.[5]

جـ - من حيث اتساع المدرسة وحجم بنائها : نجد أن المدرسة بأبسط صورها تضم قاعتين، إحداهما للتدريس والأخرى للصلاة والاجتماع والسكن، ومثال على هذا النوع المدرسة الجاروخية،[6] وغالبا ما يكون هذا النوع من المدارس المحولة عن البيوت المعدة للسكن، وهناك مدارس كبيرة تضم العديد من القاعات والمرافق، ومن أشهرها المستنصرية، حيث كانت جمالا لبغداد و ما حولها.[7] ومثلها النظامية والظاهرية والزنجارية.[8]

---

١. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣/١٥.

٢. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٤/٢٣٩. *

٣. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٤/٣٢٠.

٤. عبدالجليل عبدالمهدي : بحث المؤسسة التعليمية والثقافية في بلاد الشام، ٢/٥٣٢. انظر ترجمة المعظم عيسى في البداية والنهاية، ١٣/١٣٠.

٥. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣/١٣٩. * وانظر النعيمي : الدارس، ٢/١٠٠.

٦. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣/١٠٩. والجاروخية : تنسب إلى واقفها جاروخ التركماني (ت : ٦٣٩) وقد وقفها على الشافعية، النعيمي : الدارس، ١/١٦٩.

٧. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣/١٢٢.

٨. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣/٣٦٦، والمدرسة الزنجارية : وقفها بدمشق الأمير عز الدين، أبو عمرو عثمان بن علي الزنجيلي، وهي من أحسن المدارس الحنفية، (النعيمي : الدارس، ١/٤٠٤).

والعادلية الكبيرة التي استمر بناؤها سبع سنوات، وبناها العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب (ت : ٦٠٧) وأتمها ولده المعظم.[١]

د- **باعتبار التسمية :** لقد تعددت أسباب التسمية للمدارس، فالغالب في المدرسة أن تنسب إلى واقفها وبانيها، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها المدرسة الصلاحية نسبة إلى صلاح الدين الأيوبي، والنورية نسبة إلى نور الدين زنكي، والمستنصرية نسبة إلى الخليفة المستنصر، وقد تسمى باسم المكان الذي أقيمت عليه، ومدرسة باب الأزج نسبة إلى مكان وجودها عند باب الأزج ببغداد.[٢]

وقد تسمى باسم من وقفت له كالجوزية بدمشق، التي بناها الملك المعظم عيسى بن العادل للشيخ محي الدين بن الشيخ جمال الدين بن الجوزي (ت : ٦٥٦).[٣]

وقد تنسب المدرسة لمن نزلها ودرس فيها، فقد نزل العماد الكاتب الأصبهاني (ت : ٥٩٧) المدرسة النورية داخل باب الفرج، وبعد ذلك عرفت باسم المدرسة العمادية نسبة إلى نزوله فيها.[٤]

---

١. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣/١٠٥، والمدرسة العادلية الكبيرة (الكبرى) : وهي مدرسة شافعية بدمشق أنشأها نور الدين زنكي و لم يتمها ثم أكملها العادل سيف الدين، و لم يتمها فأتمها ولده المعظم سنة ٦١٩، (والعلبي، أحمد : خطط دمشق، ص ١٤١).

٢. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢/١٩٨.

٣. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣/١٢١. وانظر ترجمة محي الدين في البداية والنهاية، ١٣/٢٢٣، والمعظم : ١٣/١٣٠.

٤. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣/٣٢، * والمدرسة العمادية : وهي مدرسة شافعية بناها نور الدين زنكي لأبي البركات الحارثي الدمشقي (ت : ٥٦٢)، وعرفت بالنورية قبل نزول العماد فيها، (النعيمي : الدارس، ١/٣٠٨).

رابعا – مرافق المدرسة :

تُعَدُّ قاعات الدرس أهم مكونات المدرسة، ويزداد عدد هذه القاعات تبعا لما سيدرس فيها، فإذا كان في المدرسة تداريس سوى الفقه، كالحديث، أو القرآن، أو مكاتب الصبيان، والأيتام، فإن عدد القاعات كبير.

ويقوم الواقف عادة بتحديد كل ما تضمه مدرسته من مرافق، فقد بين تنكز في وقفيته صفات البناء في مدرسته، حيث يقول : "ويغلق على هذه المدرسة المذكورة باب خاص مكبر بمصراعين من خشب الجوز وصفايح نحاس... وتشمل هذه المدرسة أربعة دواوين معقودة بالكلس والحجر في كل واحد منها شباك حديد، ولكل واحد من الشبابيك المذكورة والمجلسين المشار إليها باب بمصراعين".[1]

وكثير من المدارس يلحق بها سكن للمدرس والطلبة، وكلُّ ما يحتاج إليه المقيمون من طعام وشراب، فقد جعل تنكز في مدرسته اثنين وعشرين بيتا في طابقين، كل طابق يضم أحد عشر بيتا، الأسفل مخصص لفقهاء الحنفية، والعلوي برسم الصوفية.[2]

وجعل تنكز في وسط المدرسة بركة واسعة، ومطبخ برسم المقيمين بالمدرسة، وطهارة تشمل خمسة بيوت للوضوء، وواحد منها للاستحمام، ويصل الماء إلى كل واحد منها.[3]

وغالبية المدارس تضم خزانة للكتب، فقد وقف الحافظ الضياء المقدسي (ت : ٦٤٣) كتبا كثيرة لخزانة كتب المدرسة الضيائية.[4] ووقف نجم الدين البادرائي في مدرسته البادرائية خزانة كتب حسنة نافعة.[5]

وكان المظهر الخارجي للمدرسة، يلقى اهتمام الواقف، فقد تبنى عليها مئذنة تشير إليها، مثل مدرسة أبي عمر[6]، وقد توضع على بابها ساعات كالساعات الجميلة التي كانت على باب المدرسة القيمرية، وعادة ما يُكتب على باب المدرسة اسم الواقف، كما اشترط تنكز في كتاب وقف مدرسته.[7] وعادة ما يتوسط المدرسة قاعة واسعة تسمى الإيوان، تستخدم للصلاة والاجتماع وأمور أخرى.

---

1. العسلي، كامل : وثائق مقدسية، ١٠٩/١.
2. المصدر السابق، ١١٠/١.
3. كامل العسلي : وثائق مقدسية، ١٠٩/١.
4. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٨١/١٣، * والمدرسة الضيائية : وقفها الضياء محمد بن عبد الواحد المقدسي (ت : ٦٤٣) صاحب الكتب والتصانيف المفيدة، وكانت هذه المدرسة موقوفة على أهل الحديث والفقه من الحنابلة. (النعيمي : الدارس، ٧٢/٢).
5. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢١٠/١٣.
6. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣١٣/١٣.
7. كامل العسلي : وثائق مقدسية، ١٠٩/١.

خامسا – وظائف المدرسة :

أدت المدرسة في هذه المرحلة أغلب الوظائف التي أدَّاها المسجد في القرون السابقة، والجامعة في القرون الحالية، وليس أدلَّ على ذلك من مكانة المدرسين، وسن الدارسين فيها، والمناهج المقررة عليهم.

ونوجز فيما يلي أهم الوظائف التي أنيطت بالمدرسة :

١– الدور التعليمي : لا شك أن أول وظيفة وهدف أنشئت المدرسة من أجله هو نشر العلم، بتخريج العلماء الذين يقومون بتبليغ رسالة الإسلام، وأدائها، والمحافظة على السنة وعلومها، وإكمال جهود السابقين، وذلك لدراسة ما أنجزوه وتمحيصه وانتقائه، والزيادة عليه بما يتلاءم مع الواقع الذي يحتاجه المسلمون، وقد شمل الدور التعليمي مجالات عديدة، منها :

أ – نشر العلم في مختلف البقاع الإسلامية : بتخريج أفواج من العلماء والمتخصصين في العلوم الإسلامية، ومن جهة أخرى كان هؤلاء يؤهلون لاستلام الوظائف المهمة في الدولة، كالقضاء، والخطابة، والإفتاء، والتدريس.

ب – رفد حركة التأليف : فبرزت في هذه المرحلة الكتب الموسوعية، ومنها المغني لموفق الدين بن قدامة (ت : ٦٢٠)[1] والمجموع للنووي ووفيات الأعيان لابن خلّكان والفتاوى الكبرى لابن تيمية، وتهذيب الكمال للمزي وتاريخ الإسلام والسير للذهبي وغيرها من الكتب.

جـ – ربط المسلمين بخالقهم وتعميق روح التدين لديهم : ورفع الروح المعنوية عندهم، وغرس مفاهيم التضحية والجهاد والبذل، وذلك للتصدي للأخطار المحدقة بهم.

د – مواجهة الأحداث المستجدة، والأحكام الواقعية : ووضع الحلول الشرعية لها، وقد ظهر ذلك في كتب الفتاوى.

هـ – كانت المدرسة تفتح أبوابها أمام الناس ليتعلموا فيها الكتابة، ويصححوا كتبهم : فقد كان محمد بن أسد الحراني (ت : ٧٢٦) يجلس في المدرسة القليجية ويكتب عليه الناس.[2]

---

[1]. انظر ترجمته في البداية والنهاية، ١٠٧/١٣.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣٠/١٤. * والمدرسة القليجيّة : وقفها سيف الدين بن قليج (ت : ٦٤٣) على الأحناف بدمشق، (بدران : منادمة الأطلال، ص ١٩٥).

٢- وهناك ممارسات وأعمال كانت تتم داخل المدرسة أحيانا، ومنها :

أ- المدرسة قصر ضيافة للوفود : حيث كانت الوفود تفد إلى الأمصار المختلفة وتقيم في المدرسة، فعندما قدم ركن الدين بيبرس نائبا على دمشق نزل بداية في المدرسة الشامية الجوانية،[١] ولما قدم وفد من الإفرنج للتفاوض مع المسلمين حول بعض الأسرى، نزل الوفد المدرسة العادلية،[٢] وقدم الخليفة المعتضد با لله دمشق سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة، فنزل المدرسة الدماغية [٣]، وقدم العماد الأصبهاني دمشق فنزل في المدرسة النورية.[٤]

ب- القيام بجميع وظائف المسجد : فقد كانت تقام في المدرسة الصلوات الخمسة وخطبة الجمعة، وقد كان يعين لبعض المدارس إمام ومؤذن، ونص تنكز في وقفيته على إقامة مسجد داخل المدرسة، فقال : "وهذا الإيوان القبلي وقفه الواقف المسمى تقبل ا لله تعالى منه مسجدا لله تعالى له حرمة المساجد وكرامتها".[٥] وهذا ما دعا أحد العلماء إلى القول عن مدارس مصر : "وغالب مدارسها و لله الحمد معمورة بعبادة ا لله تعالى، من إقامة الصلوات والأذكار وقراءة القرآن والحديث، والاشتغال بالعلوم الشرعية وغيرها، آناء الليل وأطراف النهار".[٦]

جـ- المدرسة منبر إعلامي لأخبار السلطنة وتقليد وظائفها : فقد كان التعيين والعزل والأخبار السلطانية ترد على البريد بواسطة مرسوم سلطاني فتقرأ في المدرسة، وخصوصا وظائف التدريس والقضاء والخطابة والنظر، فقد قرئ تقليد ابن جملة القضاء في المدرسة العادلية سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة.[٧]

د - عقد مجالس القضاء فيها : فقد كان كثير من القضاة يتخذ المدرسة مكانا للفصل في الخصومات، والنظر في الدعاوى، فقد حكم جمال الدين الحرستاني (ت : ٦١٤) في المدرسة المجاهدية[٨]، وحكم شرف الدين الموصلي في المدرسة الطرخانية.[٩]

---

[١]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٠٣/١٤.

[٢]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣٤/١٤.

[٣]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٢٠/١٤، والمدرسة الدماغية : وقفتها في دمشق عائشة زوجة الشجاع محمود المعروف بابن الدماغ، وهي من المدارس المشتركة بين الشافعية والأحناف، (والنعيمي : الدارس، ١٧٧/١).

[٤]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٧١/١٢.

[٥]. كامل العسلي : وثائق مقدسية، ١٠٩/١.

[٦]. محمد أمين : بحث الأوقاف والتعليم في مصر، ٨٥٧/٣.

[٧]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٦٩/١٤.

[٨]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٧٥/١٣. *

[٩]. ابن كثير : البداية،٩١/١٣. والمدرسة الطرخانية، وقفها سنقر الموصلي، وجعلها على الأحناف بدمشق، (الدارس، ٤١٥/١).

هـ - **الدور الجهادي :** لم تهدأ الأراضي الإسلامية وخصوصا مصر والشام من التهديد العسكري من قبل التتر والفرنجة، و لم يكن العلماء والطلبة بمعزل عن أمتهم ومجتمعهم، بل كان لهم دور بارز في الحث والتهيئة والجهاد، فقد كان علماء المقادسة أمثال عبد الغني، وأبي عمر، والعماد (ت : ٦١٤) لا ينقطعون عن غَزاة خرج فيها صلاح الدين، وكانوا في مقدمة الجيش الذي فتح بيت المقدس[١]، ويتضح ذلك الدور أيضا عند تتبع جهود الشيخ ابن تيمية في المعارك ضد التتر، فقد استمر في قلعة مصر ثمانية أيام، يدعو السلطان للجهاد ضد التتر سنة سبعمائة [٢]، وكان في المعركة يسير بين الجيوش حاثا لها، وهو يقول : "وا الله الذي لا إله غيره إنكم منصورون عليهم"[٣]، وعندما اقترب التتر من دمشق سنة تسع وتسعين وستمائة، أمر قاضي القضاة ابن جماعة بعمل ميادين للتدريب في المدارس، وأن يتعلم الفقهاء الرمي ويستعدوا لقتال العدو إن حضر[٤]، وعندما تجهز الأشرف خليل بن قلاوون (ت : ٦٩٣) لفتح عكا أرسل إلى دمشق للتجهز، فخرج الفقهاء والمدرسون، وذلك سنة تسعين وستمائة[٥].

و - **عقد المناسبات العامة فيها :** وذلك كالهناء والعزاء والزواج، فقد عقد الشيخ برهان الدين الفزاري عقده على ابنة قاضي القضاة شهاب الدين الخولي في البادرائية، [٦] وكانت تقام بها الولائم والمآتم أيضا.[٧]

---

١. ابن كثير : البداية والنهاية، ٦٥/١٣. انظر ترجمة العماد المقدسي في البداية والنهاية، ٨٤/١٣.

٢. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٧/١٤.

٣. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٧/١٤.

٤. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣/١٤.

٥. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٣٩/١٣. انظر ترجمة الأشرف خليل في البداية والنهاية، ٣٥٤/١٣.

٦. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٥/١٣، وانظر في العزاء، ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٤٤/١٢.

٧. انظر معروف، ناجي : علماء المستنصرية، ١٩١/٢-٢٠٦.

سادسا – الإدارة المدرسية :

يمكننا تقسيم الإدارة المدرسية إلى قسمين : قسم يتولى الإشراف على شئون المدرسة، والقسم الآخر يتكون من الهيئة التدريسية، أما القسم الأول فيشتمل على :

١– ناظر الوقف : فقد كان الواقف يحدد ناظرا يشرف على شئون الوقف، ويشترط في الناظر أن يكون بالغا، عاقلا، مسلما، عادلا، لديه القدرة على إدارة شئون الوقف.[١]

أما أعمال ناظر الوقف فيمكن إيجازها بما يلي :

أ – المحافظة على الوقف وعمارته حال التلف أو الهلاك.

ب – القيام على تنفيذ شروط الواقف المقيدة شرعا، والمذكورة في كتاب الوقف، وينص الفقهاء على أن شرط الواقف كنص الشارع.

جـ – الدفاع عن الوقف وحقوقه.[٢]

د – أداء حقوق المستحقين في الوقف، فقد جاء في وقفيّة القاضي عثمان "ومقادير ما يصرف إلى كل واحد من القرّاء أو المقرئين المشار إليهم، وإلى الإمام المقرئ بالتربة المذكورة من الخبز والكسوة مفوض إلى رأي الناظر في هذه الصدقة حسب ما يراه ويستصوبه".[٣]

وكان للناظر حق العزل والتبديل، فقد جاء في وقفية القاضي عثمان كذلك "وللناظر في هذه الصدقة إبقاء ما شاء إبقاءه من الفقراء والمقرئين والإمام، وصرف ما شاء صرفه، والاستبدال والتسوية فيما يصرفه إليهم، والتفضيل والإعفاء والحرمان من غير حجرٍ عليه في ذلك ولا معارضة".[٤]

ويتقاضى الناظر راتبا قد يكون محددا ومقدرا، وقد يكون نسبة في الوقف، فقد نصت ست الشام في وقفيتها على تقرير نسبة العشر لناظر وقفيتها، حيث تقول : "وذلك بعد إخراج العشر وصرفه إلى الناظر عن متابعته وخدمته ومشارفته للإملاك".[٥]

وعادة ما يأخذ الناظر أجرته من غلّة الوقف إلا إذا شرط الواقف غير ذلك.[٦]

---

١. انظر الكبيسي، محمد عبيد، أحكام الوقف في الشريعة الإسلامية، ٢/١٦١–١٨١.

٢. المصدر السابق، ٢/١٩٥.

٣. صلاح الدين المنجد : وقفية القاضي عثمان، ص ٣٢.

٤. المصدر السابق، ص ٣٢.

٥. النعيمي : الدارس، ١/٢٢٨.

٦. انظر محمد الكبيسي، أحكام الوقف، ٢/٢٢٨.

وكان الواقف يوكل النظر إلى نفسه مدة حياته، ثم إلى ولده أو من يراه مناسبا بعد مماته، فقد جاء في وقفية السلطان الناصر محمد (ت : ٧٤١) : "وشرط النظر على ذلك والولاية عليه لمولانا السلطان الناصر المسمى أعلاه، فإن تعذر ذلك فإن النظر لمن يكون سلطانا نافذ الحكم يومئذاك بالديار المصرية".[١]

وجاء في وقفية تنكز "والنظر في هذا الوقف والولاية عليه لمولانا ملك الأمراء الواقف المسمى في هذا الكتاب، ومن بعده يكون النظر في ذلك للأرشد فالأرشد من أولاد الواقف وأولاد أولاده وذريته المباركة".[٢]

وكان ممن شغل هذه الوظيفة شارة بن عبد الله الأرمني (ت : ٦٥٥) حيث تولى نظر أوقاف المدرستين الشبليتين عن أمر واقفهما.[٣]

٢- ناظر المدرسة : وهو من يتولى الإشراف المباشر على شؤون المدرسة من حيث الدروس والمدرسون والطلبة والدوام، وممن شغل هذا المنصب عز الدين بن بدر الدين بن جماعة، حيث تولى نظر المدرسة الناصرية، وعين نجم الدين البادرائي وجيه بن سويد ناظرا على مدرسته.[٤]

٣- مشرف المكتبة : وقد ألحقت بكل مدرسة مكتبة كي تعين الطلبة على التحصيل، ويتولى الإشراف عليها أحد الموظفين يطلق عليه مسمًّى مشرف المدرسة أو خازن الكتب، ويشترط فيه أن يكون خيرا، أمينا، يقظا، ذكيا، فطنا، عاقلا، مأمونا، ويتصف بالنزاهة وقلة الطمع، قادرا على القيام بخدمة الكتب عارفا بترتيبها.[٥]

وأما مهمته فتتمثل في إعارة الكتب وإحرازها وتنظيفها من الغبار، وتعهدها بالإصلاح.[٦]، وممن شغل هذه الوظيفة جمال الدين الفوطي (ت : ٧٢٣)، فقد كان مشرفا على كتب المستنصرية.[٧]

٤- قيم المدرسة : وكان كتاب الوقف يحدد وصف وظيفته، فقد ورد في وقفية تنكز : "وعلى كل واحد من القيمين فرش هذه المدرسة المذكورة وفرش المسجد العلوي، بالحصر وبالبسط وتنظيف ذلك

---

[١]. حياة الحجي : السلطان الناصر محمد، ص ٣٩٠. *

[٢]. كامل العسلي : وثائق مقدسية، ١١٩/١.

[٣]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢١٠/١٣، * الشبلية : وتقع بجبل قاسيون وقفها الأمير شبل الدولة كافور (ت : ٦٢٣) على الأحناف، (بدران : عبدالقادر، منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، ص ١٧٦).

[٤]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٠٩/١٣، والمدرسة الناصرية : أنشاها الناصر يوسف بن صلاح الدين (ت : ٦٥٩) للشافعية، وفرغ من عمارتها في أواخر سنة ثلاث وخمسين وستمائة. (النعيمي : الدارس، ٣٥٠/١).

[٥]. انظر محمد أمين : الأوقاف والتعليم في مصر، ٨٣٥/٣.

[٦]. المصدر السابق، ٨٣٦/٣.

[٧]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١١٠/١٤. *

جميعه وكنسه، وإيقاد مصابيحه وإطفاؤها، وغسل بركة المدرسة، وغسل طهارتها، وكنسها على جاري العادة في ذلك جميعه، وأن يؤذن بالنوبة على باب المدرسة المذكورة في الأوقات الخمسة".[1]

فأعمال القيم تتخلص بالتنظيف والترتيب لشؤون المدرسة، وتفقد مرافقها ورعايتها، وهذا ما ورد أيضا في وقفية ست الشام، فقد جاء فيها : "والقيم المعد لكنسها ورشها وفرشها وتنظيفها وإيقاد مصابيحها".[2]

وممن شغل هذه الوظيفة أبو بكر بن أيوب الحنبلي قيِّم الجوزية (ت : ٧٢٣) وهو والد شمس الدين بن محمد بن قيم الجوزية، فقد كان قيِّما للمدرسة الجوزية.[3]

٥ – بواب المدرسة : وهو من يقوم على حراسة المدرسة وملازمتها ليلا ونهارا، وفتح المدرسة وغلقها في الأوقاف التي جرت العادة بها.[4]

وقد حدد تنكز في وقفيته أجور القيم والبواب وهي عشرون درهما فضة في الشهر، ونصف رطل خبز يوميا.[5]

أما القسم الثاني : وهو الهيئة التدريسية فسيأتي الحديث عنه عند تفصيل أحوال المدرسين بعون ا لله.

---

[1]. العسلي، كامل : وثائق تاريخية، ١١٥/١.

[2]. النعيمي : الدارس، ٢٢٨/١.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١١٤/١٤. *

[4]. كامل العسلي : وثائق مقدسية، ١١٥/١.

[5]. المصدر السابق، ١١٨/١.

سابعا – موارد المدرسة :

كان الواقف يتبع وقفه للمدرسة تخصيص موارد وأملاك تضمن استمرار عملية التدريس، بتوفير الرواتب والطعام والحلوى لهم، ومن هنا فإن المصادر إما أن تكون :

١– الوقف : حيث يلحق الواقف أموالا وأوقافا دارّة على وقفه، فوقف صلاح الدين سوقا بدكاكينها، وأرضا ببساتينها على المدرسة الصلاحية،[١] وبنى ركن الدين منكورس الفلكي (ت : ٦٣١) المدرسة الركنية ووقف عليها أوقافا كثيرة.[٢]

وخصص القاضي عثمان في وقفيته كثيرا من الدور والخانات والحمامات والبساتين.[٣]

ومما وقفه تنكز على مدرسته ضياع ومزارع وسهول وبيادر وأشجار مثمرة وغير ذلك،[٤] وكذلك وقف الناصر محمد بن قلاوون كثيرا من البيوت والدكاكين والبساتين على خانقاه سرياقوس.[٥]

وقد كان الوقف من أهم موارد المدرسة، بل كان الوقف هو المصدر الوحيد لبعض المدارس.

٢– الدولة : كانت الدولة تتكفل بالمدارس التي تنشئها، فقد رتب الخليفة في المدرسة المستنصرية الرواتب والخبز والحلوى لكل مدرس ومعيد وفقيه.[٦]

٣– وقد ترد بعض الأموال عن طريق التبرعات : فقد تبرع كثير من التجار بأوقاف جيدة على المدرسة الصبابيّة.[٧]

---

١. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٧٣/١٢.

٢. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٥٢/١٣.

٣. انظر صلاح المنجد : كتاب وقف القاضي عثمان، ص ١٥-٢٧.

٤. كامل العسلي : وثائق مقدسية، ١١٢/١.

٥. انظر حياة الحجي : السلطان الناصر محمد، ص ٣٧٨-٣٨٦.

٦. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٥٠/١٣.

٧. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٢٨/١٤.

ثامنا – مراسم افتتاح المدرسة :

حظيت المدارس باهتمام خاص من قبل الأمراء والسلاطين والخلفاء، بحيث يشهد الجميع افتتاح الصرح العلمي الجديد، وكانت تجري مراسم لذلك تتشابه في غالب المدارس، وتشمل هذه المراسم، قدوم الضيوف من الأمراء والقضاة والأعيان، ويحضر الواقف، ثم يُقرأ كتاب التعيين والوقف، ويخلع بعدها على كبار الحضور، ويبدأ المدرس بإعطاء درس في موضوع معين، وبعدها يتم توزيع الحلوى وقراءة القصائد والمدائح أمام الحضور، فعندما افتتح السلطان المعظم المدرسة العادلية الكبيرة، حضر القضاة والأعيان، وكان منهم تقي الدين بن صلاح،[1] وعند افتتاح الإقبالية خُلع على المدرسين والمعيدين والفقهاء[2]، وحضر الخليفة بنفسه افتتاح مدرسته المستنصرية مع أعيان دولته، و مد سماطا من الأطعمة، وخلع على جميع الحاضرين من فقهاء، ومعيدين، ومدرسين، وألقيت المدائح الرائعة والقصائد الفائقة.[3]

ولما افتتحت المدرسة التي بسوق العجم ببغداد، عُمل فيها قباب الحلوى وحمل منها إلى جميع المدارس والربط.[4]

تاسعا – مواد التدريس :

شكلت العلوم الشرعية المواد الأساسية للتدريس في جميع المدارس، إذا استثنينا من ذلك المدارس المخصصة للطب، وأما أهم هذه العلوم فهو الفقه، إذ كانت المدرسة غالبا مخصصة لتدريس الفقه، وحسب المذهب المعتمد فيها، واقترن لفظ المدارس بتدريس الفقه، وقد يلحق به تدريس القرآن والحديث، "ويلاحظ أن المدارس إنما أسست ابتداء لتدريس الفقه على المذهب الذي نص عليه واقفها، وأنه لم يقصد في تدريسها علوم أخرى".[5]

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣/١٠٥.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣/١٣٩.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣/١٥٠.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣/١٣٩.

[5]. بشار معروف : بحث مؤسسات التعليم في العراق، التربية العربية الإسلامية، ٢/٣٧٣.

وقد يخصص لكل مادة مدرس، كأن يُعين شيخ للقرآن وتفسيره، وآخر للحديث وعلومه، كما هو الحال في مدرسة القاضي الفاضل، فقد تولى مشيخة القرآن فيها أبو القاسم بن الشاطبي الضرير (ت : ٥٩٠)[1]، وتولى الحافظ الدمياطي (ت : ٧٠٥) التدريس بالمدرسة الظاهرية، حيث كان شيخ الحديث فيها[2]، وقد يتولى تدريس ذلك كله مدرس واحد، فقد درس الجمال المصري (ت : ٦٢٣) بالمدرسة العادلية الكبيرة الفقه والتفسير.[3]

والسبب في أن الفقه هو المادة الرئيسة في المدرسة أن القرآن والحديث كان لهما مؤسسات خاصة بهما، وهي دور القرآن ودور الحديث، إضافة لبعض المدارس التي تخصص للقرآن كمدرسة أبي عمر[4]، وللحديث كالمدرسة الوداعية [5]، ويلحق ببعض المدارس مكاتب للصبيان والأيتام، بحيث تدرس فيها القراءة والكتابة والحساب، وأما علوم الكلام والفلسفة والمنطق فلم تكن مرغوبة غالبا، وإن وجدت في بعض المدارس، إذ كانت الدولة تمنعها، فمن ذلك أن الأشرف موسى (ت : ٦٣٥) نادى بألا يشتغل أحدٌ بغير التفسير والحديث والفقه، ونهى عن الاشتغال بالفلسفة والمنطق وهدد من يفعل ذلك بالنفي.[6]

وكان القاضي ابن الزكي (ت : ٥٩٨) ينهى الطلبة عن الاشتغال بالمنطق وعلم الكلام ويمزق كتب من كان عنده شئ منها في المدرسة النورية.[7]

و لا نجد ذكرا للعلوم التطبيقية والرياضية كالهندسة والرياضيات والفيزياء وقد يكون لها مؤسساتها الخاصة بها غير أني لم أعثر على شيء من ذلك في الكتاب.

عاشرا – العطلة المدرسية :

لم يرد في الكتاب مدة محددة للعطلة المدرسية، وإنما أورد المصنف خبرا مفاده أن العطلة كانت تقع في فصل الصيف حيث يثمر المشمش، وتزهر البساتين،[8] ولا يعني هذا أن هذا هو حال جميع المدارس وفي مختلف الأوقات، بل كانت العطل تختلف من مدرسة لأخرى، والذي يحدد ذلك هو

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١١/١٣. *

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٥٦/١٣. انظر ترجمة الحافظ الدمياطي في البداية والنهاية، ٤٢/١٤.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢٣/١٣. *

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٦٤/١٣.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٢٠/١٤.

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٥٨/١٣. *

[7]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٣٧/١٣. *

[8]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٣٧/١٣. *

الواقف نفسه، فيذكر الأوقات التي تعطل فيها المدرسة، فقد نصت إحدى الوثائق على أن أيام الدوام هي السبت والأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء من كل أسبوع، ويبقى الخميس والجمعة أيام عطلة.[1]

وحددت وثيقة أخرى أيام العطلة بأنها الثلاثاء والجمعة بالإضافة إلى الأعياد وأيام رمضان وأيام التشريق،[2] ولكن لم أعثر على نص يسعفني في تحديد ذلك في كتاب البداية.

حادي عشر – الهيئة التدريسية :

القسم الأخر في الإدارة المدرسية هو الهيئة التدريسية كما ذكرنا سابقا، والذي يتألف من المدرسين ونوابهم والمعيدين، وسنتحدث عن كل على حدة :

١– المدرسون :

بعد التأمل، وباستعراض أسماء المدرسين، نجد أن وظيفة المدرس من أشرف الوظائف التي سعى العلماء لنيلها، والاشتغال بها لأنها تمكنهم من أداء رسالتهم العلمية على وجهها الأكمل، ويعود عليهم نفعها في الدنيا والآخرة، فهي صدقة جارية تندرج تحت علم يُنتفع به، وإذا كانت وظائف القضاء والإفتاء قد توقع أصحابها بالحرج والمشقة والوقوع بالإثم، فالأمر مختلف في وظيفة التدريس إذ أجورها عظيمة، وتبعاتها قليلة، لهذا ولغيره، قلما نجد عالما في هذه القرون، إلا واشتغل بالتدريس، وقد سبق أن استعرضنا أسماء مشاهير العلماء الذين اشتغلوا بالتدريس، وقد بلغ من مكانة التدريس آن يتولاها الوزراء، فكان ابن بنت الأعز (ت : ٦٦٥) وزيرا في بعض الأوقات، وبيده تداريس كبار[3].

ويتولاها كذلك قاضي القضاة، فقد كان ابن خلّكان قاضي قضاة الشام، ومدرسا في بعض مدارسها[4]، ونتحدث فيما يلي عن بعض **سمات المدرسين** :

أ – **عمر المدرس :** لم يكن يُشترط في المدرس عمر معين، بل الكفاءة والقدرة والأمانة هي الشروط المعتبرة في وظيفة المدرس، لذلك تولاها من هو دون العشرين، حيث درس نجم الدين ابن قاضي القضاة عماد الدين الطرطوسي في الإقبالية الحنفية، وهو في الخامسة عشرة من عمره، وكان فيه

---

١. محمد أمين : بحث الأوقاف والتعليم في مصر، ٨٥٤/٣.

٢. المصدر السابق، ٨٥٤/٣.

٣. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٦٤/١٣.

٤. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣١٨/١٣.

نباهة وفهم وحسن اشتغال ووقار بحيث غبط الحاضرون أباه على ذلك[1]، ودرس أيضا أبو حاتم ابن بهاء الدين السبكي (ت : ٧٦٤) بعدة مدارس بمصر وهو دون العشرين.[2]

ب – عدد المدرسين في المدرسة الواحدة : تبعا لاختلاف المذاهب التي تدرس اختلف عدد المدرسين، فلكل مذهب مدرسه، فالمدرسون في المدرسة المستنصرية الموقوفة على المذاهب الأربعة أربعة[3]، وفي الظاهرية الموقوفة على الشافعية والحنفية مدرسان[4]، أما المدارس الموقوفة على مذهب بعينه فلها مدرس واحد، فمن ذلك أن الفارقي (ت : ٧٠٣) يُدَرِّس بالناصرية ونجم الدين بن صصري (ت : ٧٢٣) بالأمينية، وكمال الدين بن زملكاني بالعادلية الصغيرة[5]، وعادة ما يعيّن في التدريس شيوخ المذهب، وإذا ما ألحق بالمدرسة علوم أخرى يعين لهذه العلوم شيوخ يدرسونها[6].

جـ – عدد المدارس التي يتولاها المدرس : لم يكن يحول بين المدرّس والاشتغال بعدة مدارس في آن واحد أي عائق إلا أن يشترط الواقف ذلك، لذا كانت السمة العامة أن يتولى المدرس العديد من المدارس، وأول من جمع أكثر من مدرسة أبو بكر الشاشي حيث جمع بين النظامية والتاجية،[7] وكان محمد بن القاسم التكريتي (ت : ٦٢٤) يدرس في عدة مدارس، بحيث يلقي في اليوم الواحد عشرين درسا[8]، وأما الرفيع الجيلي (ت : ٦٤١) فقد تولى تدريس العادلية والأمينية والعذراوية والشامية البرانية[9].

د – التعيين والعزل : نتيجة لأهمية وظيفة المدرس ارتبط التعيين والعزل بالدولة، ممثلة بالقضاة، بحيث يتولى القاضي الحكم في المدارس التي تنشئها الدولة ومدارس الوقف على اعتبار أن الوقف ترعاه الدولة ويحفظ في سجلات القضاء.

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٧٤/١٤.
[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣١٦/١٤. *
[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٥٠/١٣.
[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٥٦/١٣.
[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٤٢/١٣. انظر تراجمهم في البداية والنهاية، الفارقي : ٣٢/١٤، وابن صصري : ١١٠/١٤، وابن الزملكاني : ١٣٦/١٤، والعادلية الصغيرة (الصغرى) وقفتها بابا بنت أسد الدين شيركوه بدمشق على الشافعية، النعيمي : الدارس، ٢٧٨/١.
[6]. انظر ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣/١١، ١٥٠.
[7]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٨٤/١٢.
[8]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣٢/١٣. *
[9]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٧٣/١٣. * والمدرسة العذراوية وقفتها الست عذراء بنت صلاح الدين (ت : ٥٩٣) على الشافعية والأحناف، النعيمي : الدارس، ٢٨٣/١.

ويأتي التعيين أو العزل بمرسوم سلطاني، يُقرأ بحضرة القضاة والأعيان، فقد ورد مرسوم سلطاني سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة بتعيين القاضي برهان الدين بن عبد الحق (ت : ٧٤٤) مدرسا بالعذراوية، وعُزلَ القفجاري (ت : ٧٤٥) عنها.[1]

وقد يطلب الشيخ التدريس فيرتحل إلى مصر ليحضر مرسوما سلطانيا بذلك، كما فعل كمال الدين بن الشريشي (ت : ٧١٨) حيث ذهب إلى القاهرة لإحضار مرسوم سلطاني بتوليته المدرسة الناصرية، وكان له ذلك.[2]

وكان الواقف يمثل سلطة أخرى في التعيين، فمن ذلك أن الأمير سيف الدين طيبان عيّن عماد الدين بن شرف الدين للتدريس في مدرسته الطيبانية.[3]

وأما أسباب العزل فمتعددة، ومنها :

١ – **الأسباب السياسية** : فقد يغضب الملك أو الوزير على المدرس لسبب أو لآخر، فيقوم بعزله، فقد عزل المعظم عيسى بن العادل القاضي شرف الدين إسماعيل (ت : ٦٣٠) عن التدريس في المدرسة الطرخانية، عندما رفض إباحة نبيذ التمر وماء الرمان.[4]

وعزل الصالح أيوب (ت : ٦٤٧) الرفيع الجيلي عندما غضب عليه، ففوّض أمر تداريسه إلى الشيخ تقي الدين بن الصلاح،[5] وانتزع القاضي بدر الدين بن جماعة (ت : ٧٣٣) تدريس الغزالية من شمس الدين إمام الكلاسة.[6]

٢ – **تنازع المدرسين على المدرسة** : قد يحصل تنازع بين أكثر من مدرس على إحدى المدارس، وعندها يُرَدُّ الأمر إلى القضاء لينظر في الحكم، فعندما حصل تنازع بين فخر الدين المصري وصدر الدين عبد الكريم بسبب العادلية الصغيرة حُكِم فيها للقاضي فخر الدين.[7]

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢١٧/١٤. انظر ترجمة القاضي برهان الدين في البداية والنهاية، ٢٢٣/١٤، والقفجاري : ٢٢٥/١٤.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٧٠/١٣. انظر ترجمته في البداية والنهاية، ٩٤/١٤.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٤٥/١٤. لم أجدها بهذا الاسم، وإنما باسم الطيبانية، فقد وقفت على الشافعية بدمشق، (النعيمي : الدارس، ٢٥٦/١).

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٤٧/١٣. *

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٧٤/١٣. انظر ترجمة الصالح أيوب في البداية والنهاية، ١٨٨/١٣.

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٢٦/١٣. انظر ترجمة ابن جماعة في البداية والنهاية، ١٧١/١٤.

[7]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢١٤/١٤.

٦ – **الكِبَر والعجز** : فإذا بَلَغ المدرس سنا لا يمكنه معه أداء عمله والقيام بوظيفته، فإنها تؤخذ منه، فعندما كبُر سن بدر الدين بن جماعة وضعُف بدنه أخذت منه التداريس و لم يبق معه منها شيء.[١]

هـ – **صفات المدرسين** : إن استعراضنا لأسماء المدرسين فيما سبق يعطي دلالة واضحة على صفات المدرس في هذه المدارس، فقد كان غالب المدرسين من قضاة المذاهب وشيوخها، وإليهم تشد الرحال، فهم علماء زمانهم إذ اتسع علمهم ودق ضبطهم، واشتهرت عدالتهم وأمانتهم، تجتمع فيهم الفنون الكثيرة من العلوم النافعة، جمعوا فصاحة المنطق واللسان، ولطف الأخلاق، وحسن التصنيف، وعلو الهمة، ونفوذ البصر[٢]، ويصف ابن جماعة صفات المدرسين فيقول : "أن يكون المدرس بها ذا رياسة، وفضل، وديانة، وعقل، ومهابة، وجلالة، وناموس، وعدالة، ومحبة في الفضلاء، وعطف على الضعفاء، يقرب المحصلين ويرغب المشتغلين، حريصا على التفقه، مواظبا على الإفادة".[٣]

وكان للمذهب الفقهي دور بارز في خدمة المدرس، فإذا كانت المدرسة موقوفة على مذهب بعينه، لا يحل أن يدرس بها غيره، فقد اشترط تنكز أن يكون المدرس في مدرسته حافظا لكتاب الله، عالما بمذهب الإمام سراج الدين أبي حنيفة النعمان بن ثابت رضي الله عنه، ملازما لذكر الدرس.[٤]

وذكرنا شرط واقف الركنية أن يبيت المدرس في المدرسة، لذلك تركها علي بن داود القفجاري لأنه لم يكن يبيت.[٥]

واشترط بدر الدين الخروبي (ت : ٧٦٢) في مدرسته الخروبية بمصر ألا يلي أحد من العجم وظيفة بل تكون خاصة بالعرب.[٥]

وكان بعض الواقفين يشترط أن يتولى التدريس بعد المدرس الأول أولاده وذريته من بعده، فقد وقفت ست الشام التدريس في مدرستها الشامية على "قاضي القضاة زكي الدين أبي العباس الطاهر القرشي إن كان حيا، فإن لم يكن حيا فعلى ولده ثم ولد ولده، ثم نسله المنتسبين إليه ممن له أهلية التدريس".[٦]

---

[١]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣٣/١٤.

[٢]. انظر ابن كثير : البداية والنهاية، ١٧٤/١٤.

[٣]. ابن جماعة : تذكرة السامع، ص ٢٠٠-٢٠١.

[٤]. كامل العسلي : وثائق مقدسية، ١١٣/١.

[٥]. المقريزي : الخطط، ٣٢٥/٣، والمدرسة الخروبية : وقفها بدر الدين علي الخروبي(ت : ٧٦٢)، وكان تاجرا للسكر بمصر، المقريزي: الخطط، ١٢٥/٣.

[٦]. النعيمي : الدارس، ٢٢٧/١.

و- **أجور المدرسين :** كانت ترتب أجور المدرسين إما من الدولة، بحيث يخصص لهم رواتب شهرية من بيت المال، كمدرسي المدرسة المستنصرية، وإما من واقف المدرسة، لذلك كانت تختلف رواتب المدرسين من مدرسة لأخرى، بحسب الوقف والواقف، إذ ذكرنا أن لكل مدرسة وقفا من أموال وعقارات، وكانت الرواتب تشمل أموالا نقدية وعينية، فالنقدية كالدنانير والدراهم، والعينية كالخبز واللحم والحلوى، فقد حدد تنكز أجرة المدرس في مدرسته بستين درهما فضة شهريا، ورطل من الخبز يوميا[1]، وقدرت ست الشام راتب المدرس بالشامية بمائة وثلاثين درهما فضة وغرارة من الحنطة، وأخرى من الشعير[2]، وأما المدرسة المستنصرية، فقد خصص الواقف لكل مدرس اثني عشر دينارا في الشهر، يضاف لذلك المواد العينية، كالخبز واللحم والحلوى، والنفقة ما فيه كفاية وافرة لكل واحد[3]، وعندما بنى صلاح الدين مدارسه في القدس أجرى على الفقهاء الجوامك (الرواتب)[4]، وكان يرد المدرسين رواتب أخرى من بقية الوظائف التي يتولونها من قضاء أو خطابة أو نظر، فقد كان القاضي ابن فضل الله العمري (ت : ٧٤٩) يتقاضى شهريا عن وظائفه من الدولة ألف درهم.[5]

وكان يوفر للمدرس أيضا السكن، وخصوصا إذا كان من خارج البلد، فقد قدم أبو الوليد الإشبيلي (ت : ٧١٨) من الأندلس وسكن الصلاحية،[6] وكانت إقامة المدرس بالسكن مرتبطة بتدريسه وإذا ترك التدريس انتقل من السكن، فقد كان ابن خلّكان مقيما في العادلية، ولما عزله عنها الأمير سنجر الحلبي انتقل منها ليسكنها المدرس الجديد نجم الدين بن سني الدولة.[7]

٢- **نائب المدرس :** ومهمته القيام بما يقوم به المدرس عند غيابه، فيُشرف على شئون التدريس، وقد كان يشغل هذه الوظيفة علماء لا تقل درجتهم عن درجة المدرسين، فمن ذلك أن الشيخ محي الدين النووي ناب عن ابن خلّكان في المدرسة الإقبالية، وناب النووي أيضا عن مدرس الركنية[8]، وقد يقوم الابن بالنيابة عن أبيه، كما ناب جمال الدين عبد الصمد الحرستاني (ت : ٦٩٤)

---

[1]. العسلي : وثائق مقدسية، ١/١١٧.

[2]. النعيمي : الدارس، ١/٢٢٨، والغرارة : وعاء خيش يوضع فيه القمح، ثم أصبح من المكاييل، ويعادل ثمانين مُدًّا"، الخطيب، معجم المصطلحات، ص ٣٣.

[3]. ناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية، ١/١١٦.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢/٣٤٨.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٤/٢١٩. انظر ترجمة ابن فضل الله في البداية، ١٤/٢٤١.

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٤/٩٤. *

[7]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣/٣٠٨.

[8]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣/٢٩٤.

عن أبيه عماد الدين الحرستاني (ت : ٦١٤)،[١] وناب ابن تيمية عن أخيه شرف الدين بعد ذهاب أخيه إلى الحج.[٢]

٣- **المعيد** : ومهمته إعادة الدروس التي يلقيها المدرس على الطلبة بعد انتهائه من إلقائها، ويراجعه الطلبة فيما فاتهم من الدرس، ويضبطون عليه ما يكتبون ومن شروط المعيد أن يكون : "من صلحاء الفضلاء وفضلاء العلماء، صبورا على أخلاق الطلبة حريصا على فائدتهم، وانتفاعهم به، قائما على وظيفة اشتغالهم"،[٣] وقد عين الخليفة المستنصر في مدرسته أربعة مدرسين، ولكل مدرس أربعة معيدين[٤]، وعند افتتاح المدرسة الإقبالية ببغداد خُلِع على المعيدين فيها.[٥]

وكان المُعيد على درجة من العلم والضبط ليؤدي وظيفته على وجهها الأكمل، لذلك شغل كثير من العلماء وظيفة مُعيد، فقد كان كمال الدين سلاّر الأربلي (ت : ٦٧٠) شيخ الإمام النووي معيداً بالبادرائية.[٦]

وقد يبدأ الشيخ معيدا ثم يصبح مدرسا، فقد أعاد الشيخ جلال الدين الخبازي (ت : ٦٩١) ببعض مدارس بغداد ثم درس بدمشق بالمدرستين الخاتونية البرانية والجوانية والمزيّة[٧]، وكان ابن الجوزي معيدا في المدرسة المأمونية ثم أصبح بعد ذلك مدرسا فيها،[٨] وقد يكون الشيخ معيدا في مدرسة ومدرسا في مدرسة أخرى في الوقت ذاته، فالحسين بن سلام الدمشقي (ت : ٧١٧) درس بالجاروطية والعذراوية وأعاد بالظاهرية.[٩]

ويخصص للمعيد جراية شهرية أو يومية، فابن قاضي شهبة كان له معلوم عن الإعادة يقوم بكفايته،[١٠] ولقد خصص تنكز للمعيد في مدرسته ثلاثين درهما من الفضة في الشهر، وثلثي رطل خبز

---

[١]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٦٠/١٣. * وانظر ترجمة عماد الدين في البداية والنهاية، ٨٥/١٣.
[٢]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٨٥/١٤.
[٣]. ابن جماعة : تذكرة السامع، ص ٢٠١.
[٤]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٥٠/١٣.
[٥]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣٩/١٣.
[٦]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٧٧/١٣. *
[٧]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٥١/١٣. *
[٨]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٦٣/١٢.
[٩]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٨٨/١٤. *
[١٠]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣٢/١٤.

يوميا[1]، وكان المعيد في المستنصرية يتقاضى ثلاثة دنانير شهريا، وأربعة أرطال خبز يوميا[2]، وكان ينال ما ينال المدرس من مسكن وخبز ولحم وحلوى وإن اختلف المقدار.

٤- الشيوخ الذين يدرسون علوما غير الفقه :

ذكرنا أن بعض المدارس كان يلحق بها علوم أخرى غير الفقه كالقرآن والحديث والطب، وكان يتولى تدريس هذه العلوم شيوخ متخصصون، فمدرس القرآن يطلق عليه شيخ القرآن، ومدرس الحديث يطلق عليه شيخ الحديث، ومدرس الطب يطلق عليه شيخ الطب، وغالبا ما توجد هذه المرتبة في المدارس الكبيرة كالظاهرية والمستنصرية.[3]

وكان يشترط في الشيخ الكفاءة العلمية، فقد اشترط تنكز في شيخ الحديث أن يكون عالي الرواية، مقصودا بالسماع عليه والأخذ عنه، حسن الضبط،[4] وكان يتقاضى أربعين درهما فضة[5]، وكان يتقاضى شيخ القرآن في المستنصرية ثلاثة دنانير كل شهر، وسبعة أرطال من الخبز يوميا[6].

ثاني عشر – طلاب المدرسة :

كانت **ألفاظ الفقيه والمحدث** تطلق في القرون الأولى على من يُدَرِّس الفقه والحديث، وبعد ذلك أصبحت تطلق على من يدْرُسُ ذلك، فالذي يَدْرُس الفقه يسمى فقيها، والذي يَدْرُس الحديث يسمى محدثا، والذي يدرس الفلسفة يسمى فيلسوفا، وأما من يقوم بتدريس الفقه فيسمى مدرسا، ومن يدرس الحديث يُطلق عليه شيخ الحديث وهكذا، ومما يدل على ذلك أن المستنصر عندما وقف مدرسته حدّد فيها عدد الدارسين، حيث يقول ابن كثير : ووقفت على المذاهب الأربعة من كل طائفة اثنان وستون فقيها" [7]، وعند افتتاح المدرسة الإقبالية قال ابن كثير : "وخُلِعَ على المدرس والمعيدين والفقهاء"[8] فهذا التباين يدل على أن طلبة الفقه يُسمَّونَ فقهاء.

أما **أعداد الطلبة** فقد كان مُحدَّدًا وتتفاوت حسب ما يُدرس في المدرسة، فبلغ عدد طلبة المستنصرية ثمانية وستين ومائتين طالبا، منهم ثمانية وأربعون ومائتان يدرسون الفقه وعشرة طلبة لكل

---

[1]. كامل العسلي : وثائق مقدسية، ١/١١٧.
[2]. ناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية، ١/٢٢٩.
[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣/١٥.
[4]. كامل العسلي : وثائق مقدسية، ١/١١٤.
[5]. المصدر السابق، : ١/١١٧.
[6]. ناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية، ١/٣٠٤.
[7]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣/١٥٠.
[8]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣/١٣٨، وانظر ١٣/٢٢٨.

من الحديث والطب، وتعدّ المستنصرية من المدارس الكبيرة،[1] وكانت غالبة المدارس من النوع المتوسط، ومثالٌ على عدد الطلبة في هذا النوع أن فقهاء مدرسة إقبال الشرابي بلغ عددهم خمسة وعشرين فقيها،[2] وقد يُزاد في عدد طلبة المدرسة بين الحين والآخر، فقد زاد الناصر محمد عدد فقهاء مدرسته الناصرية من ثلاثة وثلاثين فقيها من كل مذهب إلى أربعة وخمسين[3]، وكان يشترط في الفقهاء العفاف والاستقامة، فقد اشترطت ست الشام في فقهاء مدرستها "أن يكونوا من أهل الخير والدين والصلاح والعفاف، وحسن الطريقة وسلامة الاعتقاد والسنة والجماعة".

وأما **عمر الطالب** فلم أعثر على نص يبين ذلك، لكنَّ القراءة في الكتّاب في العقد الأول من العمر يُعطي دلالة على أن لا يقل عمُر فقهاء المدارس عن اثني عشرة سنة، ويبدو أن بعض الفقهاء كان يدرس في أكثر من مدرسة في آن واحد، ولم يكن هذا الأمر ممنوعا إلا إذا اشترط الواقف ذلك، فقد اشترط نجم الدين البادرائي واقف البادرائية ألا يجمع الفقيه بينها وبين غيرها من المدارس، وهذا يدل على أنها كانت معروفة، وإلا لما كان لشرطه فائدة.[4]

وكان الفقيه يتقاضى راتبا وتُصرف له كفايته من الخبز واللحم والحلوى ويخلع عليه عند افتتاح المدرسة.

فقد افتتحت المدرسة التي بسوق العجم ببغداد، ورتب واقفها للفقهاء الجوامك (الرواتب) الدارة كل يوم، وخلع على المدرس والمعيدين والفقهاء، ورتب لهم الحلوى أيام المواسم والفواكه في زمانها[5]، وعندما زاد الناصر عدد فقهاء مدرسته زادهم في الجوامك أيضا، وحدد تنكز للفقيه في الشهر عشرين درهما فضة، ونصف رطل خبز، إن كان من المتقدمين، وخمسة عشر درهما ونصف رطل خبز إن كان من المتوسطين، وعشرة دراهم ونصف رطل خبز إن كان من المبتدئين".[6]

وأما فقيه المستنصرية فقد كان يتقاضى دينارين في الشهر، وأربعة أرطال خبز يوميا.[7]

---

[1]. المصدر نفسه : ١٣/١٥٠.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣/١٣٩.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٤/١١٧.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣/٢٠٩.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣/١٣٩.

[6]. كامل العسلي : وثائق تاريخية، ١/١١٧.

[7]. معروف، ناجي : تاريخ علماء المستنصرية، ١/٢٦١.

وقد يترك الأمر لرأي الناظر، فقد نصت وقفية ست الشام عند توزيع أموال الوقف "والباقي مصروف إلى الفقهاء والمتفقهة والمؤذن والقيم على قدر استحقاقهم على ما يراه الناظر في أمر هذا الوقف من تسوية وتفضيل وزيادة ونقصان".[1]

وكان الفقهاء يحاسبون ماليا على الغياب، فيُخصم من راتب الفقيه مقدار من المال عن كل يوم تغيب فيه بلا عذر، ففي وقفية تنكز "ومن غاب منهم بغير عذر شرعي نقص من جاميكيته وجرايته بقدر مدة غيبته".[2]

وكان يلحق بالمدرسة **سكن للطلبة** فقد جعل تنكز أحد عشر بيتا لفقهاء الحنفية في مدرسته بالقدس، وكان من شرطه "ويقدم الفقيه الغريب على الفقيه من أهل القدس، ويقدم العَزَب على المتزوج".[3]

وكان الطلبة يتسابقون على السكن في بعض المدارس، فيتشاحنون في ذلك.[4]

وأما التخرج من المدرسة وما يتعلق به فلم أعثر على ما يعينني في بيان ذلك، إلا أن تنكز حدد لطلاب مدرسته أربع سنوات لحفظ كتاب على مذهب أبي حنيفة، وإن لم يكمل فُصِلَ"[5]، وكانت تنتظر الخريجين وظائف كبرى في الدولة، من قضاء، وخطابة، وإفتاء، وتدريس، فقد تخرج الواسطي (ت : ٦٩٢) من مدارس بغداد، فدرس بالصالحية بدمشق، وكان في آخر عمره شيخ الحديث بالظاهرية.[6]

وهكذا نرى أثر هذه التراتيب والحوافز في تفريغ همِّ الطالب نحو الدرس، ودفع همته نحو التحصيل، وإبعاد جميع الملهيات والمعوقات التي تحول بين الفقهاء وطلبة العلم، وتفتح الأبواب أمام كل من يمتلك القدرات دون اعتبار للون أو جنس، سواء كان فقيرا أم غنيا، لذلك امتلأت بقاع المسلمين بالعلماء والوعاظ والخطباء والمدرسين.

وأما ما نعيشه اليوم من تراتيب تحول بين الطالب وبين التحصيل وتضع العقبات في طريقه، فالمفاسد تحيط به، والدروس مختصرة مقتضبة، وقد يقف الفقر حائلا بين الطالب والتعليم.

---

[1]. النعيمي : الدارس، ٢٢٨/١.

[2]. كامل العسلي : وثائق مقدسية، ١١٤/١.

[3]. المصدر السابق، ١١٣/١.

[4]. انظر المقريزي : الخطط، ٣٢٨/٣.

[5]. كامل العسلي : وثائق مقدسية، ١١٧/١.

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٥٣/١٣. *

ويضاف إلى ذلك ما أنتجته المدرسة المعاصرة من نظم وأفكار بعيدة عن عقيدة الأمة، مما أدى إلى ربط العلوم والمكتشفات بالظواهر الطبيعية دون ربطها بالخالق، فانشطرت شخصية الناشئ نحو نداء الفطرة بالإيمان با لله، وما تفرضه العلوم الحديثة من رد الأمور إلى الطبيعة.

و لم نعد نلمس آثار التعليم في تعديل السلوك نحو ما أمرت به الشريعة، وفي تسخير العلوم لطاعة ا لله.

المطلب الثاني :

المدارس النظامية

لأهمية المدارس النظامية وأسبقيتها، ولدورها المُميِّز رأيت أن أُفرد الحديث عنها بمطلب مستقل.

فالمدارس النظامية تنسب إلى الوزير السلجوقي نظام الملك وقد أشار المقريزي إلى أنها أشهر ما بني في القديم، وأول مدرسة قرر بها للفقهاء معاليم وجرايات،[1] وكان نظام الملك اشتغل قبل ذلك بالعمل والقراءة والفقه على المذهب الشافعي، وقد كان محبا للعلم ومعظما لأهله، حتى إذا دخل عليه أبو القاسم القشيري (ت : ٤٦٥) وأبو المعالي الجويني قام إليهما مرحبا بهما، وأجلسهما على كرسيه، وكانت له نفس مفعمة بحب حديث المصطفى -صلى الله عليه وسلم -، فقد قال : "إني لأعلم بأني لست أهلا للرواية، ولكني أحب أن أربط في قطار نقلة حديث الرسول -صلى الله عليه وسلم -"، وأما تقواه وورعه فظهر في محافظته على الصلوات في أوقاتها، لا يشغله بعد الأذان شغل عنها، وكان مواظبا على صيام الاثنين والخميس.[2]

وأما الأسباب التي وقفت خلف إنشائها فمنها ما ذكرناه سابقا من ظروف سياسية وفكرية، تمثلت في التصدي للامتداد الشيعي، فالسبب : "هو الرغبة في الدفاع المبرمج والمنظم بشكل دقيق ضد أعداء الأمة، والهجمات الشرسة التي باشرتها الباطنية بشكل منتظم ضد الأمة وعقيدتها".[3]

وهناك سبب خر يذكره الدكتور بشار معروف، وهو "أن تقرب نظام الملك من العلماء الأعلام وعنايته البالغة بهم هو الذي يفسر لنا قيامه بتوزيع مدارسه على معظم مدن العراب وخراسان".[4]

إذن فالتصدي للخطر الشيعي، ونشر المذهبين الشافعي والأشعري، ونشر علوم الشريعة، وتقريب العلماء، والعناية بالطلبة، مع ما كان يتصف به من علم وورع، مع وجود فكرة سابقة عن المدارس، كلها عوامل جعلت نظام الملك من السابقين إلى تطوير المدارس، وزيادة ترتيبها وتنظيمها

---

[1]. المقريزي : الخطط، ٣/٣١٤.

[2]. انظر ترجمة نظام الملك، ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢/١٤٩/-١٥٠، وانظر ابن الجوزي : المنتظم، ٦٨/٩. وانظر ترجمة القشيري في البداية والنهاية، ١٢/١١٤.

[3]. السامرائي، حسام الدين : المدرسة مع التركيز على النظاميات : ٢/٣٤٤.

[4]. بشار معروف : مؤسسات التعليم في العراق، ٢/٣٩٢.

والإشراف المباشر من قِبَل الدولة عليها، حتى فاقت في تنظيمها هذا كل ما سبقتها من المدارس، فلما لم يعثر بعض المؤرخين على سابقة لها في هذا التنظيم والترتيب عدّوها أول مدرسة أُنشِئت.

ولم تقتصر هذه المدارس على بغداد وحدها، بل امتدت لتشمل نظاميات بغداد، وبلخ، ونيسابور، وهرات، وأصبهان، والبصرة، ومرو، وآمل، وطبرستان، والموصل، وجزيرة ابن عمر،[١] ولكن ابن كثير سلّط الضوء على نظامية بغداد، ونيسابور أحيانا، ولعلهما الأشهر والأبرز بين باقي النظاميات، وتبعا لذلك سيتناول حديثنا نظامية بغداد بشكل خاص.

شرع نظام الملك في بنائها سنة سبع وخمسين وأربعمائة، وقد اضطر لهدم دور حولها، وذلك لاتساعها وكبر حجمها، وقد أشار الشيخ محمد كرد علي إلى أن عدد غرفها التي كانت معدة للطلاب والمتعلمين لكل قسم من العلوم خمس وستون وثلاثمائة غرفة، عدا قاعات التدريس وأماكن الراحة [٢]، واستمر العمل في بنائها قرابة سنتين، حيث افتُتِح التدريس فيها سنة تسع وخمسين وأربعمائة، ودُعي الناس للاجتماع وحضور افتتاحها، وعُيِّن لتدريسها شيخ الشافعية أبو إسحاق الشيرازي، ولكن ناب عنه في العشرين يوما الأولى أبو نصر بن الصبّاغ (ت : ٤٧٧).[٣]

وقد حرص نظام الملك على أن يتولاها كبار علماء الشافعية، وبلغ من مكانة هذه المدرسة وأهميتها أن ابن كثير تتبع أخبارها سنة بعد سنة يورد ما استجد من أحداثها، وقد ألحِقت بالنظامية خزانة كتب كبيرة، ووقف كثيرٌ من العلماء كتبهم عليها، فمن ذلك أن المؤرخ ابن النجار البغدادي (ت : ٦٤٣) وقف خزانتين من الكتب تساوي ألف دينار، وهو ممن اشتهر بكثرة التصنيف في التاريخ والحديث.[٤]

وقد قام الخليفة الناصر لدين الله بتجديدها سنة تسع وثمانين وخمسمائة، ونقل إليها ألوفا من الكتب الحسنة الثمينة.[٥]

وكانت تحوي أيضا سكنا للمعلمين والطلبة، فكان الكيا الهراسي والغزالي يدرسان بالنظامية، ويقيمان فيها[٦]، ومن الطلبة محمد بن تومرت الذي قدم من المغرب ودرس بالنظامية، وسكن فيها،[٧] وفيما يلي نستعرض وظائف النظامية، وأوضاع مدرسيها وطلبتها ومناهجها :

---

١. السبكي : تاج الدين عبدالوهاب : طبقات الشافعية، ١٣٧/٣، ونظر بتفصيل معروف، ناجي : علماء النظاميات.

٢. حسام الدين السامرائي : المدرسة مع التركيز على النظاميات، ٣٤٩/٢.

٣. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٠٢/١٢. * انظر ترجمة ابن الصباغ في البداية والنهاية، ١٣٥/١٢.

٤. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٨٠/١٣. *

٥. ابن كثير : البداية والنهاية، ٧/١٢.

٦. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٨٤/١٢.

٧. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٩٩/١٢.

أولا – وظائف النظامية :

كان الهدف العلمي الذي يشمل نشر المذهب السني، وبناء المؤسسات التي تساعد على نشر العلم، وقيام العلماء بواجباتهم، وتخريج الطلبة، وحفظ دين الناس وسلامة اعتقادهم، هو أول الأهداف وأولاها التي سعت النظامية لتحقيقه، لذلك تعد في وقتها ولسنين متطاولة أكبر جامعة عالمية إسلامية سُنّية، يؤمها الطلبة من مختلف البقاع وعلى اختلاف الأعمار والمستويات لتخرج بعد ذلك علماء يقودون أمتهم ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

وإضافة لهذه الوظيفة، قامت المدارس النظامية بعدة وظائف، نذكر منها :

أ – نشر الوعي الديني لدى عامة الناس : وتم استخدام أسلوب الوعظ لذلك، حيث يجتمع الناس في النظامية، فيقوم الواعظ مذكرا وناصحا، ومرغبا في الآخرة، ومقللا من الدنيا، وكان يغشى هذه المدارس كبار العلماء، فقد قدم أبو الحسين بن منصور العبادي (ت : ٤٩٧) بغداد سنة ست وثمانين وأربعمائة، فوعظ الناس فيها، وكان يحضر مجلس وعظه أكثر من ثلاثين ألفا من الرجال والنساء،[1] وقدم أيضا أبو الخير القزويني (ت : ٥٩٠) بغداد فوعظ في النظامية.[2]

ب – قصر ضيافة لاستقبال الوفود والقادمين من خارج بغداد : فقد نزلها السلطان ملك شاه سنة تسع وسبعين وأربعمائة.

بالإضافة لما سبق ذكره عند حديثنا عن وظائف المدرسة بشكل عام.[3]

ثانيا – إدارة النظاميات :

تميزت إدارة النظاميات بترتيب إداري محكم، وإشراف دقيق من قبل الدولة، إذ كان الوزير نظام الملك يتابع شئونها أولا بأول، ويُعيّن المدرس الذي يريد، وكان يتولى إدارة المدرسة مجموعة من الموظفين لكل منهم عمله الخاص، وهم :

١ – ناظر النظامية : وهو الذي يرعى جميع الترتيب في المدرسة، بحيث يكون مسؤولا عن حضور المدرس وتدريسه، والطلبة وما يتعلق بهم، وجميع مرافق المدرسة، وممن تولى هذه الوظيفة الشيخ الباقرجي (ت : ٥٥٣)، حيث وقع بينه وبين فقهائها فتنة لطرده جماعة منهم، واكتفى بمائتين، فعُزل

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٥٣/١٢. انظر ترجمته في البداية والنهاية، ١٧٥/١٢.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١١/١٣. *

[3]. انظر في هذا البحث ص : ١٦٣.

على إثر ذلك،[1] وقد يتولى النظارة المدرس نفسه، فقد شغل أسعد المهيني (ت : ٥٢٧) تدريس النظامية والنظر فيها.[2]

٢ – ناظر أوقاف النظامية : ويتولى تحصيل أوقاف النظامية والمحافظة عليها وصرفها في وجوه استحقاقها، وقد شغل ابن المحتسب الشاعر (ت : ٥٩٨) منصب ناظر الأوقاف فيها[3].

٣ – الهيئة التدريسية : وتتكون من المدرس، والمعيد، وشيوخ العلوم الأخرى :

أ– المدرس : كان يتولى التدريس في النظامية مدرس واحد يقوم على تدريس العلوم الشرعية، ويعينه الوزير بموافقة الخليفة وبمرسوم السلطان، فقد تولى يوسف الدمشقي تدريس النظامية، وخلع عليه، ولما لم يكن ذلك بإذن الخليفة بل بمرسوم السلطان مُنِع من ذلك، وتولاها الشيخ أبو النجيب بإذن الخليفة ومرسوم السلطان[4]، وكان يُعين للتدريس في النظامية كبار شيوخ الشافعية، وكانت النفوس تشرئب الأعناق تتطاول لنيل هذه الوظيفة، وقد تتبع الأستاذ ناجي معروف من تعاقب عليها من المدرسين منذ نشأتها حتى سنة ثمان وستين وسبعمائة، فبلغوا ستمائة مدرس من كبار علماء عصرهم ومِصرِهِم.[5]

وممن شغلها أبو إسحاق الشيرازي والجويني والكيا الهراسي الطبري، والغزالي والشاشي، وغيرهم ممن جمع فنون العلم وسعة الفهم وحسن التصنيف.

وكانت تجري عند تعيين المدرس مراسم شبيهة بمراسم غيرها من المدارس التي سبق ذكرها، فيخلع على المدرس والفقهاء، وعادة ما تكون الخلعة سوداء والطرحة كحلى[6]، وأما عمر المدرس فالغالب فيه تجاوز الأربعين، فقد عدّ ابن كثير تدريس الغزالي (ت : ٥٠٥) في النظامية وهو ابن أربع وثلاثين سنة أمرا مستغربا يدل على تفوقه وسيادته، إذ يقول "وساد في شبيبته حتى إنه درَّس في النظامية ببغداد في سنة أربع وثمانين وله أربع وثلاثون سنة".[7]

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٠٧/١٢.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٠٦/١٢. وانظر معروف، ناجي : علماء النظاميات، ٣٣-٣٦.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٧/١٣. *

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٤٥/١٢.

[5]. انظر ناجي معروف : علماء النظاميات، ٢١-٢٥.

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٦/١٣.

[7]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٨٥/١٢. *

وقد يجمع المدرس مع النظامية غيرها من المدارس، حيث جمع أبو بكر الشاشي بين النظامية والتاجية[1]، وجمع أسعد المهيني بين تدريس النظامية ونظّارتها، ولم يكن ليُعيَّن فيها سوى شيوخ الشافعية.

وقد يشترك أكثر من مدرس في التدريس فيها تناوبا، ففي سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة، ورد إلى الفقيه أبي عبد الله الطبري، منشور نظام الملك لتدريس النظامية، ثم قدم الفقيه أبو محمد عبد الوهاب الشيرازي (ت : ٥٠٠) بمنشور آخر لتدريسها، فاتفق الحال أن يُدرس هذا يوما وهذا يوما.[2]

أما رواتب المدرسين فلا نص يحدده ولا ريب أنها كانت كبيرة، لعلوّ هذه الوظيفة ومكانة مدرسها، وكان يطلق أحيانا على مدرس النظامية لقب شيخ النظامية، فقد عُرف سراج الدين النهرقلي بشيخ النظامية.[3]

ب – نائب المدرس : ويتولى التدريس حال غياب المدرس، وممن شغل هذه الوظيفة أبو الحسن ابن سعاد الفارسي (ت : ٦٠٢) فقد كان معيدا في النظامية ثم ناب في تدريسها[4]، ومنهم أبو جعفر ابن الصباغ ويحيى بن الربيع (ت : ٦٠٦).[5]

جـ – المعيد : وقد أشرنا إلى وظيفته سابقا، ولكن المعيد في النظامية يشغل مرتبة مدرس في غيرها، لعلو مكانتها، فقد جمع أبو النجم محمد بن القاسم التكريتي (ت : ٦٢٤) بين الإعادة في النظامية والتدريس في غيرها، واستمر كذلك حتى وفاته[6]، ودرّس أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد (ت: ٦٢٤) في الثقفية وكان معيدا في النظامية[7]، وكان المعيد يتقاضى راتبا ويوفر له سكن.

وبلغ عدد المعيدين فيها حتى سنة اثنين وسبعمائة خمسة وثلاثين معيدا.[8]

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٨٤/١٢.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٤٥/١٢. انظر ترجمة عبدالوهاب الشيرازي في البداية والنهاية، ١٨٠/١٢.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٩٤/١٣.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٤٩/١٣. *

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٥٩/١٣. *

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣٢/١٣. *

[7]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣٢/١٣. *

[8]. انظر ناجي معروف : علماء النظاميات، ص ٢٦-٢٨.

د – شيخ العلوم الأخرى : فكانت تعقد في النظامية حلقات في النحو يطلق على مدرسها شيخ النحو، وممن اشتغل بهذا المنصب الوجيه الأعمى (ت : ٦١٢)، فكان يلقب بشيخ النحو في النظامية[١]، وشغل أبو منصور الجواليقي (ت : ٥٤٠) منصب شيخ اللغة[٢].

وكان شرط نظام الملك في المدرس، والواعظ، ومناول الكتب، ومقرئ القرآن، والنحوي، أن يكون شافعيا.[٣]

ثالثا – مواد النظامية :

كان تدريس الفقه الشافعي أهم المواد التي يتم تدريسها، وقد كان نظام الملك شافعي المذهب، ويضاف للفقه تدريس العقيدة الاشعرية، وقد ألف أبو المعالي الجويني كتاب في العقيدة الأشعرية، سمّاه العقيدة النظامية[٤]، ونتيجة لتدريس هذه العقيدة نشأت نزاعات عديدة بين فقهاء النظامية والحنابلة، فقد ذم ابن القشيري الحنابلة، ونسبهم إلى التجسيم، فثارت فتنة أدت إلى مقتل كثيرين وجرح آخرين[٥]، وفي فتنة أخرى وقع بينهم عشرون قتيلا[٦]، ومن العلوم التي كانت تدرس أيضا الفرائض والأدب والكلام والحديث والتفسير والجدل.[٧]

رابعا – طلاّب النظامية :

كانت النظامية محط أنظار الطلبة ومهوى أفئدتهم، من مختلف البلاد الإسلامية، بحيث يشدّ الطلبة إليها رحالهم، فقد ارتحل إليها الطلبة من الأندلس وتكريت والموصل والأنبار وقزوين وأربيل وغيرها.[٨]

وساعد على ذلك تولي كبار الشيوخ للتدريس فيها، وما توفره المدرسة من نفقات ومسكن للطلبة، وقد وقفها نظام الملك على أصحاب الشافعية أصلا وفرعا، كما بين ذلك في كتاب الوقف.[٩]

---

١. ابن كثير : البداية والنهاية، ٧٦/١٣. *
٢. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٣٦/١٢. *
٣. ابن الجوزي : المنتظم، ٦٦/٩.
٤. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣٧/١٢.
٥. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢٣/١٢.
٦. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢٥/١٢.
٧. حسام الدين السامرائي : المدرسة مع التركيز على النظاميات، ٣٥١/٢.
٨. انظر ناجي معروف : علماء النظاميات، ص ٢٨-٣٣.
٩. ابن الجوزي : المنتظم، ٦٦/٩.

وأما أعداد الطلبة، فتدل قصة الباقرجي بعد أن طرد جماعة من فقهاء نظاميّة بغداد، سنة سبع عشرة وخمسمائة على أن عددهم بين المائتين إلى الثلاثمائة، إذ يقول ابن كثير : "وقع بينه وبين الفقهاء فتنة لسبب أنه قطع منهم جماعة، واكتفى بمائتي طالب منهم".[1]

وقد ورد كثير من الطلبة إلى النظامية من بلاد متعددة منهم محمد بن تومرت مؤسس دولة الموحدين حيث درس في النظامية على يد الغزالي، وغيره، وعاد بعدها إلى بلاده[2]، وتردد عليه التلاميذ من شتى بقاع المغرب، وعن طريقه انتقل المذهب الأشعري في المغرب.[3]

وقدم العماد الأصفهاني من أصفهان إلى بغداد، ودَرَسَ في النظامية على مدرسها الشيخ أبي منصور سعيد بن الرزاز،[4] وقدم أبو محمد بن مفتاح التميمي الدينوري (ت : ٦٣٢) من دعور فدرس في النظامية ثم عاد إلى بلده مفتيا ومدرسا.[5]

وكانت الدولة تتكفل بالنفقة الكاملة للطلبة والتي تشمل الجرايات والطعام والمسكن، وكان طلاب النظامية الذين يتخرجون يتأهلون لنيل الوظائف الكبيرة في الدولة، فقد تفقه أبو المظفر بن علوان (ت : ٦١٥) منها، و ساد أهل زمانه[6]، وتخرج أيضا العماد الأصفهاني صاحب المصنفات والرسائل، وكاتب الدولة الصلاحية وغيرهم، وقد يصبح الخريج معيدا ومدرسا فيها، كما حصل مع أبي علي يحيى بن الربيع إذ تفقه على ابن فضلان ثم أعاد عنه، وأصبح بعد ذلك مدرسا فيها وناظرا على أوقافها.[7]

ودرس أيضا ابن بندار الدمشقي (ت : ٥٦٣) في النظامية، وأصبح بعد ذلك مدرسا فيها[8]، ومن هنا يمكننا القول أن مصير النظامية هي الجامعة التي تخرج فيها كبار القادة والعلماء والفقهاء.

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٠٧/١٢.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٩٩/١٢.

[3]. انظر عبدالحميد : سعد زغلول : محمد بن تومرت وحركة التجديد في المغرب.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٣/١٣.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٥٣/١٣. *

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٨٩/١٣. *

[7]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٥٣/١٣.

[8] ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٧٣/١٢. *

المطلب الثالث :

دور الحديث

إذا كانت القرون الثلاثة الأولى تمثل عصر الرواية والاهتمام بالحديث من حيث الصحة والضعف والبحث عن حال الرجال، جرحا وتعديلا، ومتن الحديث ضبطا وتفسيرا، فإن الحال في القرون اللاحقة قد اختلف وتركز الاهتمام على علم الفقه، لذلك قلّت مؤسسات تدريس الحديث مقارنة بالمدارس المعدّة لتدريس الفقه.

وأما أبرز مؤسسات تدريس الحديث فهي دور الحديث، وأما أول من أنشأها فقد وردت روايتان مختلفتان في ذلك، فقد كان أول ذكر لها عندما اجتمع في مصر ابن جرير الطبري ومحمد ابن نصر المروزي ومحمد بن المنذر في دار يكتبون الحديث، ولم يكن عندهم شيء يقتاتونه، فوصل الخبر إلى حاكم مصر طولون -وقيل أحمد بن طولون- فأرسل إليهم ألفي دينار، واشترى تلك الدار، وبناها مسجدا، وجعلها على أهل الحديث وأوقف عليها أوقافا كثيرة.[1]

وأما الرواية الثانية، فقد جاء في ترجمة نور الدين زنكي أنه ابتنى بدمشق دارا واسعة لاستماع الحديث وإسماعه، ونقل ابن كثير قول ابن الأثير (وهو أول من بنى دار حديث)[2]، فهذه الرواية تنص صراحة على أن أول دار حديث كانت تلك التي بناها نور الدين، ومن المحتمل أن الدار التي بناها طولون كانت عامة، فيرد مسجدها من شاء ويشتغل فيها من شاء، دون أن تقوم الدولة على ترتيب أمورها وتنظيمها، بينما كانت دار نور الدين مرتبة منظمة، حُدد عدد طلبتها وعين مدرسها، وجرَت عليهم النفقات، وقد أكد المقريزي أن نور الدين هو أول من بنى دار حديث.[3]

وبين الأستاذ ناجي معروف أن هناك دورا للحديث قبل دار الحديث النورية، حيث قال : "وأما دور الحديث فنذكر منها دارين في نيسابور أيضا هما دار الحديث البسطامية ودار الحديث الصبغية، أنشئتا في الثلث الأول من القرن الرابع الهجري، وهما تسبقان دار الحديث النورية بدمشق بأكثر من قرنين وثلث القرن".[4]

وتوالت بعد ذلك حركة بناء **دور الحديث**، وشارك فيها الجميع رجالا ونساء وكانت هذه الدور على **نوعين** :

---

1. ابن كثير : البداية والنهاية، ١١/١٠٩-١١٠.
2. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢/٣٠١.
3. المقريزي : الخطط : ٣/٣٣٥.
4. ناجي معروف : مدارس قبل النظامية، ص ٢٦.

أ – **دور مستقلة في بنائها :** بحيث يكون لها مبنى، وأوقاف، ومدرسون، وطلبة، خاصة بها، ومن أشهرها دار الحديث الكاملية بمصر، التي بناها الملك الكامل بن العادل (ت : ٦٣٥) سنة إحدى وعشرين وستمائة، وأول من تولى مشيختها أبو الخطاب بن دحية الكلبي (ت : ٦٣٣)،[١] ودار الحديث الأشرفية بدمشق التي بناها الأشرف موسى بن العادل سنة ثلاثين وستمائة،[٢] ودار الحديث السكرية بدمشق التي أنشأها سيف الدين تنكز سنة تسع وثلاثين وسبعمائة وجاءت في غاية الحُسن.[٣]

ب – **دور الحديث الملحقة بمؤسسات أخرى :** فكانت أحيانا تُلحق بالمدارس، حيث أقام الظاهر بيبرس بمدرسته الظاهرية دارا للحديث،[٤] وتشترك أحيانا دور الحديث مع دور القرآن، فقد وقف شمس الدين بن الصبّاب مدرسته الصبّابية وجعلها دار حديث، ودار قرآن للحنابلة، وخانقاه لالصوفية،[٥] وتلحق بالترب أحيانا مثل دار الحديث في تربة أم صالح،[٦] وكان بعض العلماء يقف داره دار حديث، مثل أبي الفداء إسماعيل بن صدقة الحراني (ت : ٦٩٦)، حيث وقف داره دار حديث.[٧]

وكان يطلق أحيانا على دور الحديث اسم مدرسة، كالمدرسة الوداعية التي اقتصرت على تدريس الحديث،[٨] وكانت غالب دور الحديث تخص مذهبا بعينه، فدار الحديث الأشرفية بجبل قاسيون التي بناها الأشرف بن موسى كانت وقفا على الحنابلة، وابتنى الأشرف نفسه دار حديث أخرى للشافعية.[٩]

ووقف الأمير آغا سنقور الفارقاني مدرسة للحنفية، وألحق بها مشيخة حديث لهم،[١٠] وكان يلحق بدور الحديث مكتبة تعين الشيخ والطالب على الوقوف على ما كتبه السابقون، واستخراج المسائل من مظانّها، فقد ألحق الأشرف بدار الحديث الأشرفية كتبا سُنِّيَّةً نفيسة، ووقف صفي الدين

---

١. ابن كثير : البداية والنهاية، ١١٣/١٣. انظر ترجمة الملك الكامل في البداية والنهاية، ١٥٩/١٣، وأبو الخطاب : ١٥٥/١٣.

٢. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٤٦/١٣.

٣. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٠١/١٢.

٤. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٥٦/١٣.

٥. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٧١/١٣. انظر النعيمي : الدارس، ٩٤/١.

٦. ابن كثير : البداية والنهاية، ٩٤/١٤.

٧. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٧٢/١٣. *

٨. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٢٠/١٤.

٩. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٥٨/١٣.

١٠. ابن كثير : البداية والنهاية، ٧٦/١٣. *

الهندي (ت : ٧١٥) كتبه فيها،[1] ووقف الحافظ البرزالي (ت : ٧٣٩) كتبه بداري الحديث السنية والقوصية.[2]

ويلحق بدور الحديث سكنٌ للمدرسين والطلبة، وقد سكن المزي بدار الحديث الأشرفية، وكان يسكنها قبله تقي الدين بن الصلاح.[3]

ومراسم افتتاح دور الحديث شبيهة بمراسم افتتاح المدرسة، فلا حاجة للتكرار،[4] وتشبه المدرسة كذلك في مواردها وكتاب وقفها.

وأما الهيئة التدريسية بدور الحديث فتضم :

١ - **شيخ دار الحديث** : وهي من الوظائف الهامّة، التي شغلها كبار علماء الحديث، فممن درّس بدار الحديث الأشرفية بدمشق، تقي الدين بن صلاح، وشهاب الدين أبو شامة ومحي الدين النووي، والمزّي، وتولى ابن تيمية تدريس دار الحديث السكرية، التي بالقصاعين، بعد وفاة أبيه سنة اثنين وثمانين وستمائة،[5] والذي يظهر لنا بعد عرضنا لهذه الأسماء سعة العلم وطيب الصفات التي كان يتمتع بها شيوخ الحديث.

وكان الواقف كثيرا ما يحدد شروط شيخ الحديث في وقفه، فمن شروط الأمير تنكز "أن يكون عالي الرواية مقصودا بالسماع عليه، والأخذ عنه حسن التصنيف".[6]

وكان بعضهم يشترط في الشيخ مذهبا محددا، سواء في الفقه أو العقيدة، فقد كان شرط شيخ دار الحديث الأشرفية أن يكون أشعريا، فوليها الحافظ المزي بعد أن أثبت على نفسه أنه أشعري، وحينما أراد توليها شمس الدين الذهبي منع من ذلك بسبب عقيدته.[7]

وكثيرا ما يجمع شيخ الحديث غيرها من الوظائف، فقد جمع شرف الدين المقدسي (ت : ٦٩٤) بين تدريس الغزالية ودار الحديث النورية.[8]

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٧٦/٤. *

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٩٧/١٤. ودار الحديث القوصيّة وقفها شهاب الدين إسماعيل بن حامد الخزرجي (ت : ٦٥٣) بدمشق، (النعيمي : الدارس : ٧٢/١).

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٣٦/١٣، وانظر ١٨٠/١٣.

[4]. انظر ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٥٦/١٣.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٢٠/١٣،وهي غير السكرية التي بناها تنكز.

[6]. كامل العسلي : وثائق مقدسية، ١١٤/١.

[7]. بشار معروف : مقدمة سير أعلام النبلاء، ٣٩/١.

[8]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٦١/١٣.

وكان المدرس يتقاضى راتبا عند تدريسه، فقد ورد عن افتتاح دار الحديث السكرية سنة تسع وثلاثين وسبعمائة أن شيخها شمس الدين الذهبي كان يتقاضى في الشهر ثلاثين درهما، ورطلا من الخبز[1]، ولا يعني ذلك أن حال غيرها مثلها.

فقد كان شيخ الحديث في مدرسة تنكز يتقاضى أربعين درهما فضة، ورطلا من الخبز يوميا [2]، وفي المستنصرية، وكان شيخ الحديث يتقاضى ثلاثة دنانير وستة أرطال خبزا.[3]

وأيضا، كان يتقاضى الشيخ رواتب أخرى من وظائف أخرى، سواء أكانت إفتاء أو قضاء أو خطابة أو تدريسا.

٢ – قارئ الحديث : وتشبه وظيفته وظيفة المعيد في المدرسة، حيث يقوم هذا القارئ بقراءة الحديث أمام الشيخ وعلى أسماع الطلبة، ويصحح الطلبة بعد ذلك ما كتبوه عليه، وكان للقارئ نواب يعينونه، ويتصدرون مكانه عند غيابه، فقد رتب الأمير تنكز في دار الحديث السكرية قارئا ونوابا له، وكان في المستنصريّة شيخ حديث وقارئان.[4]

فقد اشترط تنكز في قارئ الحديث في مدرسته التي بالقدس "أن يكون حسن الفهم حسن القراءة".[5]

ويشترط في قارئ الحديث أن يكون من أهله، وممن يحفظونه، ويحدد الواقف الكتب التي يُسمعها القارئ، وعادة ما يكون صحيح البخاري وصحيح مسلم.[6]

وأما راتب المقرئ فيختلف من دار لأخرى، فقد كان يتقاضى قارئ الحديث في المستنصرية دينارين وعشرةَ قراريط، وأربعةَ أرطال خبزا.[7]

وأما قارئ مدرسة تنكز في القدس، فكان يتقاضى عشرين درهما ونصف رطل خبزا.[8]

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٩٥/١٤.

[2]. العسلي : وثائق مقدسية، ١١٤/١.

[3]. ناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية، ٣٢٠/١.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٥٠/١٣.

[5]. العسلي : وثائق مقدسية، ١١٤/١.

[6]. انظر العسلي : وثائق مقدسية، ١١٤/١.

[7]. ناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية، ٣٢٠/١.

[8]. العسلي : وثائق مقدسية، ١١٧/١.

وأما **طلاب دور الحديث** فقد كان يطلق عليهم لقب محدثين، نسبة إلى العلم الذي يدرسونه، وكان لكل دار عدد محدد من المحدثين، ففي المستنصرية عشرة، لكل منهم ثلاثة عشر قيراطا وثلاثة أرطال خبزا[1]، وفي السكرية ثلاثون، ولكل منهم سبعة دراهم ونصف رطل خبزا في الشهر.[2]

وأما **مواد التدريس** فهي علم الحديث بجميع فروعه، ولا يمنع هذا تدريس غيره من العلوم، فقد درّس كمال الدين بن الزملكاني في دار الحديث الأشرفية الحديث والتفسير والفقه[3]، إلا أن المادة الرئيسة هي الحديث.

---

[1]. ناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية، ١/٣٢٠.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٤/١٩٥.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٤/٦١.

المطلب الرابع :

دور القرآن

لمكانة القرآن الكريم وأهميته كمصدر رئيسي في التشريع والأجر الذي يترتب على تلاوته وتعلّمه وتعليمه، لذلك كله كان القرآن يدرس في أغلب المؤسسات التعليمية، ومن أبرز هذه المؤسسات الأماكن الخاصة لتدريس القرآن، وهي التي عُرفت بدور القرآن، إذ استقلت في بنائها، وتنظيمها، وجميع شئونها، ومن ذلك الدار التي وقفها علاء الدين السنجاري (ت : ٧٣٥) بباب الناطفيين بدمشق[١]، ومثلها مدرسة التاجر بافريدون (ت : ٧٤٩)، حيث جعلها دارا عظيمة للقرآن، ووقف عليها أوقافا دارّة[٢]، وابتنى الشيخ أبو عمر المقدسي دارا للمشتغلين بالقرآن من الفقراء.[٣]

وإلى جانب ذلك، اشتركت بعض الدور بين القرآن، كالمدرسة الصبابية، ودار الحديث السكريّة، حيث رُتب فيها عدد من طلبة القرآن مساوٍ لعدد طلبة الحديث، وبلغ عدد كل منهما ثلاثين طالبا.

وجعل فيها واقفها لكل طالب سبعة دراهم ونصف رطل خبزا في الشهر،[٤] وقد أُطلِقَ على الطلبة لفظ قارئ، وعلى المدرس لفظ شيخ الإقراء.

ومن المؤسسات التي كان يُدرّس فيها القرآن المدرسة والرباط والزاوية والتربة، ويضاف لذلك أن بعض الشيوخ كانوا يقومون بتختيم الناس القرآن في أماكن متعدّدة، فمنهم أبو منصور الخناط (ت : ٤٩٩) حيث ختّم ألوفا من الناس.[٥]

وكانت **مواد التعليم في دور القرآن** تشمل أغلب علوم القرآن من تفسير وقراءات وإعراب، وترتيب وتجويد، والكتب التي تناولت ذلك بالإضافة للحفظ.[٦]

---

١. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٨٠/١٤. *

٢. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٣٩/١٤.

٣. ابن كثير : البداية والنهاية، ٦٤/١٣.

٤. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٩٥/١٤.

٥. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٧٧/١٢.*

٦. انظر ابن كثير : البداية والنهاية، ٩١/١٤، وناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية، ٣٠٢/١.

المطلب الخامس :

التُّرب

ومفردها تربة، وقد جاء في لسان العرب : تربة الإنسان رِمسُه، أي مكان دفنه، بتسوية التراب عليه، واستمر إطلاقها على مكان دفن الموتى، إلا أنه أضيف لها وظيفة التعليم، بحيث يبنى مكان خاص بالتعليم فيها، بجانب مكان دفن الموتى، فأصبحت التُّرب أماكن للعلم تلحق بالقبور لاكتساب الأجر.[1]

وكان لكل عائلة أو فئة تربة خاصة يدفن فيها أبناؤها، مثل تربة آل القلانسي[2]، وتربة الصوفية التي دُفن فيها ابن تيمية وابن كثير.[3]

وأصبحت الترب مؤسسات تعليمية، ودورا لنشر العلم، فقد وقف صلاح الدين تربة على قبر الإمام الشافعي، وأنشأ فيها الدروس، وممن درّس فيها نجم الدين الجيوشاني (ت : ٥٨٧)[4]، ووقف الأمير عز الدين بن مسعود بن المودود (ت : ٥٨٩) مدرسة عند تربته التي أوصى أن يُدفن فيها.[5]

ومن أشهر الترب في دمشق تربة أم صالح، حيث رُتّب فيها مشيخة حديث تولاها كبار المحدثين، منهم ناصر الدين المقدسي (ت : ٦٨٩)، وكمال الدين الشريشي، وشمس الدين الذهبي، وكانت بعض التُّرب تضم سكنا للمدرس فيها، وتلحق بها مكتبة، فقد وقف المجد البهنسي (ت : ٦٢٨) كتبه على تربته بجبل قاسيون.[6]

وكانت بعض التُّرب كبيرة بحيث تضم مسجدا أو رباطا أو مكتب أيتام وقرّاء للقرآن، ومن الأمثلة على هذه الترب تربة ستيته بنت الأمير سيف الدين (ت : ٧٣٠).[7]

وخُصصت بعض الترب لمذهب محدد كالتربة التي أنشأها نور الدين زنكي للحنفية، وأمر أن يُدفن فيها.[8]

---

[1]. ابن منظور : لسان العرب، ٢٢٨/١.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٥٨/١٤.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٤١/١٤.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٦٩/١٢. *

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٨/١٣. *

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٤٠/١٣. *

[7]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٥٨/١٤. *

[8]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٠٤/١٢.

ويحدد الواقف الأوراد التي تُقرأ في تربته، فقد شرط القاضي عثمان على المقيمين في تربته أن يقرأ كل واحد منهم كل يوم جزءا من القرآن، ويقرؤون سور الإخلاص والمعوذتين وآية الكرسي، وأوائل سورة البقرة، وخواتمها، ثم يختمون بالدعاء للواقف، ولوالديه وللمسلمين أجمعين".[1]

وكالمؤسسات السابقة، فقد كان الجهاز الإداري للتربة يتكون من الناظر، وناظر الوقف، والمدرسين، فقد كان نجم الدين الجيوشاني ناظرا لتربة الإمام الشافعي بمصر.[2]

وتعدّ الترب من أفضل الأمكنة للوعظ والتذكير لما تتركه من أثر في النفوس، وترقيق للقلوب بسبب القبور التي فيها، وقد كان ابن الجوزي يعظ الناس عند التربة الشريفة ببغداد.[3]

---

[1]. صلاح المنجد : وقفية القاضي عثمان ص ٣٢.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٦٩/١٢.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٣/١٣.

المطلب السادس :

الرُّبط

ربط الشيء يربطه بعني شدّه، والرباط المواظبة على الأمر،[1] وكان الرباط في بداية نشأته مكانا مخصصا للمجاهدين المقيمين في الثغور المتاخمة لحدود العدو حتى يبقى المجاهدون متأهبين لقتال العدو، ومهاجمة حصونه، وفي هذه المرحلة أصبح الرباط مؤسسة للوعظ والعبادة، يأوي إليها عامة الناس، ممن زهِدَ في الدنيا وأقبل على الآخرة، فقد شُبِّهَ أداء الأفعال الصالحة في أماكن خاصة ولزوم صاحبها لها رباطا.[2]

فقد اعتزل أبو الفتح الحاكم (ت : ٤٩٩)، وترك المناظرة والتدريس، وأقبل على العبادة، فبنى من ماله رباطا للصوفية وأقام فيه[3]، واعتزل الإمام الغزالي فالتحق برباط في بيت المقدس، وأقام فيه، فكان الناس يجتمعون إليه ويسمعونه.[4]

وكانت هذه المؤسسة تفتتح أبوابها لعامة الناس، وخصوصا الفقراء، الذين لا يمكنهم الالتحاق بالمدارس أو دور القرآن والحديث.

وغلب على أهل الربط شدّة العبادة، والانقطاع عن الخلق، وملازمة الأوراد واجتناب الغفلات.[5]

وكان يتولى التدريس في الرباط شيخ يطلق عليه شيخ الرباط، ويخصص له راتب من وقف الرباط، فقد كان الشيخ شهاب الدين عمر بن محمد الشهرزوري شيخا لرباط الموريانيّة، ومعه في الرباط جماعة من الصوفية، رُتب للجميع من المعلوم والجراية ما ينبغي لمثلهم[6]، وتولى كمال الدين ابن الشريشي، مشيخة الرباط الناصري.[7]

---

[1]. ابن منظور : لسان العرب، ٣٠٢/٧.

[2]. انظر المقريزي : الخطط، ٤٢٢/٣.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٧٧/١٢. *

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٥٥/١٢.

[5]. المقريزي : الخطط، ٤٢٣/٣.

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٨/١٣.

[7]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٩٤/١٤. والرباط الناصري : وقفه الملك الناصر الأيوبي بسفح جبل قاسيون، (العلبي : خطط دمشق، ص ٤١٢).

ويتولى الإشراف على الرباط ناظر الرباط، وممن تولى هذه الوظيفة الشيخ علاء الدين أبو الحسن بن الزملكاني (ت : ٦٩٠)، فقد كان ناظرا لرباط الصالحية.[١]

وقد يلحق بالرباط أحيانا دارُ حديث، فقد بنى أبو البقاء النّعالي الحنبلي (ت : ٦٠٩) رباطا لأهل العلم من المقادسة،[٢] وبنى عز الدين أبو يعلى بن القلانسي (ت : ٧٢٩) رباطا ووقف عليه دار حديث.[٣]

وكانت بعض الربط خاصة بالنساء والعجائز أو المطلقات أو المهجورات حتى يتزوجن، أو يرجعن إلى أزواجهن صيانة لهن،[٤] فقد كان لفاطمة بنت الحسين بن فضلويه (ت : ٥٢١) رباطا تجتمع فيه النساء فتقوم بوعظهن.[٥]

وبنى الأمير تنكز رباطا للنساء، بجانب مدرسته التي ببيت المقدس، وجعل فيه اثني عشرة امرأة، مسلمات خيِّرات، صالحات، من العجائز الخاليات من الأزواج، وألحق بالرباط شيخة وقيِّمة، وشرط على الجميع الاجتماع يوميا، بعد صلاة الصبح، بحيث يقرآن سور الإخلاص والمعوذتين والفاتحة، ثم يقمن بالدعاء والصلاة على النبي (ﷺ)، ويختمن بالدعاء للواقف.[٦]

---

١. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٤٥/١٣. *

٢. ابن كثير : البداية والنهاية، ٧٠/١٣. *

٣. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٥٤/١٤. *

٤. حياة الحجي : السلطان الناصر محمد، ص ١٣٨.

٥. ابن كثير : البداية : ٢١٢/١٢. *

٦. العسلي : وثائق مقدسية، ١١٦/١.

المطلب السابع :

المشاهد

ومفردها مشهد، ويطلق على الجمع من الناس أو محضر الناس[1]، وفي الاصطلاح : مقامات تبنى على قبور الأئمة وكبار العلماء والصالحين وتتبرَّك بها العامة، مثل مشهد الحسين، ومشهد علي، ومشهد أبي حنيفة.[2]

وأصبحت تلحق بهذه المشاهد غرف وإيوانات يتم فيها التدريس، ويجتمع فيها الطلبة، وبلغ من شهرة علمائها أن الطلبة كانوا يرتحلون إلى مصر نحو مدرس مشهدي الحسين والشافعي شمس الدين الأصفهاني (ت : ٦٨٨)[3]، وكان المشهد يضم مكتبة، فقد وقف ابن أبي أُصيبعة (ت : ٦٦٨) كتابه تاريخ الأطباء في عشر مجلدات على مشهد ابن عروة بالجامع الأموي، المنسوب لسيف الدين محمد ابن عروة الموصلي (ت : ٦٢٠).[4]

ويتبع المشهد مدرسٌ له كما ذكرنا وشيخ يُشرف عليه، فقد كان عبد الرحمن بن يوسف البعلبكي (ت : ٦٨٨) شيخ مشهد عروة.[5]

---

[1]. ابن منظور، لسان العرب : ١٤/٣٦٤..

[2]. مصطفى الخطيب، معجم الألفاظ : ص ٣٩٨.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣/٣٣٤. *

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣/٢٧٢.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣/٣٣٤. *

المطلب الثامن :

الزوايا

وأصلها مأخوذ من زَوِيَ، فانزوى القوم بعضهم إلى بعض، إذا تدانَوا وتَضامنوا[1]، وفي الاصطلاح : مكان يتخذ للاعتكاف والعبادة والمطالعة.[2]

وقد فضّل بعض الشيوخ الاعتزال في أماكن خاصة للتفرغ للعبادة، فكانوا يقيمون في دور عُرفت باسم الزوايا، ولفظها يحمل معنى العزلة والانزواء عن الناس، وأصبحت تعرف هذه الزوايا باسم الشيوخ المقيمين فيها،[3] بالإضافة لبعض الزوايا التي عرفت باسم بعض فرق الصوفية مثل زاوية الحيدرية؛[4] فقد كانت غالب هذه الزوايا تتبع الحركة الصوفية وشيوخها، وتعقد فيها حلقات الإنشاد الجماعي، وبعض التقاليد الصوفية،[5] وقد قام كثير من سلاطين الأيوبيين والمماليك بإنشاء الزوايا تقديرا لشيوخهم، فقد بنى الظاهر بيبرس زاوية لشيخه الخضر (ت : ٦٧٦).[6]

وكانت بعض الزوايا مذهبية، فهناك زاوية للشافعية، وأخرى للحنفية، وثالثة للمالكية.

وأُلحِق بالزوايا مكتبات خاصة بها، إذ وقف نجيب الدين يعقوب بن عبد الله الكندي (ت : ٦٢٣) قرابة سبعمائة وواحد وستين مجلدا على الزاوية، التي تقع شرق جامع دمشق،[7] ويلحق بالزوايا وَقفٌ ينفق عليها، وناظر يتابع شؤونها، ومدرس يتولى التدريس فيها، وقد يجمع الشيخ بين النظر والتدريس، فمن ذلك أن قطب الدين النيسابوري تولى نظر الزاوية الغزالية والتدريس فيها، عن أمر الناصر صلاح الدين.[8]

وكان مدرسو الزوايا من كبار العلماء، فقد درّس أبو عمرو بن الحاجب (ت : ٦٤٦) بالزاوية المالكية،[9] وكان يُحدد للدراسة في الزاوية مجموعة من الطلبة تُقدّر لهم الرواتب والنفقة.

---

[1]. ابن منظور : لسان العرب : ٣٦٤/١٤.

[2]. الخطيب : معجم الألفاظ، ص ٢١٧.

[3]. انظر المقريزي : الخطط، ٤٢٨/٣.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٠٩/١٣. والحيدرية فرقة صوفية تنسب للشيخ حيدر الزواي، ومن شعارهم قص اللحى، وإطالة الشوارب، الخطيب : معجم المصطلحات، ص ١٥٣.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٥٥/١٣.

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٩٣/١٣. *

[7]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢٦/١٣. *

[8]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣١٥/١٢.

[9]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٨٨/١٣. *

وأما مواد التدريس في الزوايا فتشمل العلوم الشرعية كالقرآن، والحديث، والفقه، ويُدرَّس في بعضها علم التصوف والزهد، فقد كان للشيخ عبد المنعم بن غانم المقدسي (ت : ٦٧٢) زاوية بنابلس يدرس فيها علم التصوف.[١]

وفي بعض الزوايا يتم الإنشاد الجماعي وحلقات الذكر للصوفية.[٢]

وكتقدير من السلاطين للزوايا وشيوخها كانوا ينزلون فيها، فقد كان الظاهر بيبرس يتردَّدُ كثيرا على زاوية شيخه الخضر، وكان الأفرم نائب دمشق يسير إلى زاوية الشيخ شهاب الدين ابن الرومي (ت : ٧١٧) فيدخل عليه ويجالسه.[٣]

وكانت بعض الزوايا موقوفة داخل المسجد، مثل زاوية الشافعي، التي وقفها الملك العزيز عثمان بن الناصر صلاح الدين، وتولى التدريس فيها أعلام الفقهاء وأعيان العلماء وسميت بذلك نسبة إلى تدريس الشافعي في مكان إقامتها.[٤]

---

١. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٥٥/١٣، * وانظر ٣٠٨/١٤.

٢. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٩٥/١٣.

٣. ابن كثير : البداية والنهاية، ٨٧/١٤. *

٤. المقريزي : الخطط، ١٢٥/٣.

المطلب التاسع :

الخوانق

ومفردها خانقاه، وهي كلمة فارسية، تعني البيت، وحدثت في الإسلام في حدود الأربعمائة من سني الهجرة، جعلت لتخلي الصوفية فيها لعبادة الله تعالى.[١]

ويعود الفضل في إنشاء أول هذه المراكز الدينية التعليمية إلى السلطان صلاح الدين في مصر، حيث أنشأ سنة تسع وستين وخمسمائة الخانقاه الصلاحية.[٢]

وكانت تجري فيها مراسيم الأذكار والأوراد التي يقوم بها المتصوفة، وحوت الخانقاه عدة أقسام بعضها للعبادة، وبعضها للنوم والطعام.[٣]

ويُطلق على من يتولى مشيختها شيخ الشيوخ، ولا يُعيَّن شيخ إلا برضا الصوفية، فقد تولى بدر الدين بن جماعة مشيخة الشيخ في الخانقاه السمياطية عن طلب الصوفية له،[٤] وتولى نجم الدين ابن صصري (ت : ٧٢٣) مشيختها كذلك،[٥] ويلحق بالخانقاه ما يلحق بغيرها من المؤسسات من مدرسين والطلبة وعاملين، وتضم كذلك مكتبة السمياطية، فقد وقف ابن عرفة الكندي (ت : ٧١٦) كتابه الموسوم بـ "التذكرة الكندية" في خمسين مجلدا بالخانقاه السمياطية،[٦] وكانت بعض الخوانق تبنى بشكل منفصل كما مر سابقا، وبعضها الآخر يلحق مع دور الحديث، مثل الدار التي وقفها سيف الدين أبو العباس بدمشق (ت : ٦٩٦)، حيث جعلها دار حديث وخانقاه،[٧] وألحقت بعض الخوانق بالمدارس كالمدرسة التي وقفها الأمير شيخون (ت : ٧٥٨) على المذاهب الأربعة وألحق بها خانقاه.[٨]

وكانت الخوانق مقتصرة على الصوفية المعروفين بطرقهم، فقد شرط صلاح الدين في المقيمين بالخانقاه الصلاحية ببيت المقدس أن يكونوا من أهل التصوف، دون اعتبار للون أو جنس أو سن، فهي

---

١. المقريزي : الخطط، ٣٩٩/٣.

٢. المصدر السابق، ٤٠١/٣.

٣. مصطفى الخطيب : معجم الألفاظ التاريخية، ص ١٥٨.

٤. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٩/١٤، والخانقاه تنسب إلى السمياطي أبو القاسم علي بن محمد (ت : ٤٥٣)، وقفها على فقراء الصوفية. والنعيمي : الدارس، ١١٨/٢.

٥. ابن كثير : البداية والنهاية، ٧٨/١٤.

٦. ابن كثير : البداية والنهاية، ٨٠/١٤.

٧. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٧١/١٣.

٨. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٧٠/١٤.

وقف : "على السادة المشايخ الصوفية والشيوخ والكهول والشباب والبالغين المتأهلين والمجردين من العرب والعجم".[1]

وكان بعض الواقفين يحدد مدة الإقامة في الخانقاه، فقد جاء في الوقفية ذاتها "على أن ليس لواحد منهم أن يسكن في هذه الدار إلا بمقدار حاجته فيها، بغير زيادة عليه من غير ضرر".[2]

وكان يوفر لساكني الخوانق العناية الصحية والطبية، ويتم انتقاء أجود أنواع اللحم والخضروات، والقمح، والفواكه، وتزاد كمية ذلك عند حلول المناسبات والأعياد الدينية.[3]

ولتحقيق الأغراض التعليمية والتعبدية كان الواقف يحدد مكانا للصلوات والجمعة، ويقوم بتعيين موظفين لأداء الشعائر والعبادات.[4]

نقف هنا للتفريق بين الخوانق والربط والزوايا، فالخوانق بيوت خاصة للصوفية، أصحاب الطرق، والملتزمين بأوراد خاصة، وأما الربط فيقيم بها فقراء المسلمين، سواء من الصوفية أو من غيرهم.

وأما الزوايا فتخصص لشيوخ معروفين، يلجأ إليهم بعض المريدين، وتُعرف بأسماء الشيوخ، وقد فرّق الأستاذ محمد أمين بينها، فقال : "ويمكننا أن نخرج من هذه المقارنة بأن الرباط عبارة عن ملجأ يكون مأوى لفقراء المسلمين، وأما الخوانق فهي خاصة بالصوفية الملتزمين بآداب الذين يمارسون وظيفة التصوف، وأما الزوايا فهي باسم شخص غالبًا".[5]

---

[1]. أحمد العلمي : وقفية صلاح الدين، ص ٣٤.

[2]. المصدر السابق، ص ٣٤.

[3]. حياة الحجي : السلطان الناصر محمد، ص ١٣١.

[4]. محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية، ص ٢٠٦.

[5]. محمد أمين : الأوقاف والتعليم، ٨٢١/٣.

المطلب العاشر :

المكتبات

لم تخل مؤسسة من المؤسسات التعليمية من مكتبة، تعين الطالب والمدرس على الرجوع إلى المسائل العديدة، عن طريق معرفة رأي السابقين فيها، وقد ازدهرت المكتبات في هذه الفترة نتيجة لاتساع دائرة التأليف، وظهور الكتب الموسوعية كالمجموع للنووي، ووفيات الأعيان لابن خلّكان، والفتاوى لابن تيمية، والتواريخ والسير للذهبي، وغيرها من الكتب. وقد أدى الإقبال الكبير على اقتناء الكتب وجمعها إلى تنشيط حركة النسخ داخل دور الوراقين، التي قامت بمهمة نسخ الكتب، وتصحيحها وتجليدها، ثم بيعها، وقد كان الكتاب يُقابَل بعد نسخه على النسخة الأصلية للتصحيح، تحريا للدقة والضبط، وكان بعض العلماء يقوم بنسخ كتبه بنفسه، لذلك ظهر نوعان من النُّسخ : نُسخ كتبت بخط مؤلفيها، وأخرى بخط الناسخ، وغالبا ما تكون الأولى أدق ضبطا وأكثر وضوحا.

واعتمادا على أماكن وجود المكتبات يمكننا التمييز بين **ثلاثة أنواع من المكتبات** :

١ – **المكتبات الخاصة** : وهي المكتبات التي ضمتها بيوت العلماء، وقصور الخلفاء، ومنازل الأمراء، فقد حرص الجميع على اقتناء الكتب لأهميتها وفائدتها، ويصف أحدهم فضل الكتاب، فيقول: "الكتاب آمن جليس، وأسر أنيس، وأسلم نديم، وأفصح كليم".[١]

وكان العلماء ينصحون الطلبة بالإكثار من الكتب : "ينبغي للمرء أن يدّخر أنواع العلوم وإن لم تكن له بمعلوم، وأن يستكثر منها ولا يعتقد الغنى عنها".[٢]

ويقول ابن جماعة : "وينبغي لطالب العلم أن يعتني بتحصيل الكتب المحتاج إليها ما أمكنه شراؤها وإلا فإجارة وإلا فعارية".[٣]

ومن المكتبات الخاصة المشهورة مكتبة العاضد الخليفة الفاطمي (ت : ٥٦٧)، فقد كان في مكتبته كتب ليس لها في مدائن الإسلام نظير، بلغت مائة ألف مجلد.[٤]

وكانت مكتبة الأمير الساماني نوح بن نصر (ت : ٣٨٧) عظيمة، فقد دخلها ابن سينا (ت : ٤٢٨) فرأى فيها من الأعاجيب والمحاسن ما ليس في غيرها.[٥]

---

١. الخطيب البغدادي : تقييد العلم، ص ١٢١.

٢. المصدر السابق، ص ١٣٦.

٣. ابن جماعة : تذكرة السامع، ص ١٦٤.

٤. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٨٦/١٢. انظر ترجمة العاضد في البداية والنهاية، ٢٨٣/١٢.

٥. ابن كثير : البداية والنهاية، ٤٥/١٢. * وانظر ترجمة نوح بن نصر في البداية والنهاية، ٣٤٥/١١.

أما الوزراء فقد كان للقاضي الفاضل وزير صلاح الدين مائة ألف مجلد، و هذا شيء لم يفرح به أحد من الوزراء والعلماء،[1] وكان للوزير الصاحب بن عباد (ت : ٣٨٥) مكتبة تُحمَل على أربعمائة بعير.[2]

وقد أشرنا سابقا إلى مكتبات بعض العلماء، مثل تاج الدين الكندي، وقد ترك الفاروقي مكتبة في ألفين ومائتي مجلد في فنون مختلفة، وكانت أغلب هذه المكتبات توقف بعد موت صاحبها على المؤسسات، وذكرنا أمثلة على ذلك سابقا.

وكانت الاستعارة منتشرة في هذه المكتبات، إلا أن بعض العلماء منع الإعارة وبعضهم تشدد فيها، وقد عقد الخطيب البغدادي فصلا في ذلك، فقال : "فصل من سلك في إعارة الكتب طريق البخل ...".[3]

٢ – المكتبات العامة : وهي المكتبات المخصصة لعامة الناس، ويطلق عليها أحيانا خزانة الكتب، ومنها خزانة الكتب الفاضلية،[4] والمكتبة الظاهرية بالقاهرة، التي وقفها الظاهر بيبرس سنة ستين وستمائة، واشتملت هذه الخزانة على أمهات الكتب في سائر العلوم.[5]

ومنها خزانة الكتب التي وقفها أبو الحسن محمد بن هلال الصابي (ت : ٤٨٠) ببغداد، ونقل إليها أربعة آلاف مجلد.[6]

وكان يُعين للإشراف على هذه الخزائن مشرفون مختصون، واشترط بعض الواقفين في خازن الكتب أن يكون من الأدباء أو العلماء، ليكون عونا للطلبة والباحثين في إرشادهم إلى ما يحتاجون إليه من مراجع،[7] وكذلك اشترط بعضهم أن يكون ثقة أمينا، قادرا على القيام بمهمته.[8]

٣ – المكتبات الخاصة بالمؤسسات : لقد ألحق الواقفون بمؤسساتهم خزائن كتب تكون مرجعا لشيوخ المؤسسة ومدرسيها وطلبتها، وقد تحدثنا عن بعضها سابقا.

---

١. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٨/١٣.

٢. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٣٥/١١. *

٣. انظر الخطيب البغدادي : تقييد العلم، ص ٤٦ و ما بعدها.

٤. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢١٠/١٣، وتنسب للقاضي الفاضل وزير صلاح الدين.

٥. المقريزي : الخطط، ٣٤٢/٣.

٦. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٤٣/١٢. *

٧. محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية، ص ٢٥٦.

٨. محمد أمين : الأوقاف والتعليم، ٨٣٦/٣.

ومن الخزائن الشهيرة تلك التي وقفها نور الدين في مدرسته النورية [1]، وكانت العادلية والناصرية من المدارس التي تضم خزائن كتب كبيرة.[2]

وقد أشرنا إلى وظيفة مشرف المكتبة، فبالإضافة إلى مساعدة المدرسين والشيوخ في الرجوع إلى المصادر، واستخراج المسائل منها، هناك مهمة إعارة الكتب واستلامها وتنظيفها من الغبار، وتعهدها بالإصلاح.[3]

وكان المشرفون يتقاضون راتبا عن عملهم يتفاوت من مؤسسة لأخرى، فقد كان خازن كتب دار الحديث الأشرفية يتقاضى شهريا ثمانية عشر درهما.[4]

وألحق بهذه المكتبات الورق والأقلام والحبر، لمن أراد أن ينسخ كل ذلك تشجيعا على العلم، واقتناء الكتب.[5]

ويروى أنه كان في مكتبة القاضي الفاضل عدد من النساخ والمجلدين والمناولين، وظيفتهم إرشاد القراء إلى أماكن وجود الكتب، أو إحضارها لهم من أمكنتها.[6]

ونشير أخيرا إلى تعرض المكتبات إلى نكبات الحرق والنهب والسرقة، ومن ذلك ما حرق ونهب أثناء غزو التتار بقيادة هولاكو (ت : ٦٦٤)، فقد قدر المؤرخون أنه امتلأت خزانة الكتب بمراغة بما نهبه هذا الطاغية من الشام، والعراق وغيرها.[7]

[1]. كرد علي،محمد : خطط الشام، ١٨٧/٦.

[2]. المصدر السابق، ١٩٠/٦.

[3]. محمد أمين : الأوقاف والتعليم، ٨٣٦/٣.

[4]. محمد كرد علي : خطط الشام، ١٩٠/٦.

[5]. ناجي معروف : علماء المستنصرية، ٦٧/٢.

[6]. الخطيب، إبراهيم حسن : دور التعليم في بيت المقدس، ص ١٢٢.

[7]. انظر محمد كرد علي : خطط الشام، ١٩٢/٦. وانظر ترجمة هولاكو في البداية والنهاية، ٢٦٢/١٣.

المطلب الحادي عشر :

مؤسسات تعليم الصبيان

تعدّ مرحلة التعليم في الصبا مقدمة لمواصلة التعليم في المراحل العمرية اللاحقة، لذلك تعددت المحاضن التي تُعنى بتربية الصبيان وتعليمهم، ابتداء من الأسرة، وانتهاء بالمكاتب، ويمكننا تصنيف هذه المؤسسات حسب الجهة التي تتولى تربية الصبيان إلى **ثلاث مؤسسات رئيسة**، وهي :

أ - الأسرة :

تمثل الأسرة أولى حلقات التربية والتعليم التي تُعنى بتربية الصبي، وقد حرص العلماء على وجه الخصوص على تربية أبنائهم تربية علمية شرعية، وقد تجلت مظاهرها بوراثة الابن لأبيه علميا، سواء بالتدريس أو القضاء، أو الخطابة، أو غيرها.

وكان الآباء يحرصون على تعليم أبنائهم بأنفسهم، فقد وهّبَ الله أبا البركات الأنباري (ت : ٤٥٢) أربعة أولاد، فسماهم بأسماء الخلفاء الأربعة وحَفَّظَهُم القرآنَ بنفسه،[١] إذ القرآن أولُ المواد تعليما، وذلك لمكانته وأهميته، وسهولة حفظه، ولتعويد لسان الصبي على سلامة النطق وفصاحة اللسان.

وكان بعض الآباء يعرض ابنه على غيره من المشايخ، فقد كان شهاب الدين أبو شامة يعرض ابنه شمس الدين محمد (ت : ٧٢٢) على المشايخ.[٢]

وقد تمتد الإعانة لهم لتصل إلى نسخ الكتب، فقد كتب أبو الوليد محمد بن أبي القاسم القرطبي (ت : ٧١٨) لولديه أبي عمرو وأبي عبد الله نحوا من مائة مجلد، إعانة لهم على الاشتغال والتحصيل.[٣]

وأما توارث الأبناء لآبائهم في وظائفهم وتداريسهم فنذكر له أمثلة لذلك منها أن برهان الدين الفزاري اشتغل على والده تاج الدين (ت : ٦٩٠)، وورثه في المدرسة البادرائية،[٤] وتولى تاج الدين عبد الوهاب السبكي مدارس أبيه تقي الدين، ومنها القيمرية،[٥] وتولى شرف الدين عبد الله بن الشيخ شمس الدين بن قيم الجوزية المدرسة بعد أبيه.[٦]

---

[١]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٥٥/١٢. *

[٢]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٠٨/١٤. *

[٣]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٩٤/١٤. *

[٤]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٥٢/١٤. انظر ترجمة تاج الدين الفزاري في البداية والنهاية، ٣٣٤/١٣.

[٥]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٦٤/١٤. واليعقوبية.

[٦]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٤٧/١٤.

لذلك لا عجب أن نرى بعد ذلك ظاهرة العائلة العلمية، مثل عائلة المقادسة، ومن علمائها : أبو عمر، والحافظ عبد الغني، وأخوه العماد أبو إسحاق، وموفق الدين، وغيرهم. وعائلة ابن الجوزي وابن تيمية وابن جماعة والسبكي وغيرها من العائلات، وكان في بيت أبي علي الماسرجي (ت : ٣٦٥) تسعة عشر محدثا.[1]

وكان أفراد عائلة منجا من شيوخ الحنابلة طوال أيام الأيوبيين والمماليك، وانتهت إلى بعضهم رئاسة المذهب الحنبلي، وكان منهم القضاة والفقهاء والمدرسون.[2]

ولم يقتصر تعليم الآباء على الذكور من أولادهم بل شمل البناتِ أيضا، فقد حَفّظ الشيخ نور الدين علي بن أبي الهيجاء (ت : ٧٦٦) ابنته شيئا من القرآن، والأربعين النووية.[3]

وظهرت مجموعة من العالمات من بنات العلماء أمثال : أمة اللطيف بنت الناصح الحنبلي إذ كان أبوها من شيوخ الحنابلة، فكانت عالمة ولها تصانيف في المذهب الحنبلي.[4]

وأمّا فاطمة بنت الحافظ البرزالي فقد كتبت صحيح البخاري في ثلاثة عشر مجلدا، فقابله أبوها لها، حتى صارت نسختها أصلا معتمدا يكتب عنها الناس.[5]

ب – مكاتب الصبيان :

أشرنا سابقا إلى البداية المبكرة لمكاتب الصبيان في القرون الثلاثة الأولى، وفي هذه المرحلة حافظت الكتاتيب على تقاليدها، من حيث المواد التي تدرس فيها، من قرآن وقراءة وكتابة، وشيء من الشعر، فقد ختم ابن كثير القرآن في المكتب وعمره إحدى عشرة سنة.[6]

وأما سن الدراسة بالكتاب والتخرج منه فلم أعثر في كتاب البداية على نص يساعدني على تحديد ذلك، ولكنه غالبا ما يكون قبول الطالب في بداية سن التمييز، أي من ست إلى سبع سنوات، والتخرج بعد إتقانه للقراءة والكتابة، وحفظ شيء من القرآن.

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٠٢/١١. *

[2]. صلاح المنجد : وقفية القاضي عثمان، ص ٣.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٢٧/١٤. *

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٨٢/١٣.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٩٧/١٤.

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٢٧/١٤.

ووجدت المكاتب على شكلين، فهي إما مستقلة في بناء خاص بها، كالمكتب الذي وقفه ابن العاقولي على تعليم الصبيان[1]، أو تلحق هذه المكاتب بالمدرسة بحيث تكون جزءًا منها، فقد علق ابن كثير على سقوط منارة المدرسة السلطانية سنة اثنين وستين وسبعمائة، بقوله : "وأهلكت خلقا كثيرا من الصناع بالمدرسة والمارّة والصبيان الذين في مكتب المدرسة". [2]

فقد نص ابن كثير على وجود المكاتب داخل المدرسة، وكانت تعقد هذه المكاتب أيضا في بيت المدرس إذا اشتهر بالأمانة، فقد أرسل الشيخ محي الدين النووي مجموعة من الصبيان إلى الشيخ أمين الأشتري (ت : ٦٨١) ليقرؤوا عليه في بيته، وذلك لأمانته عنده[3]، وأحيانا تعقد المكاتب في المساجد، فقد استخرج العلماء فتوى سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة تقضي بمنع مكاتب الصبيان من أن تقام في المسجد، ومنع المدرسون من ذلك.

والسبب في ذلك صيانة المساجد من الصبيان وعبثهم، وهذا ما يفسر استثناء رجل من ذلك، لأنه كان يعرف كيف تصان المساجد[4].

ومن هنا، فمكاتب الصبيان إما أن تعقد في أماكن خاصة توقف بها، وإما أن تلحق بالمدرسة، وإما أن تكون في بيت المدرس أو في المسجد.

وكان يتولى التدريس في المكتب معلم عُرف بالأمانة والعلم والأدب، يتقاضى راتبا إما من الوقف المخصص للمكتب، وإما مما يتقاضاه من آباء الصبيان لقاء تعليمهم، فقد جعل ابن العاقولي (ت: ٧٢٨) داره وقفا على عشرة من الصبيان وشيخ، يتعلمون فيها القرآن الكريم، وجعل لهم أوقافا دارّة[5]، ومن الأمثلة على أخذ الأجرة من الآباء أن ابن طبرزد (ت : ٦٠٧) دخل دمشق فصار يؤدب الصبيان فحصَّل أموالا كثيرة، وعاد إلى بغداد.[6]

وقد ورد نوع خاص من تعليم الصبيان، وهو تدريس نطق الحروف الصعبة، فقد كان الشيخ أبو عبد الله محمد بن الخطيب المالبي (ت : ٧١٦) يفصّح الأولاد في الحروف الصعبة[7]، وكان أيضا

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٤٨/١٤.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٩٠/١٤.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣١٨/١٣.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٤٦/١٢.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٤٨/١٤.

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٦٦/١٣-٦٧.

[7]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٨٢/١٤.

الشيخ محمد بن فروش (ت : ٧٢٤) يعلم الصبيان عقد الراء والحروف الصعبة، وهذا ما يُعرف بالتربية الخاصة.[١]

أما مكاتب تعليم الفتيات فلم أعثر أيضا على ذكر له، نفيا أو إثباتا ولكن وردت بعض الدلالات التي تشير إلى وجود مثل ذلك، فقد ورد في ترجمة فاطمة بنت علي (ت : ٤٨٠) أنها كانت مؤدبة وكاتبة [٢]، فلا شك أنها تُكتّب وتؤدب بنات جنسها، إضافة إلى وجود عدد كبير من النساء، ممن يتقن القراءة والكتابة كالموردية (ت : ٤٦٦)[٣]، وأمة اللطيف بنت الناصح الحنبلي وغيرهن كثير.[٤]

جـ – مكاتب الأيتام :

لقي تعليم الصبيان الأيتام اهتماما بارزا من قبل الواقفين، وذلك لأن اليتيم قد لا يجد من يرعاه، أو ينفق عليه، أو يتولى تعليمه وتربيته في كثير من الأوقات، إضافة لورود نصوص شرعية تحث على كفالة اليتيم وتبشر كافله بالجنة، كقول النبي –صلى الله عليه وسلم– : أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا. وقال بإصبعيه السبابة والوسطى".[٥]

وأيضا ساعد على إنشاء هذه المكاتب قلة نفقاتها مقارنة مع غيرها من المؤسسات كالمدارس ودور القرآن والحديث".

لهذه الأسباب أنشئت مكاتب خاصة لتربية اليتيم وتعليمه، وكان صلاح الدين أول من أنشأ مكاتب للأطفال الفقراء والأيتام.[٦]

و قد وقف نور الدين زنكي مكتبا للأيتام يتعلمون فيه القراءة والكتابة[٧]، وقد جرت العادة ببناء المكتب بجوار المدرسة أو المسجد، فعندما أنشأ المستنصر مدرسته المستنصرية جعل فيها مكتبا للأيتام، وأجرى لهم النفقة والخبز والحلوى واللحم،[٨] وبلغ الاهتمام بمكاتب الأيتام غايته عندما أصدر السلطان الناصر حسن بن محمد (ت : ٧٦٢) مرسوما يقضي بإنشاء مكتب للأيتام في كل مدرسة من مدارس المملكة الكبار، سنة إحدى وستين وسبعمائة.[٩]

---

١. ابن كثير : البداية والنهاية، ١١٨/١٤. *

٢. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٤٣/١٢. *

٣. ابن كثير : البداية والنهاية، ١١٦/١٢. *

٤. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٨٢/١٣.

٥. البخاري : الصحيح بشرح فتح الباري، كتاب الأدب، فضل من يعول يتيما، حديث (٦٠٠٥)، ٤٥٠/١٠.

٦. انظر محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية، ص ٢٦٢.

٧. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٥٨/١٢.

٨. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٥٠/١٣، وانظر معروف، ناجي : تاريخ علماء المستنصرية، ٣٠٢/٢.

٩. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٨٢/١٤.

وألحقت أيضا بعض المكاتب بالترب، إذ أنشأت الست ستيتة بنت الأمير سيف الدين (ت : ٧٣٠) تربة جعلت فيها مكتبا للأيتام.[١]

وشارك العامة في إنشاء مكاتب للأيتام، فقد وقف ظهير الدين مختار (ت : ٧١٦) مكتبا للأيتام، جعل فيه لهم رواتب وكسوة وطعاما لهم، وكان يمتحنهم بنفسه ويفرح بهم.[٢]

وقد كانت أموال الأيتام وفيرة، يشرف عليها ناظر وهو ناظر الأيتام، بحيث تكون وظيفته الإشراف على مكاتب الأيتام وأموالهم، فقد شغل تاج الدين أبو المظفر محمد بن أحمد (ت : ٦٧١) وظيفة ناظر مكتب الأيتام[٣]، ومما يدل على وفرة أموالهم وكثرة أوقافهم أن الأفرم نائب دمشق اقترض أموالا من وقفهم لتقوية جيشه[٤]، وأخذ شادّ الدواوين من مخزنهم خمسين ألف درهم بعد نفاذ أموال السلطنة،[٥] وأما مواد التدريس فهي شبيهة بالمواد التي تدرس في مكاتب الصبيان.

---

[١]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٥٨/١٤. *

[٢]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٨١/١٤. *

[٣]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٧٩/١٣. *

[٤]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٧/١٤.

[٥]. شادُّ الدواوين : هو الموظف المسؤول عن تفتيش الدواوين، وضبط حساباتها. دهمان : معجم الألفاظ التاريخية، ص ٧٥.

المطلب الثاني عشر :

الجوامع والمساجد

استمرت الجوامع والمساجد بأداء رسالتها التعليمية، ولكن أقل من الدور الذي أدته في القرون الثلاثة الأولى، ويرجع السبب في ذلك إلى إنشاء المؤسسات وانتشارها، ومع بقاء الدور التعليمي للحرمين الشريفين، إلا أنني لم أعثر على إشارة لهما في الكتاب في هذه القرون، إلا ضمن الأحداث السياسية لا الأخبار التعليمية، وحتى المُدَرِّسين في الحرمين لم يترجم ابن كثير لهم، لذلك لن أتعرض للحديث عنهما.

وأمّا **الفرق بين المسجد و الجامع :** فمن حيث اللغة، نجد أن المسجد من السجود، الذي هو التذلل لله وعبادته، والمسجد موضع الصلاة والسجود.[1]

وأما الجامع فهو من الفعل جمع ويعني الضم والتقريب.[2]

وأما الفرق من حيث الاصطلاح، "فيطلق لفظ المسجد على المكان الذي تقام فيه الصلوات الخمسة، فإذا أقيمت صلاة الجمعة في أحد المساجد أطلق عليه (مسجد جامع)، وربما قيل الجامع، بحذف المسجد للتخفيف، وكان في بداية أمره لا يقام في المدينة إلا مسجد جامع واحد في وسطها".[3]

ثم لما اتسعت المُدُنُ أصبحت تقام الجمعة في المساجد والجوامع، فأطلق كل منهما على الآخر دونما تمييز.

وقد قامت المساجد والجوامع بوظيفتها التربوية، وبصفتها مؤسسات تعليمية رئيسة منذ نشوئها، إلى جانب وظيفتها الأساسية كأماكن للعبادة.[4]

وكما تسابق السلاطين في دولتي الأيوبيين والمماليك إلى إنشاء المدارس والربط والخوانق تسابقوا كذلك في بناء المساجد، فقد بنى الأشرف موسى بن العادل جامع التوبة بدمشق، ومسجد القصب وجامع الجراح، ومسجد دار السعادة،[5] وقام تنكز نائب دمشق ببناء جامع في نابلس وآخر في

---

[1]. الراغب الأصفهاني : المفردات، ص ٢٢٤.

[2]. المصدر السابق، ص ٩٦.

[3]. بشار معروف : مؤسسات التعليم في العراق، ٣٧٦/٢.

[4]. انظر المصدر السابق، ٣٧٦/٢.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٥٨/١٣.

عجلون، وثالث في دمشق[1]، وكانت بعض المساجد تخص مذهبا بعينه، فقد بنى نظام الدين مسعود ابن علي (ت : ٥٩٦) جامعا كبيرا للشافعية في خوارزم[2].

وكان يشرف على شؤون الجامع - وخصوصا الكبير منها - ناظر يشرف على الموظفين في الجامع، كالإمام والمؤذن والخادم، ويتولى متابعة مختلف شئونه.

وأما المجالس التي كانت تعقد في الجوامع فهي على نوعين :

١- المجالس والحلقات المعدّة لطلبة العلم المتخصصين فيها، والتي سيأتي الحديث عنها.

٢- المجالس التي تعقد لعامة الناس : وعادة ما يدرس فيها أحكام الوضوء والطهارة والصلاة وغيرها من الفرائض.

وفيما يلي نعرض لأهم المساجد والجوامع التي أبرز دورها ابن كثير خلال هذه المرحلة :

أولا : الجامع الأموي في دمشق

وسبق أن ذكرنا أن أول من بناه أبو عبيدة، ثم قام الوليد بن عبد الملك بتوسعته، سنة ست وتسعين، وبدأ الدور التعليمي له منذ بنائه يوم انتقل الصحابة إلى دمشق،[3] وازداد نشاطه العلمي يوم أصبحت دمشق عاصمة الخلافة الأموية.

وكان يُدرَّس في الجامع الأموي مدرسون من مختلف المذاهب الفقهية، بحيث يحدد لكل مذهب مكان يُدرِّسُ شيوخه فيه، وكان فيه أيضا حلقات للتدريس في فنون العلم، والمحدثون يقرؤون كتب الحديث على كراسي مرتفعة، وفيه جماعة من المعلمين لكتاب الله، يستند كل منهم إلى سارية ويقوم بتعليم الصبيان.[4]

وقد يوقف درس بعينه في الجامع، فقد وقف سيف الدين منكلي بغا، نائب دمشق- درسا في الجامع الأموي لطلبة من جميع المذاهب، وعددهم خمسة عشر طالبا، بالإضافة للمدرس والمعيد وكاتب الغيبة، فكان لكل طالب في الشهر عشرة دراهم، وللمعيد عشرون.[5] وكان بعضُ المدرسين يواظبُ مُتبرِّعًا، فقد واظب الشيخ زين الدين منجي (ت : ٦٩٥) على التدريس في الجامع الأموي متبرعا.[6]

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٤/١٩٨.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣/٢٦. *

[3]. انظر في هذا البحث ص ٨٣.

[4]. ابن بطوطة : محمد بن عبدالله، رحلة ابن بطوطة، ص ٨٩.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٤/٣٣٦. *

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣/٣٦٥.

وعندما زار ابن بطوطة (ت : ٧٧٩) دمشق سنة تسع وأربعين وسبعمائة كان عدد أئمته ثلاثة عشر إماما، وقد أشار إلى إحدى فضائل هذا المسجد، فقال : "ومن فضائل هذا المسجد، أنه لا يخلو من قراءة القرآن والصلاة إلا قليلا من الزمن، والناس يجتمعون به كل يوم، إثر صلاة الصبح فيقرؤون شيئا من القرآن ويجتمعون بعد صلاة العصر لقراءة الكوثرية يقرؤون فيها من سورة الكوثر إلى آخر القرآن".[١]

وكان يشرف على شؤون الجامع الأموي ناظره، وممن اشترك في هذه الوظيفة شرف الدين ابن صصري، والصاحب شمس الدين.[٢]

وكان يُعَدُّ الجامع الأموي من أهم المراكز العلمية في العالم الإسلامي آنذاك.[٣]

ثانيا : جامع عمرو بن العاص بمصر

وهو أول مسجد أسس في مصر، فقد اختَطَّهُ الصحابة في فسطاط مصر بعد فتحها سنة إحدى وعشرين من الهجرة.[٤]

وقد شارك في بنائه العديد من الصحابة، منهم أبو ذر، وأبو بصيرة، وعبادة بن الصامت، ورافع ابن مالك، وقد زاد في بنائه مسلمة بن مخلد سنة ثلاث وخمسين بأمر من معاوية بعد أن ضاق بأهله.[٥]

وقد وصفه ابن بطوطة بقوله : "ومسجد عمرو بن العاص مسجد شريف، كبير القدر، شهير الذكر"[٦].

وأما دوره التعليمي فقد كانت تعقد فيه مع مطلع القرن الرابع خمس عشرة حلقة للمذهب المالكي، ومثلها للمذهب الشافعي، وثلاث حلقات للمذهب الحنفي.[٧]

وقد ذكرنا وجود عدد من الزوايا داخله، من أشهرها زاوية الإمام الشافعي، وما زالت دروس الفقه عامرة به ومنتشرة بين أروقته.[٨]

---

١. ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة، ص ٨٥.

٢. ابن كثير : البداية والنهاية، ٦٠/١٤.

٣. انظرعبدالجليل عبدالمهدي : المؤسسات التعليمية والثقافية، ٦٢٦/٢.

٤. المقريزي : الخطط، ١٠٨/٣.

٥. المصدر السابق، ١١٠/٣.

٦. ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة، ص ٣٣.

٧. احمد، منير الدين : بحث دور المجالس والحلقات في النظام التربوي الإسلامي، التربية العربية الإسلامية، ٢٨٥/١.

٨. انظر المقريزي : الخطط، ١٢٥/٣.

وروي المقريزي عن عبد الرحمن بن الصائغ الحنفي "أنه أدرك بهذا الجامع قبل سنة تسع وأربعين وسبعمائة بضعا وسبعين حلقة لإقراء العلم"،[1]

ثالثا : الجامع الأزهر في مصر

وقد بناه جوهر الصقلي (ت : ٣٨١) قائد المعز الفاطمي (ت : ٣٦٥)، وافتُتح سنة إحدى وستين وثلاثمائة.[2]

وفي بداية أمره خصص التدريس فيه للفقه الشيعي، وكان الخلفاء الفاطميون يحضرون بأنفسهم للمسجد، وفي مواكب رسمية، ويقومون بالخطبة والصلاة فيه.[3]

ولما قام الحاكم بأمر الله ببناء جامعه حوّل الصلاة والجمعة إليه، فاصبح الأزهر خرابا وشعث حاله[4]، وعطل مائة عام من حكم صلاح الدين إلى إعادة الظاهر بيبرس له سنة خمس وخمسين وستمائة، حيث أصلحه وأقام فيه الجمعة.[5]

ونشطت فيه علوم أهل السنة بعد ذلك، فقد رتب فيه الأمير بيلبك الخازن (ت : ٦٧٦) جماعة من الفقهاء لدراسة الفقه الشافعي، ومحدثا يسمع الحديث النبوي والرقائق، ورتب سبعة قراء لقراءة القرآن.[6]

وقام أيضا السلطان الناصر حسن بن محمد بتجديده سنة إحدى وستين وسبعمائة، ووقف عليه مكتبا لإقراء أيتام المسلمين كتاب الله العزيز، ورتب فيه أيضا درسا لفقهاء من الحنفية.[7]

رابعا : جامع ابن طولون في مصر

وقد بناه الأمير أحمد بن طولون (ت : ٢٧٠) وغرم عليه مائة وعشرين ألف دينار، وقد فُرغ منه سنة سبع وخمسين وقيل ست وستين ومائتين.[8]

وأما ما يتعلق بالدور التعليمي لهذا المسجد، فقد وقف الأمير سيف الدين يلبغا الخاصكي (ت : ٧٦٧) درسا فيه سبعة مدرسين للحنفية، وجعل لكل واحد منهم في الشهر أربعين درهما، وذُكر أن

---

[1]. المصدر السابق، ١٢٥/٣.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٣١/١١، انظر ترجمة جوهر الصقلي في البداية والنهاية، ٣٣١/١١، والمعز الفاطمي : ٣٠٢/١١.

[3]. ماجد، عبدالمنعم : بحث التعليم عند الفاطميين، التربية العربية الإسلامية ، ٢٦٩/١.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٦٢/١٣.

[5]. المقريزي : الخطط، ١٦٠/٣، وانظر ابن كثير : ٢٦٢/١٣.

[6]. المصدر السابق، ١٦٠/٣. وانظر ترجمته في البداية والنهاية، ٢٩٣/١٣.

[7]. المصدر السابق، ١٦١/٣.

[8]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٥٠/١١. *

جماعة من غير الحنفية انتقلوا لمذهب أبي حنيفة لينزلوا في هذا المجلس،[1] وقد جعل فيه أيضا معلما يُقرئ أيتام المسلمين القرآن.[2]

خامسا : جامع الحاكم في مصر

وقام ببناء هذا الجامع الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، وانتهى من بنائه سنة أربعمائة، وقد تأنق في بنائه وزخرفته.[3]

ودُرِّس فيه أول الأمر المذهب الشيعي، ولكنه أصبح بعد ذلك منارة لأهل السنة، وقام الأمير بيبرس الجاشنكير سنة أربع وسبعمائة بتجديده وصيانته، ورتب فيه دروسا للمذاهب الأربعة، وجعل قضاة المذاهب الأربعة هم المدرسين، ورتب فيه أيضا شيخ حديث، وشيخ نحو، وآخر للقراءات، وشيخا لإفادة العلوم.[4]

وقد ألحق به الأمير مَيضَأَةً (مكان الوضوء)، وخزانة شراب، وصناديق المصاحف، ونقل إليه القرّاء والفقهاء.[5]

سادسا : جامع المنصور في بغداد

وهو الذي أقامه أبو جعفر المنصور بجانب داره، وأمر بعد ذلك الخليفة المعتضد سنة ثمانين ومائتين بإضافة دار المنصور فيه وتوسعته[6].

وكان هذا المسجد منذ إنشائه مركزا للعلم، فقد زار الشافعي بغداد وكانت تقام فيه وحده وقتها إما نيف وأربعون حلقة أو خمسون حلقة، فلما دخل بغداد ما زال يقعد فيها حلقة حلقة، ويقول لهم : قال الله وقال الرسول، وهم يقولون : قال أصحابنا حتى ما بقي في المسجد حلقة غيره.[7]

وقد استمر جامع المنصور متميزا بالمنزلة التي يحتلها في نفوس العلماء والطلبة، ومن أراد التدريس فيه من العلماء فعليه الاستئذان من الخليفة.[8]

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٣٦/١٤. انظر ترجمة سيف الدين يلبغا في البداية والنهاية، ٣٣٨/١٤.

[2]. المقريزي : الخطط، ١٦٦/٣.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٦٥/١١.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٥/١٤.

[5]. انظر المقريزي : الخطط، ١٤٢/٣-١٤٨.

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٧٢/١١.

[7]. الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد، ٦٦/٢-٦٧.

[8]. بشار معروف : مؤسسات التعليم في العراق، ٣٧٩/٢.

وكانت تعقد فيه كثير من الحلقات، مثل حلقة الفقه، وإملاء الحديث، لأبي بكر النجاد (ت : ٣٤٨)[١]، وحلقة التفسير للشيخ هبة الله بن سلامة (ت : ٤١٠).[٢]

سابعا : جامع الموصل في الموصل

أمر نور الدين زنكي بتجديد بنائه وتوسعته سنة ست وستين وخمسمائة، وقد وقف بنفسه على عملية تجديده، وجعل فيه مدرسا للفقه هو أبو بكر البرقاني، وكتب له مرسوما بذلك.[٣]

ومن خلال هذا العرض للمؤسسات التربوية والتعليمية والتي ظهرت في هذه المرحلة يتبين لنا مدى انتشار هذه المؤسسات، وكثرة عددها، وهذا ما سجله ابن بطوطة عند زيارته لمصر، فقد وصف كثرة مدارسها بقوله : "وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها"[٤]، وعلى سفح جبل قاسيون وحده في دمشق زهاء ثلاثمائة مدرسة[٥].

إن هذا العدد الهائل من المدارس، وعلى امتداد بلاد المسلمين ليدلّ بشكل قاطع على مدى ازدهار الحركة العلمية في هذه المرحلة، ويدل كذلك على وجود طبقة غير قليلة في المجتمع المسلم تتميز بسعة العلم وكثرة التصنيف.

وقد أدى اهتمام الخلفاء والسلاطين والأمراء بذلك إلى استمرار قيام هذه المؤسسات، بما وفروه لها من نفقات تكفي القائمين عليها من مدرسين وطلبة وعاملين.

ومع ما قدمته للمؤسسات من دعم لم تفرض الدولة هيمنتها على التعليم، بفرض أنواع من العلوم أو الكتب، وإنما كانت مهمة الدولة مهمة إشرافية.

وظهر مبدأ حرية التعليم واضحا، إذ كان الواقف يحدد المناهج والمواد والمدرسين في المؤسسة التي ينشئها، وظهرت مؤسسات لجميع المذاهب، درس فيها جميع العلماء، وانتشرت مصنفات علماء المسلمين على اختلاف مذاهبهم.

وكان لمجانية التعليم التي سادت المؤسسات التربوية والتعليمية أثر بالغ في تكافؤ الفرص التعليمية بين مختلف فئات المجتمع غنيهم وفقيرهم، العربي والعجمي منهم، على حد سواء، يضاف إلى ذلك

---

[١]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٤٩/١١. *

[٢]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٠/١٢. *

[٣]. المصدر نفسه، ٢٨٢/١٢.

[٤]. ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة، ص ٣٣.

[٥]. النحلاوي، عبد الرحمن : أصول التربية الإسلامية، ص ١٣٢.

الحوافز التشجيعية التي كانت تقدم للطلبة بشكل خاص، سواء الرواتب النقدية أو المواد العينية كالخبز واللحم والحلوى.

وكان للفقراء والصوفية مؤسسات عديدة مكنتهم من أخذ قسط وافر من العلم، مع النفقة السابغة عليهم، وذلك عطفا عليهم "فقد شايع سلاطين المماليك وأمراؤهم، حركة التصوف بمصر، فأنشئوا الكثير من البيوت التي خصصت للصوفية، والتي أُطلِق عليها خوانق وربط وزوايا وأوقفوها، كما أوقفوا على من يقيم بها من الصوفية أو من طلبة العلم الصوفية الكثير من الأوقاف"[1]، لذلك نال الفقراء حظهم من التعليم، بل ربما زادوا على الأغنياء في ذلك.

وكذلك نال الأيتام حظهم من التعليم، بلغت العناية بهم كل مبلغ، كما بينا سابقا.

وكانت المساكن من المرافق الرئيسية في المؤسسات، وكان من آثار ذلك تلازم العلم والعبادة، وتحقيق مبدأ هام من المبادئ التربوية، ألا وهو مبدأ اقتضاء العلم العمل، وأيضا كان للسكن أثر بالغ في تفريغ همّ الطالب، وجمع همته على العلم وذلك بالحيلولة دون الملهيات والمعيقات أمام الطلبة.

وأدى تلازم العلماء والطلبة وعيشهم معا إلى تلقي الطلبة العلوم والآداب معا، والتربية والتعليم في الوقت ذاته.

وكان لدور الكتب أيضا أثر واضح في انتشار مصنفات السابقين، ووقوف الخَلَف على اجتهادات السلف وجهودهم العلمية، ليكمل اللاحق ما بناه السابق.

وقد وفرت المكتبات جميع مستلزمات النسخ من ورق وأقلام وحبر مجانا، مما شجع على التعليم الذاتي، بما وفرته من كتب عديدة، يصعب على الفقراء شراؤها، وعملت أيضا على حفظ التراث الإسلامي مما أسهم في ظهور المؤلفات الموسوعية في هذه المرحلة، والتي جمعت لنا ما كتبه السابقون وما أضافه اللاحقون.

وإكمالا لدور المؤسسات في الجانب التعبدي أُنشئ في أغلب المؤسسات مساجد تقام فيها الصلوات والعبادات.

وتناسبت العطل المدرسية مع المناسبات الإسلامية، كالحج والصوم والأعياد الإسلامية وغير ذلك.

---

[1]. محمد أمين: الأوقاف والتعليم في مصر، ٣/٨١٧.

وظهرت جدّية الدراسة من خلال الاهتمام بضبط الحضور والغياب، وتعيين أحد الطلبة للقيام بهذه المهمة، كما نصت وقفية السلطان حسن على تعيين طالب من كل مجموعة للقيام بضبط حضور مجموعته وغيابها، والخصم على ذلك، وقد أطلق عليه كاتب الغيبة.[1]

وكان الشيخ عادة ما يتولى تفقد طلبته، ويعدّها ابن جماعة من صفات المدرسين حيث يقول ابن جماعة : "وإذا غاب بعض الطلبة أو ملازمي الحلقة زائدا عن العادة سأل عنه وعن أحواله وعن من يتعلق به".[2]

وظهرت وظائف إدارية تربوية لم تكن تعرف من قبل، وما زالت مستخدمة في الجامعات المعاصرة، كوظيفة المعيد والمدرس وغيرها من الوظائف.

كل ذلك أدى إلى ازدياد أعداد الحفاظ والقرّاء والمحدثين والفقهاء والعلماء، وأدى كذلك إلى وجود مجتمع متعلّم، وإلى ظهور حركة علمية ساهم فيها الجميع.

وأما ما نراه في المؤسسات التربوية المعاصرة، فلا يرقى إلى ما وصلت إليه تلك المؤسسات، و لم يعد يرتبط العلم بالعمل، بل ما يدرس يبقى مجرد حفظٍ للنظريات والمعلومات، التي لا تقود صاحبها للعمل النافع في دروب الحياة.

وزادت الفتن والمعوقات التي تحول بين الطلبة وبين كثرة التحصيل أو الإبداع، وأصبح التعليم في مراحله المتقدمة حكرا على الأغنياء، لعدم مقدرة الفقراء على توفير احتياجات التعليم ورسومه، التي تفرضها المؤسسات الحديثة.

وكل ذلك أفرزته المدرسة الحديثة بكل معطياتها، حيث أصبح التعليم بمعزل عن الحياة الاجتماعية.

ويحسن بنا هنا أن ننقل الكلام النفيس لفضيلة الشيخ عبد الفتاح أبي غدة -رحمه الله- عند حديثه عن الثمار التعليمية للرحلة حيث يقول : "فوازن -رعاك الله- بين الدراسة التي أثمرتها هذه الرحلات التي عركت الطلاب الراحلين عركا طويلا، وبين دراسة طلاب جامعاتنا اليوم ! يدرسون فيها أربع سنوات وأغلبهم يدرس دراسة صحفية فردية، لا حضور ولا سماع، ولا مناقشة و لا اقتناع، ولا تطاعم في الأخلاق، ولا تأسي، ولا تصحيح لأخطائهم، ولا تصويب ولا تشذيب لمسالكهم، ويتسقطون المباحث المظنونة السؤال من مقرراتهم (المختصرة)، ثم يسعون إلى تلخيص تلك

---

[1]. محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية، ص ٢٥٢.

[2]. ابن جماعة : تذكرة السامع، ص ٦١-٦٢.

(المقـررات)، ثـم يسـعون إلى إسـقاط البحـوث غـير الهامـة مـن المقـروؤات، بتلطفهـم وتملقهـم لبعـض الأساتذة، فيجدون لدى بعضهم ما يسرهم، وإن كان يضرهم، وبذلك يفرحون! [1]

[1]. أبو غدة، عبدالفتاح : صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل، ص ١٠٩-١١٠.

المبحث الثاني :

مواد التعليم

استمرت مواد التعليم في هذه المرحلة كسابقتها، إذ تمركزت حول القرآن والحديث والفقه وعلوم اللغة، ولكن الاعتناء بالفقه فاق بقية المواد، فقد كانت المدارس تشكل العدد الأكبر من حجم المؤسسات التي أنشئت في هذه المرحلة.

حتى لا يطول البحث بإعادة ما سبق سأذكر بعض هذه المواد التي حصل لها تغيير طفيف في هذه المرحلة.

١ – القرآن الكريم :

فبالإضافة لما ذكرناه في الفصل السابق حول تعليم القرآن فيمكننا تقسيم مادة تعليم القرآن إلى قسمين :

القسم الأول : التعليم الأولي للقرآن بتلاوته وقراءته وحفظه، فقد عرف مجموعة من شيوخ الإقراء يتخذون أماكن خاصة بهم، سواء المدارس أو المساجد، ويأتي الناس ليختموا عليهم القرآن، وممن اشتهر بذلك أبو منصور الحناط، حيث ختم الألوف من الناس القرآن على يديه،[1] وظهر في القرن السابع الشيخ علم الدين السخاوي الدمشقي شيخ القرآن بدمشق (ت : ٦٤٣)، وقد ختم القرآن عليه ألوف من الناس أيضا.[2]

القسم الثاني : تعليم القرآن بالقراءات، فقد كان أبو بكر الجزري المقاصي (ت : ٧١٣) يَقرأ على الناس بالقراءات السبع وغيرها من الشواذ.[3]

وجمع القراءات السبع على الشيخ شهاب الدين الكفري (ت : ٧١٩) أكثر من عشرين طالبا بإتقان.[4]

وأما النّساء : فقد كان لهن شيخات يقمن على تختيمهن، ومنهن : عائشة زوجة الحافظ المزي (ت : ٧٤١)، حيث كانت تقرأ القرآن بتلاوة وفصاحة يعجز عنها كثير من الرجال، وقد ختّمَت كثيرا من النساء.[5]

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٧٧/١٢.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٨١/١٣. *

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٧٢/١٤. *

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٩٧/١٤. *

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٠١/١٤. *

وكانت الشيخة عائشة قد ختمت القرآن على شيختها فاطمة بنت العباس البغدادية (ت : ٧١٤)، حيث كانت النساء تختم عليها.[١]

وقد أشرنا عند الحديث عن المؤسسات إلى المؤسسات التي تدرس القرآن، فقد كان يدرس في دور القرآن، والجوامع، والمدارس، والربط، والترب، والخوانق، والزوايا، ومكاتب الصبيان والأيتام.

٢ – الحديث :

أصبحت دراسة الحديث معتمدة كليا على ما أنجزه علماء القرون الثلاثة الأولى، فقد كانت مهمة علماء هذه المرحلة : الشرح والاختصار، وإعادة الترتيب لكتب السابقين، واستمرت رواية كتب الحديث كاملة، وخصوصا كتب الصحاح والسنن والمسانيد.

فروى أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت : ٣٢٢) عن أبيه كتبه المشهورة، مثل الغريب وغيره[٢]، وروى إسماعيل بن أحمد (ت : ٤٣١) صحيح البخاري عن الكشْميهني عن الفربري عن البخاري.[٣]

وقد شاركت النساء أيضا في رواية الكتب، فقد روت فاطمة بنت الحسين بن فضلويه (ت : ٥٢١) مسند الشافعي[٤].

وكان الحديث يدرس في دور الحديث، والجوامع، والمدارس، والربط، والزوايا، والخوانق والترب.

٣ – الفقه :

يُعدُّ الفقه أهم المواد التي تم تدريسها في هذه القرون، وكانت المدرسة مخصصة لتدريس الفقه، وقد حافظت المذاهب الفقهية على استقلالها، إذ كان لكل مذهب قضاته وشيوخه ومؤسساته، وأكثر المذاهب انتشارا في الشام، والعراق، ومصر هو المذهب الشافعي، ويظهر ذلك في حجم المؤسسات والمدارس التي خصصت للمذهب، والتي سبق ذكر بعضها.

---

١. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٤/٧٤. *

٢. ابن كثير : البداية والنهاية، ١١/١٩٢. *

٣. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢/٥١. *

٤. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢/٢١٢. *

٤ – النحو :

وعلم النحو من العلوم التي تُدَرَّسُ في المدارس ودور الحديث، وغيرهما من المؤسسات، وأطلق على مُدَرِّسِيه لفظ شيخ النحو، وكان النحو يدرس بشكل رئيسي في المدرسة، لأهميته في فهم نصوص القرآن الكريم والأحاديث النبوية وتفسيرها، ومن ثم استخلاص الأحكام الشرعية منها.

٥ – الكتابة :

ظهرت في هذه المرحلة أنواع جديدة من الخط، مثل الخط المنسوب لابن البواب الكاتب (ت : ٤٠٣) [١]، وسبق في ذلك الخط المنسوب لأبي علي بن مقلة (ت : ٣٢٨).[٢]

وكان بعض من يتقن الخط يكتب الناس عنه، مثل ياقوت بن عبد الله (ت : ٦٩٨) حيث كان الناس ببغداد يكتبون على يديه.[٣]

وحافظت الكتاتيب ومكاتب الأيتام على الاهتمام بالكتابة لأهمية ذلك في سن الصبا.

٦ – التاريخ :

أصبح المؤرخ يملي ما كتبه على الناس فيروونه عنه، فقد كان الخطيب البغدادي يحدث الناس بجامع المنصور من كتابه تاريخ بغداد، وكان أحد تلاميذه يقرأ وهو يُبيِّنُ.[٤]

ويدلنا عدد المؤرخين في القرون المختلفة على مدى ازدهار علم التاريخ، وكثرة المصنفات فيه.

٧ – الفلسفة :

بقية مواد الفلسفة والمنطق وعلم الكلام تدرس في بعض المدارس، وخصوصا المدارس الخاصة بالشيعة.

ومن أشهرها : مدرسة نصير الدين الطوسي ببلدة مراغة، ومما دُرِّس في مدرسته الفلسفة والحديث والفقه والطب، وقد جعل للفيلسوف (الطالب) ثلاثة دراهم في اليوم، بينما للمحدث نصف درهم، وللفقيه درهما واحدا.[٥]

---

[١]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢/١٦. *

[٢]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١١/٢٠٧. *

[٣]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٤/٧. *

[٤]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢/١٠٩.

[٥]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣/٢٢٨.

وكان العلماء يشنعون على الطلبة الذين يتعاطون الفلسفة، أو شيئا من علم الكلام، فقد كان القاضي ابن الزكي يمزق كتب طلبة المدرسة النورية المتخصصة بالمنطق وعلم الكلام.[1]

وكانت الدولة تتدخل أحيانا لمنع تداول هذه العلوم، فقد منع الأشرف موسى الناس الاشتغال بغير التفسير والحديث والفقه، ومنع الاشتغال بالفلسفة وعلم الأوائل، وذلك سنة ست وعشرين وستمائة.[2]

٨ - علم الحساب :

برزت أهمية تعلمه في المعاملات والوصايا والمواريث، وحساب أوقات الصلاة والصيام.[3]

"وألف الناس فيها كثيرا وتداولوها في الأمصار بالتعليم للولدان، ومن أحسن التعليم عندهم الابتداء بها".[4]

٩ - الطب :

ومن العلوم الضرورية، وقد أنشئت لذلك العديد من البيمارستانات، سواء للتعليم أو للعلاج، وظهر كذلك خلال هذه المرحلة علماء عديدون، من أبرزهم ابن سينا الذي تبحر في الطب مبكرا، ففاق فيه الأوائل والأواخر.[5]

ويمكننا إضافة علم التصوف، حيث كان يدرس في الزوايا والخوانق.[6]

هذه مجمل العلوم التي أشار إليها ابن كثير في البداية، ولا شك أن هناك علوما أخرى عرفت، منها العلوم العقلية، كالهندسة والطبيعيات والجبر وغيرها.[7]

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٦/١٣.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣٣/١٣.

[3]. إبراهيم الخطيب : دور التعليم في تحرير بيت المقدس، ص ١٦٦.

[4]. ابن خلدون : المقدمة، ص ٦٧.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٤٥/١٢.

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٨٢/١٣.

[7]. انظر التياهين : علي سالم، نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك، ص ٣٥٢.

المبحث الثالث :

طرائق التعليم

استمرت طرائق التعليم التي تحدثنـا عنهـا في الفصل الأول والتي تشمل المذاكرة، والمناظرة، والحلقة، والرحلة، والصحبة، والقدوة، والسماع، والإجازة، وغيرها.

ويحسن بنا قبل بيان أنواع المجالس والحلقات التي كانت تُعقد أن نفرِّقَ بين الحلقة والمجلس : فالمجالس هي تجمعات علمية، يجلس فيها الطلبة بشكل متناسق أمـام الشيخ، وكانت هذه التجمعات عامة، يحضرها من أراد الحضور، وأمّا الحلقات فيجلس الطلبة فيها على شكل حلقات دائرية أمام الشيخ، وكانت الحلقات مقتصرة على فصول ثابتة، تضم عددا محدودا من الطلبة.[١]

وفيما يلي **أنواع الحلقات** والمجالس التي كانت تعقد في الجوامع والمساجد، والتي بدت أوضح في الكتاب خلال هذه المرحلة :

المطلب الأول :

الحلقات

استمرت الحلقات بصفتها من الطرق المهمة في عملية التعليم، وظهرت حلقات الفتيا، التي كان يتولاها كبار العلماء، فقد كان للشيخ أبي العباس الأبيوردي (ت : ٤٢٥) حلقة للفتوى بجامع المنصور بمصر.[٢]

وكانت هناك حلقات خاصة للمتخصصين من الطلبة، مثل حلقات الفقه، فقد كان بمصر حلقة للفقه لأبي حامد الإسفراييني (ت : ٤٠٦) بمسجد عبد الله بن المبارك، يحضرها سبعمائة متفقه،[٣] وكان يحضر حلقة إمام الحرمين الجويني ثلاثمائة متفقه.[٤]

وحلقات عامة تدرس فيها أحكام عامة : كالصلاة، والطهارة والوضوء، وغيرها، لعموم الناس.[٥]

وأخذت الحلقة ترتيبا إداريا منظما، بحيث يعين نائب للشيخ في الحلقة ومعيد، فمن ذلك أن أبا المعالي الجويني كان ينوب عن أبيه أبي محمد في حلقته.[٦]

---

١. منير الدين أحمد : دور المجالس والحلقات في النظام التربوي الإسلامي، ٢/٢٩٠.

٢. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢/٣٩. *

٣. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢/٤. *

٤. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢/١٣٧.

٥. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٤/٢٢٩.

٦. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢/١٣٦.

وكان ابن قاضي شهبة معيدا في حلقة الشيخ تاج الدين الفزاري،[1] وقد يتولى الشيخ أكثر من حلقة في آن واحد، وفي مسجد واحد، فقد كان لأبي بكر النجاد حلقتان بجامع المنصور : إحداهما للفقه، والأخرى لإملاء الحديث.[2]

وتقع مسئولية التعليم في الحلقة على الشيخ، بحيث يجلس والطلبة حوله في جهة واحدة، ليسهل نظر الشيخ إليهم جميعا، بإنصاف وإصغاء تام، فيلقي الشيخ الدرس، ثم يلقي الطلبة بأسئلتهم على الشيخ فيجيب، "ولا ينبغي للطالب أن يكرر سؤال ما يعلمه ولا استفهام ما يفهمه".[3]

وإذا فرغ الشيخ قام بطرح مسائل تتعلق بالدرس على الطلبة، ليمتحن فهمهم وضبطهم لما شرح لهم.

المطلب الثاني :

مجالس الإملاء

وهي التي يتم فيها تدوين ما يُحَدِّث به الشيخ، بحيث يملي الشيخ على التلاميذ سواء من حفظه أو من كتاب.

وتعد طريقة الإملاء من أضبط الطرق وأدقها، يقول السمعاني "وأما إذا أملى عليك المحدث وكتبت أنت من لفظه فلا يتطرق إليه نوع من الفساد لأنه يعرف ما يملي وأنت تسمع وتفهم ما تكتب".[4]

وكان المحدث الذي يكثر أخذ الحديث إملاءً يُقدم على غيره، يقول أبو بكر بن أبي شيبة : "من لم يكتب عشرين ألف حديث إملاءً لم يُعَد صاحب حديث".[5]

وكانت هذه المجالس تعقد منذ القرون الأولى، فكان غالب علماء الحديث يعقدون مجالس للإملاء، كالبخاري والفريابي وغيرهم،[6] وكان يستحب أن تعقد هذه المجالس في المساجد وخصوصا الجامعة منها.

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣٢/١٤.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٤٩/١١.

[3]. السمعاني : أدب الإملاء والاستملاء، ص ١٠٦.

[4]. المصدر السابق، ص ٦٩.

[5]. المصدر السابق، ص ٧٠.

[6]. انظر المصدر السابق، ٨٢-٨٣.

وممن أكثر من مجالس الإملاء أبو القاسم الأصبهاني (ت : ٥٣٥) حيث أملى ثلاثة آلاف مجلس، [١] وممن حدث من حفظه الحافظ أبو بكر الجعابي (ت : ٣٥٥)، فقد كان يملي الحديث إسنادا ومتنا إملاء جيدا محررا صحيحا، [٢] ومثله الحافظ أبو محمد الكناني الدمشقي (ت : ٤٦٦)، حيث كان يملي من حفظه، [٣] وقد كان يعقد للوزراء مجالس إملاء خاصة بهم، كما عُقِد للصاحب بن عباد. [٤]

وكان للوزير ابن حنزابه (ت : ٣٩١) مجلس إملاء في مصر، وبسببه رحل الدارقطني (ت : ٣٨٥) هناك وخرج له سندا. [٥]

وأما الحضور فقد كان يقاس بعدد حملة المحابر (أي الذين يدونون)، فقد كان قاضي دينور الشيخ أبو بكر جعفر بن محمد الفريابي (ت : ٣٠١) يحضر مجلسه ثلاثون ألفا، لذلك بلغ عدد المستملين في مجلسه ثلاثمائة ونيِّف، [٦] وتكون مهمة المستملي : تبليغ كلام الشيخ لمن يحضر مجلسه ولا يصله صوت الشيخ، لذلك استحب العلماء أن يكون المستملي نبيها وعارفا بعلم الحديث، حافظا ضابطًا ليؤدي كما سمع، وقد تقتصر وظيفة أحدهم على الإملاء.

وكانت المجالس تفتتح تلاوة سور من القرآن، وبعد إنصات الناس يرفع المملي صوته بما يريد أن يمليه بمقدار سماع الحاضرين، ويتخذ مستملين وإذا كان عدد الحاضرين كبيرا. [٧]

المطلب الثالث :

مجالس الوعظ والتذكير

وعلى أبواب هذه المجالس كانت تزدحم ركاب العامة لما لهذه المجالس من محبة في قلوبهم، وذلك لما يحصل فيها من وعظ وتذكير، وما تحوي من قصص ورقائق وترغيب وترهيب، وهذه أمور تستهوي نفوس العامة.

ومن أبرز الوعاظ الذي اشتهرت مجالس وعظهم، الشيخ جمال الدين بن الجوزي، فقد بدأ الوعظ صغيرا، وكان يصل عدد الحضور في مجلسه خمسين ألفا. [٨]

---

١. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٣٣/١٢. *

٢. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٧٩/١١. *

٣. ابن كثير : البداية والنهاية، ١١٦/١٢. *

٤. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٣٥/١١. *

٥. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٥١/١١. * وانظر ترجمة الدارقطني في البداية والنهاية، ٣٣٨/١١.

٦. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢٩/١١.

٧. انظر السمعاني : أدب الإملاء، ص ١١٥-١١٧.

٨. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢١٠/١٢.

وكان يجتمع إليه الخلفاء والوزراء والعلماء والأمراء والفقراء، وربما يصل عدد الحاضرين إلى مائة ألف.[1]

وكان كذلك سبطه أبو المظفر حيث اشتهر بالوعظ، وكان يحضر مجلسه ثلاثون ألفا،[2] وكان يعقد مجلسه بكرة يوم السبت، فكان الناس يبيتون ليلة السبت بالجامع حتى يسمعوا ميعاده، ثم يعودون يتذاكرون كلامه الحسن.[3]

وكان من النساء واعظات كذلك، من أبرزهن الماوردية (ت : ٤٦٦)، حيث كانت تعظ الناس في البصرة،[4] ومثلها ميمونة بنت شاقوله (ت : ٣٩٣) وكانت تحفظ القرآن.[5]

وقد يشترك الرجال والنساء في حضور هذه المجالس، كمجلس الشيخ أبي الحسن علي بن محمد البغدادي (ت : ٣٣٨)، حيث كان يحضره الرجال والنساء معا، مع تراتيب تمنع الخلطة بينهم.[6]

وكان بعض الوعاظ يتعصبون لمذاهبهم فينتج عن ذلك فتنٌ بين الناس، لذلك اقدم بعض الأمراء على منع الوعاظ من القيام بوعظهم.[7]

ويشترط في الواعظ حتى يكون مؤثرا في الناس : أن يكون بليغا فصيحا، قدوة لغيره، ملما بعلوم القرآن والحديث والمغازي والسير والقصص، وأن يحسن الغوص إلى المعاني البديعية، وتقريب الأشياء فيما يشاهده الناس من الأمور الحسية، بعبارة وجيزة سريعة الفهم والإدراك.[8]

وكان الوعظ يعقد في غالب المؤسسات كالمدارس، ودور الحديث، والقرآن، والتُّرب، والخوانق، والربط وغيرها.

وتعتمد مجالس الوعظ بشكل رئيسي على الواعظ، إذ يقوم بإلقاء موعظته، والناس مستمعون متأثرون خاشعون لقوله، فلا يدخلها السؤال إلا نادرا.

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٧٢/١٣.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٦٣/١٣.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٠٧/١٣.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١١٦/١٢.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٥٦/١١. *

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٣٦/١١. *

[7]. انظر ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢٩/١٢، ٢٨١.

[8]. انظر ابن كثير : البداية والنهاية، ٣١/١٣.

المطلب الرابع :

مجالس مكة

تعدّ قوافل الحج في هذه المرحلة مدرسة علمية مرتحلة، فمنذ خروجها يتم التعليم، وفي فترات توقفها يحدّث العلماء في البلاد التي ينزلونها، وفي مكة يجتمع علماء الأقطار المختلفة، وفي رحلة العودة يحدث الأمر نفسه.

وقد كان ركب الحج الشامي لسنة إحدى وثلاثين وسبعمائة يضم أربعمائة فقيه وأربع مدارس وخانقاه، ودار حديث وسبعة مفتين، وكان في هذا الموكب كبار العلماء أمثال ابن القيم وابن كثير.[1]

فأما أثناء المرور فقد سمع الخطيب البغدادي جميع صحيح البخاري من الشيخ إسماعيل بن أحمد الضرير (ت : ٤٣١) حيث قدم بغداد حاجًّا،[2] وسمع أيضا من أبي زرعة روح بن محمد الرازي (ت : ٤٢٣)، عندما قدم حاجا كذلك.[3]

وقدم الواعظ المفسر أبو عثمان الصابوني (ت : ٤٤٩) دمشق وهو في طريقه إلى الحج فأسمع الناس وذكّرهم.[4]

ويلتقي في مكة العلم العراقي مع الشامي مع اليمني عند الحجازي، فقد اجتمع في موسم سنة خمس وسبعين وستمائة عز الدين بن غانم المقدسي (ت : ٦٧٨)، وتاج الدين الفزاري وتقي الدين ابن دقيق العيد (ت : ٧٠٢)، وابن العجيل، وغيرهم من العلماء والفقهاء.[5]

وبواسطة مجالس مكة انتقل المذهب الأشعري إلى المغرب، فقد كان أبو زر الهروي (ت : ٤٣٤) يحج كل سنة ويقيم بمكة أيام الموسم يسمع الناس، وعنه أخذ المغاربة مذهب الأشعري.[6]

ونشير أخيرا إلى أن طرائق التعليم داخل مكاتب الصبيان كانت تتم من خلال التحفيظ الجزئي في مادة القرآن، فقد كان الشيخ يردد العدد من الآيات والصبيان يعيدونها من بعده، سواء كان ذلك عن ظهر قلب، أو مما يكتبونه في ألواحهم، وأما تعليمهم الكتابة فكان يتم بتكتيبهم حروف العربية، وتمييز المعجم من المهمل منها، ثم التهجئة للحروف حرفا حرفا، ثم يأخذ في تعليمه الكتابة بالتدريج.[7]

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٦١/١٤، وذكر المدارس إنما هو اعتبار وجود القائمين عليها ضمن ركب الحج.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٥١/١٢. *

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٧/١٢. *

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٨١/١٢. *

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٠٦/١٣. انظر ترجمة ابن غانم المقدسي في البداية والنهاية، ٣٠٦/١٣، وابن دقيق العيد، ٢٨/١٤.

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٥٤/١٢. *

[7]. انظر علي النباهين : نظام التربية الإسلامية، ص ٣٦٢.

وأما تعليم الحساب فكان يتناول العمليات الحسابية الرئيسية كالجمع والضرب والطرح والقسمة، ويتناول كذلك الجذر الحسابي، مع إجراء العمليات السابقة عليه.[١]

وينبغي على المعلم أن يراعي جملة من المبادئ التعليمية، والتي من شأنها أن تؤدي إلى تحقيق الثمار المرجوة من علمية التعليم، ومن أهم هذه المبادئ :

١ – **مراعاة حال الطلبة وقدراتهم، والفروق الفردية فيما بينهم** : لأن الله خلق الناس متفاوتين في ذلك، وقد نبه ابن خلدون على ضرورة مراعاة قدراتهم عند التعليم، فقال : "ويراعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يورَد عليه".[٢]

وأما طريقة اكتشاف هذه الفروق، فقد تكون بسؤال الشيخ عن حاله، وقد يكون بتجريب ذهنه ببعض المسائل.[٣]

٢ – **التدرج في التعليم والاقتصاد في بداية تحصيل الطالب** : فتقدم له من العلوم أسهلها ويقدم في كل علم أصوله، لأن ذلك أقرب إلى تحصيل الطالب وفهمه، يقول ابن خلدون : "أعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين، إنما يكون مفيدا إذا كان على التدريج، شيئا فشيئا وقليلا قليلا".[٤]

وفي موضع آخر يعيب على المعلمين الذي يغفلون عن ذلك فيقول : "وقد شاهدنا كثيرا من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا يجهلون طرق التعليم وإفادته، ويحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم".[٥]

وسبب هذا التدرج أن قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجيا عند المتعلم، وإذا ما سأل الطالب عن شيء لم يتأهل له بعد، فعلى المعلم ألا يجيبه، ويعرفه بعدم جدوى ذلك.[٦]

وعلى المعلم أن يوجه الطالب برفق إن سلك في التحصيل فوق ما تقتضيه قدراته،[٧] ويَعدّ الغزالي مراعاة هذا المبدأ من وظائف المعلم، فيقول في الوظيفة السادسة "أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه، فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله".[٨]

١. ابن خلدون : المقدمة، ص ٤٦٧.
٢. المصدر السابق، ص ٥٣١.
٣. ابن جماعة : تذكرة السامع، ص ٥٦.
٤. ابن خلدون : المقدمة، ص ٥٣١.
٥. المصدر السابق، ص ٥٣٢
٦. ابن جماعة : تذكرة السامع، ص ٥١.
٧. المصدر السابق، ص ٥٥.
٨. الغزالي : محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، ١/٧٦.

٣ – **ترتيب العلوم الأهم فالأهم والأسهل فالأسهل** : فلا يشتغل بعلم خفي قبل الفراغ من الجلي.[١]

وينهى ابن جماعة عن الاشتغال بعلمين معا، إذا قصَّرَ في أحدهما، فيقول : "ولا يُمَكّن الطالب من الاشتغال في فنين أو اكثر إذا لم يضبطهما، بل يقدم الأهم فالأهم، وإذا علم أو غلب على ظنه انه لا يفلح في فن أشار عليه بتركه، والانتقال إلى غيره، مما يجرى فيه فلاحه".[٢]

ويعلل ابن خلدون سبب ذلك حيث يقول : "ومن المذاهب الجميلة، والطرق الواجبة في التعليم، أن لا يُخلط على المتعلّم علمان معًا، فإنه حينئذ قلَّ أن يظفر بواحد منهما، لما فيه من تقسيم البال، وانصرافه عن كل واحد منهما إلى تفهم الآخر، فيستغلقان معا ويُستصعبان، ويعود منهما بالخيبة".[٣]

٤ – **تبسيط العلوم وتوضيحها أمام المتعلم** : ليسهل عليه فهمها وحفظها، والانتقال إلى غيرها، فيصور له المسائل ويضرب الأمثلة، ويكرر ذلك على سمعه، يقول ابن جماعة في آداب المعلم مع طلبته "أن يحرص على تعليمه وتفهيمه ببذل جهده، وتقريب المعنى له، من غير إكثار لا يحتمله ذهنه، أو بسط لا يضبطه حفظه، ويوضح لمتوقف الذهن العبارة، ويحتسب إعادة الشرح له وتكراره، ويبدأ بتصوير المسائل ثم يوضحها بالأمثلة".[٤]

٥ – **تطبيق مبدأ التعزيز للمصيب والمخطئ** : فيقوم بالثناء على من أصاب الإجابة، وأدى ما طلب منه، وفي ذلك يقول ابن جماعة : "فمن رآه مصيبا في الجواب و لم يخف عليه شدة الإعجاب شكره وأثنى عليه بين أصحابه، ليحثه وإياهم على الاجتهاد في طلب الازدياد".[٥]

ويعمل على توجيه وتعنيف المقصر "ومن رآه مقصرا و لم يخف نفوره عنّفه على قصوره، وحرضه على علوّ الهمة ونيل المنزلة في طلب العلم، لا سيما إن كان ممن يزيده التعنيف نشاطا، والشكر انبساطا".[٦]

ويَنصح ابن جماعة المعلم أن يتلطف في تأديب الطلبة وتوجيهم "فيزجر المعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن، ولا يصرح، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ، فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة".[٧]

---

[١]. المصدر السابق، ص ٧٥.

[٢]. ابن جماعة : تذكرة السامع، ص ٥٧.

[٣]. ابن خلدون : المقدمة، ص ٥٣٣.

[٤]. ابن جماعة : تذكرة السامع، ص ٥٥٢ وانظر ابن خلدون : المقدمة، ص ٥٣٢.

[٥]. المصدر السابق، ص ٥٤.

[٦]. المصدر السابق، ص ٥٤-٥٥.

[٧]. الغزالي : إحياء علوم الدين، ٧٦/١.

فإن استجاب المقصر بتلميح الشيخ لا يتعدى الشيخ إلى غيره من الطرق، وإن لم ينته نهاه عن ذلك سرا، فإن لم ينته جهر له بذلك، ويغلظ له القول، إن اقتضى الحال ذلك.[١]

٦ – **المساواة بين الطلبة :** الذين استووا في الصفات من سن أو فضيلة أو تحصيل فإن التمييز بينهم يوغر الصدور، وينمي ويزرع الحسد والحقد بينهم، وقد يساء الظن بالشيخ عندها، "فإن كان بعضهم أكثر تحصيلا وأشد اجتهادا... فأظهر إكرامه وتفضيله وبين أن زيادة إكرامه لتلك الأسباب".[٢]

---

١. ابن جماعة : تذكرة السامع، ص ٦١.

٢. المصدر السابق، ص ٥٩.

المبحث الرابع :

الدور التعليمي للمرأة

لم يفرق الإسلام في فضل العلم وإلزاميته بين الرجل والمرأة، وخصوصا فيما هو معلوم من الدين بالضرورة، وبدأ ذلك منذ بعثة الرسول -صلى الله عليه وسلم-، كما بينا ذلك سابقا، حيث تصدرت عائشة -رضي الله عنها- في القرن الأول بعلمها الذي فاقت فيه كثيرا من الصحابة، وخلفها بعض التابعيات سواء من تلميذاتها أو غيرهن، كأم الدرداء الصغرى التي كان لها حلقة في مسجد دمشق تفقه الناس فيها، وكان عبد الملك بن مروان يجلس وهو خليفة المسلمين وقتذاك في حلقتها[1]، وأيضا منهنّ أم هذيل حيث كانت عالمة فقيهة من خيار النساء.[2]

وبدأنا نلحظ دورا أكبر للمرأة في هذه المرحلة، حسب ما يورده ابن كثير : فقد أصبح منهنّ عالمات في مختلف العلوم الشرعية كالقرآن والحديث والفقه.

ففي القرآن كانت فاطمة بنت العباس البغدادية تختّم الناس القرآن[3]، وكانت عائشة زوجة المزي تختّم النساء أيضا، وقد ختّمت على يديها نساءٌ كثيرات.[4]

وأما الحديث فتبدوا لنا الصورة فيه أوضح، والمحدثات أشهر، فمنهن أم السلامة بنت القاضي أبي بكر أحمد بن شنخرة (ت : ٣٩٠)، وممن أخذ الحديث عنها الأزهري، والتنوخي، وأبي يعلى الفراء (ت : ٤٥٨) وغيرهم،[5] وكتب الخطيب البغدادي الحديث عن خديجة بنت موسى (ت : ٤٣٧).[6]

ومن المحدثات المعروفات كريمة بنت أحمد (ت : ٤٦٣) حيث سمعت صحيح البخاري من الكشميهني، وقرأ عليها الخطيب البغدادي صحيح البخاري في خمسة أيام.[7]

ومنهن فاطمة بنت الحسين التي سمعت من الخطيب البغدادي وغيره، وحفظت مسند الشافعي، وأسمعته للطلبة، وممن سمع منها ابن الجوزي.[8]

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٩/٥٠.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣١٣/١١.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٧٤/١٤.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٠١/١٤.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٥٠/١١.*

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٥٩/١٢.

[7]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١١٢/١٢. وانظر ١٠٨/١٢.

واشتهرت الشيخة ست الوزراء بنت عمر بن المنجا (ت : ٧١٦) بكثرة الرواية، فقد روت صحيح البخاري وغيره من الكتب،[١] ومما يدل على كثرة المحدثات أن الحافظ بن النجار (ت : ٦٤٣) له ثلاثة آلاف شيخ منهم أربعمائة امرأة.[٢]

وكنّ يجزن من يَسمَعهنّ، فقد أجازت الشيخة عفيفة الفارقانية الشيخ برهان الدين بن إسماعيل (ت : ٦٨١)،[٣] وأجازت كذلك الخاتون مؤنس بنت السلطان العادل أبي بكر (ت : ٦٩٣).[٤]

وفي الفقه برزت أم عيسى بنت إبراهيم الحربي (ت : ٣٢٨)، حيث كانت عالمة فاضلة تفتي بالفقه.[٥]

وأما ستيتة بنت القاضي أبي عبد الله الحسين بن إسماعيل المحاملي (ت : ٣٧٧)، فقد كانت من أعلم الناس في وقتها بمذهب الشافعي، وكانت تفتي به.[٦]

واشتهر بعض النساء بحسن الخط وإتقان الكتابة، منهن فاطمة بنت علي (ت : ٤٨٠) حيث عرفت بالكاتبة، وكانت تتقن خط ابن البواب، فكان الناس يكتبون عليها.[٧]

وكتبت فاطمة بنت الحافظ البرزالي صحيح البخاري في ثلاثة عشر مجلدا، حيث صارت نسختها أصلا معتمدا يكتب عنه الناس.[٨]

وكانت بعض النساء يقمن بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، منهن فاطمة بنت عباس البغدادية، حيث كانت من الآمرات بالمعروف، وكانت تقوم على فرقة الأحمدية في مؤاخاتهم النساء والمُردان، وتنكر أحوالهم وأصول بدعهم.[٩]

وشاركت النساء كذلك في الوعظ، فأقيمت الأربطة الخاصة بوعظ النساء.[١٠]

---

٨. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢١٢/١٢.

١. ابن كثير : البداية والنهاية، ٨١/١٤.*

٢. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٨٠/١٣.*

٣. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣١٧/١٣.*

٤. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٥٦/١٣.*

٥. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٠٩/١١.

٦. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٢٦/١١.

٧. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٤٣/١٢.

٨. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٩٧/١٤.

٩. ابن كثير : البداية والنهاية، ٧٤/١٤. والأحمدية فرقة صوفية تنسب للسيد أحمد بدوي (ت : ٦٧٥) انتشرت بمصر والشام. (الخطيب: معجم المصطلحات، ص ٢٠).

١٠. انظر في هذا البحث ص ١٩٩.

وأما مؤسسات تعليم النساء فتشمل مؤسسات خاصة كالأربطة، وكن يتعلمن كذلك في بيوتهن بواسطة آبائهن وأزواجهن، وكن يحضرن دروس العلم في المساجد والجوامع، فقد كانت فاطمة البغدادية تحرص على حضور درس ابن تيمية، وكانت تكثر من الأسئلة، بحيث يستعد ابن تيمية لأسئلتها، إذ كانت تستحضر كثيرا من المغني لابن قدامة أو أكثره.[1]

1. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٤/٧٥-٧٦.

المبحث الخامس :

العوامل المؤثرة في العملية التعليمية

ارتبطت مسيرة الحركة العلمية بما يحيط بها من عوامل وحوادث، وقد سبق أن تحدثنا في الفصل الأول عن عوامل أثرت بشكل فاعل على التعليم، وظهرت في هذه المرحلة عوامل عديدة مستجدة، إضافة لاستمرار بعض العوامل التي ظهرت في المرحلة الأولى، وبناء على تأثير هذه العوامل على الحركة العلمية سلبا أو إيجابا يمكننا تقسيمها إلى عوامل دافعة وأخرى معيقة.

المطلب الأول :

العوامل الدافعة

ويقصد بها العوامل التي أدت إلى تنشيط الحركة العلمية، وزيادة مؤسساتها وانتشارها، وتخريج أعداد كبيرة من العلماء، والفقهاء، والقضاة، والمفتين، والخطباء، ومما يندرج تحت هذا النوع :

أ - مساهمة الدولة في تشجيع الحركة العلمية :

كان لتبني الدولة ورعايتها للحركة العلمية أثر كبير في زيادة المؤسسات، وفتح الباب على مصراعيه لطلبة العلم، ولتثمر في نهاية مطافها علماء عاملين حاملين للواء العلم والعمل معا.

وأما إذا بحثنا عن دوافع الدولة وغايتها من هذا التشجيع فنجدها متعددة، فمنها طلب الأجر والثواب ونيل رضا الله، والنجاة من ناره، ومنها حُبُّ بعضهم للعلم وأهله، كما بينا ذلك عند الحديث عن أسباب بناء المدارس.

وقد كان بعض السلاطين يدرك الأخطار الفكرية والمذهبية التي تحيط بالدولة السُّنية، فيبادر إلى إنشاء مؤسسات كفيلة بالتصدي لهذه الأخطار، ولا يمنع وجود من يبتغي تثبيت أركان دولته وسلطانه، فيشجع العلم ويبني مؤسساته، كما ذكرنا المماليك كمثال على ذلك.

أما مجالات التشجيع فتشمل : النفقة على المشتغلين بالعلم، ومنحهم العطايا والهبات، وتشمل بشكل أبرز إقامة المؤسسات لذلك بمختلف أنواعها.

وظهر تشجيع الدولة بشكل بارز في عهد نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي، فقد توسع نور الدين في بناء المؤسسات التعليمية، فعندما دخل دمشق بنى لأهلها المدارس والمساجد والربط، واهتم بتعليم الأيتام، فوقف عليهم مكتبا ليتعلموا فيه القراءة والكتابة، وهو أول من بنى دار حديث، وبنى مدرسة خاصة بالحنفية وبنى تربة لهم كذلك.

وأما صلاح الدين فبعد دخوله مصر بـدأ بعملية تنقية وتطهير للمواد التعليمية من تأثيرات المذهب الشيعي، فبنى فيها المدارس وأحلَّ القضاة من أهل السنة محل القضاة الشيعة.[1]

وبعد فتح بيت المقدس سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة بنى مدرستين في بيت المقدس، إحداهما للشافعية والأخرى للمالكية.[2]

وكذلك فعل عمه المظفر تقي الدين، فقد بنى مدرستين كبيرتين، إحداهما بدمشق، وأخرى بحماة.[3]

وكان الملك المعظم يعطي على حفظ كتاب المفصّل للزمخشري ثلاثين دينارا جائزة.[4]

وفي دولة المماليك انتشرت المؤسسات بشكل كبير، إذ قلَّ أن تجد سلطانا أو أميرا أو تاجرا إلا وقد وقف مؤسسة، وبعضهم وقف أكثر من مؤسسة، وقد تعرضنا لذلك عند ذكر أسباب البناء للمدارس مع الأمثلة العديدة عليها، فيُنظر هناك.[5]

ب – استمرار الرحلات العلمية :

استمرت الرحلة في هذه القرون كسمة مميزة، وعامل مهم في تحصيل العلم، ولكن ظهرت بعض الفروق والاختلافات في هذه المرحلة عن سابقتها.

فإذا كان صاحب الرحلة سابقا يقصد شيخا بعينه، فإنه في هذه الرحلة غالبا ما يقصد مؤسسة، فمع انتشار المؤسسات، وتدريس كبار العلماء فيها، وتوفير النفقة والسكن فيها لطلبة العلم، خصوصا الغرباء منهم، ازدادت الرحلة وقلّت أعباؤها، وتوجهت الأنظار بالذات صوب مصر والشام والعراق، وممن ارتحل من المغرب إلى المشرق محمد بن تومرت، حيث درّس في النظامية، وعاد إلى بلاده بعد إكماله الدراسة.[6]

وظهرت في هذه المرحلة أيضا الرحلة الجماعية، بحيث ترتحل أسرة بتمامها إلى محلّة العلم، ومن أبرز الأمثلة على ذلك هجرة المقادسة، فقد انتقلوا سنة إحدى وخمسين وخمسمائة من بيت المقدس إلى دمشق،[7] وكان لهم أثر بارز في الحياة العلمية بدمشق، وأصبح جبل قاسيون الذي سكنوه منارة علمية

---

1. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٨٢/١٢.
2. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٤٨/١٢.
3. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٦٩/١٢.
4. ابن كثير : البداية والنهاية، ٨٧/١٣.
5. انظر في هذا البحث ص : ١٠٧.
6. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٩٩/١٢.
7. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٠٧/١.

يقصدها الطلبة، حيث امتدت بين جنباته دور العلم من مدارس، وربط، وترب، منها المدرسة الخاتونية ومدرس أبي عمر.[1]

وكان من هذه الأسرة (المقادسة) عدد كبير من العلماء الذين شدت إليهم الرحال، أمثال أبي عمر، وعبد الغني، وموفق الدين، وشرف الدين، وغير واحد منهم.

ومن الرحلات أيضا رحلة الحرانيين نحو دمشق سنة سبع وستين وخمسمائة،[2] وبرز كذلك العديد من علمائهم والذين منهم عبد الحليم بن تيمية (ت : ٦٨٢) شيخ دار الحديث السكرية، وقد كان من العلماء المبرِّزين والمفتين المتميزين،[3] وأشهرهم شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، ولا يخفى دوره العلمي والجهادي، داخل دمشق وخارجها، خصوصا في تصديه للغزو التتري.[4]

وممن هاجر أيضا من أهل حران الشيخ ابن قاضي شهبة،[5] ومجد الدين إسماعيل الحراني (ت : ٧٢٩).[6]

وظهرت أيضا الرحلة القسرية، بحيث يخرج العالم من بلده لأسباب سياسة لينتقل إلى بلد آخر يبث فيه علمه.

فقد رحل الخطيب البغدادي نحو دمشق فارًّا من فتنة البساسيري (ت : ٤٥٠) سنة خمسين وأربعمائة، وحدّث بها.[7]

وعندما غضب الخليفة الناصر لدين الله أحمد (ت : ٦٢١) على أبي الفرج بن الجوزي نفاه إلى واسط، فأقام بها خمس سنوات، وانتفع أهلها به واستفادوا منه.[8]

وأنكر الشيخان العز بن عبد السلام (ت : ٦٦٠) وأبو عمرو بن الحاجب على الصالح إسماعيل بسبب تسليمه قلعة شقيف لصاحب صيدا الفرنجي، فغضب عليهما وأخرجهما من دمشق،

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣/١٨٢.
[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣/٢٦٩.
[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣/٣٢٠. *
[4]. انظر ابن كثير : البداية والنهاية، ١٤/١٤٢.
[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٤/١٣٢.
[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٤/١٥٢. *
[7]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢/١٠٩. انظر ترجمة البساسيري في البداية والنهاية، ١٢/٨٢.
[8]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣/٢٢. انظر ترجمة الناصر أحمد في البداية والنهاية، ١٣/١١٤.

فتوجه العز نحو مصر، فاشتغل أهلها على يديه، وممن تتلمذ عليه ابن دقيق العيد، وأما أبو عمر فقد توجه نحو الكرك وأفاد أهلها.[1]

وعندما نُفي ابن تيمية إلى الإسكندرية دخل الناس عليه، وقد اشتغلوا عليه بمختلف العلوم.[2]

وكانت المدن العلمية تجتذب طلبة العلم فيرتحلون إليها مستقرين فيها، فرحل أبو سعد الماليني (ت : ٤١٢) من هرات نحو مصر واستقر بها،[3] واستقر الشيخ محي الدين النووي في دمشق، وكانت أسرته تقيم في نوى (إحدى قرى حوران)،[4] واستقر كذلك ابن سيد الناس في مصر، وقد قدم من الأندلس.[5]

ولم تتغير أهداف ومشاق الرحلة، إلا أن توفير السكن والنفقة داخل المؤسسات ذلّل كثيرا من الصعوبات، وخصوصا بعد إنشاء المدارس والخانات والقيساريات في مختلف النيابات والمدن الإسلامية.

جـ - كثرة التصنيف وانتشار النُسَّاخ :

يعدُّ الكتاب من الوسائل المهمة في العملية التعليمية، إذ بواسطته تنتقل علوم الأولين إلى الآخرين، ويطّلع الآخرون على جهود الأولين، فيكملون ما بدؤوه، ويتمون ما نقصوه، والكتب أوعية العلم، ويَفضُل الكتابُ صاحبَه بأمور "فالكتاب يقرأ بكل مكان، ويُظهر ما فيه على كل لسان، موجود في كل زمان، مع تفاوت الأعمار، وبعد ما بين الأمصار وقد يذهب العالم وتبقى كتبه، ويفنى عقله، ويبقى أثره".[6]

لذلك حرص العلماء على التصنيف وتفاوتوا في ذلك، فكان بعض العلماء من المكثرين في التصنيف، مثل ابن جرير الطبري، الذي كان يكتب كل يوم ما يقارب أربعين ورقة لمدة أربعين سنة.[7]

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٦٦/١٣. انظر ترجمة ابن عبدالسلام في البداية والنهاية، ٢٤٨/١٣، والصالح إسماعيل : ١٩١/١٣.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٥١/١٤.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢/١٢.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٩٤/١٣.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٧٨/١٤.

[6]. الخطيب البغدادي : تقييد العلم، ص ١١٨.

[7]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٥٦/١١.

وكان أبو بكر الباقلاني (ت : ٤٠٣) لا ينام حتى يكتب عشرين ورقة،[١] وبسط القاضي الماوردي (ت : ٤٥٠) الفقه في أربع آلاف ورقة،[٢] وبلغت مصنفات ابن حزم (ت : ٤٥٦) أربعمائة مجلد في ثمانين ألف ورقة.[٣]

وقد اشترك الملوك والوزراء في التصنيف بالرغم من مشاغلهم، فقد صنف المؤيد صاحب حماة (ت : ٧٢٣) في علوم عديدة، وله تاريخ حافل في مجلدين كبيرين، وله نظم الحاوي.[٤]

وكتب الوزير فتح الدين أبو محمد بن القيسراني (ت : ٧٠٣) مصنفا في أسماء الصحابة الذين خُرِّج لهم في الصحيحين.[٥]

وكان المصنفون يراعون جملة من الآداب عند التصنيف منها : الطهارة، والابتداء بالبسملة، ثم خطبة الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله، ويراعي الإعلام بانتهاء الجزء، وكذلك يراعى تعظيم اسم الله والصلاة على رسوله -صلى الله عليه وسلم- وتُستحَبّ الكتابة بخط واضح غليظ.[٦]

وينبغي عند تصحيح الكتاب "أن يُشكل المشكل، ويعجم المستعجم، ويضبط المُلتبس، ويتفقد مواضع التصحيح، وتنقيط الحروف المعجمة".[٧]

وأما أسباب التصنيف، فبالإضافة لحفظ العلم وتقييده، فهناك طلب الأجر في الدنيا، واستمراره بعد الموت، وكذلك رغبة الشيخ في إفادة طلبته، والاجتهاد في تحصيل طالب يحمل علمه.

ويزداد نشاط التأليف إذا كان برعاية الدولة، أو عن طلب السلطان أو الأمير، فقد طلب عضد الدولة البويهي (ت : ٣٧٢) إلى أبى علي الفارسي (ت : ٣٧٧) تصنيف كتاب في اللغة، فألف الإيضاح، وأصبح يُقرَأ في قصره.[٨]

وأيضا طلب الأمير بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل (ت : ٦٥٦) من ابن الأثير تصنيف كتاب شامل في التاريخ، فصنف الكامل، فأجازه عليه وأحسن الأمير إليه.[٩]

---

١. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٧٣/١١. *

٢. ابن كثير : البداية والنهاية، ٨٥/١٢. *

٣. ابن كثير : البداية والنهاية، ٩٨/١١. *

٤. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٦٦/١٤. *

٥. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٢/١٤. *

٦. انظر ابن جماعة : تذكرة السامع، ص ١٧٣-١٧٧.

٧. المصدر السابق، ص ١٨١.

٨. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٢٠/١١. * وانظر ترجمة أبي علي الفارسي : ٣٢٦/١١.

٩. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٢٧/١٣. *

وكان الملك المعظم عيسى بن العادل مشجعا للتصنيف، فقد أمر بجمع صحاح الجوهري وجمهرة بن دُريد وتهذيب الأزهري في مصنف واحد، وأمر كذلك بأن يرتب له مسند أحمد.[1]

وقد يكون من الأسباب الدافعة للتأليف ما يشهده واقع المصنف من أحداث، فعند قيام الدولة الفاطمية واشتداد ساعدها ورعايتها للتشيُّع، وادعائها لكثير من الأشياء الباطلة، صنّف القاضي الباقلاني كتابه "كشف الأسرار وهتك الأستار" بيَّن فيه فضائحهم ورد دعاويهم.[2]

وعندما شتم شاب نصراني الرسول -صلى الله عليه وسلم- وتلكأ الأمير في حسابه، صنف ابن تيمية كتابه "الصارم المسلول على سابِّ الرسول -صلى الله عليه وسلم-".[3]

وأحيانا كانت تنتقل الخلافات الفقهية بين العلماء إلى بطون الكتب، فعندما احتد الخلاف بين ابن تيمية وتلاميذه من جهة، وبين بقية القضاة من جهة أخرى، في مسألة الطلاق بلفظ ثلاث هل تقع واحدة أم ثلاثا، صنف ابن الزملكاني كتابا في الرد على ابن تيمية، مبينا وقوعه ثلاث طلقات.[4]

وحصل خلاف بين الفقهاء في حكم بناء الكنائس بعد هدمها، فألف تقي الدين السبكي كتابه "الدسائس في الكنائس".[5]

وعموما فإن الأسباب إما أن تكون بدافع من المؤلف، أو الدولة، أو الأحداث، والوقائع التي تجري، أو باشتراك أكثر من سبب في ذلك.

وقد قابل الزخم في التأليف كثرة في عدد النساخ، وزيادة في دور الورّاقين، حيث ظهرت هذه الدور بصفتها مؤسسة تقوم على نسخ الكتب وبيعها، وتم اختراع الخطوط الحسنة كخط ابن مقلة، وابن البواب الكاتب، لذلك اشتهر النساخ الذين يقومون بنسخ الكتب وبيعها، ومن أبرزهم ابن القزاز الكاتب (ت : ٣٨٤) حيث نسخ مائة تفسير ومائة تاريخ، وخلف ثمانية عشر صندوقا مملوءة كتبا، أكثرها بخطه،[6] وكتب الشيخ تاج الدين السعدي (ت : ٧٣٢) نحوا من خمسمائة مجلد.[7]

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣١/١٣.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٧٠/١١.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٥٥/١٣.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣٧/١٤.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٦٠/١٤.

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣٣٤/١١. *

[7]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٦٦/١٤. *

وأما أجرة النسخ فهي تختلف من كتاب لآخر، وتعتمد علـى القيمـة العلمية للكتـاب، وعـدد صفحاته، وجودة الخط، وغالبا ما يحدد الناسخ قيمة الكتاب، فأبو سعيد السـيراني (ت : ٣٦٨) كـان ينسخ كل يوم عشرة أوراق بعشرة دراهم.[١]

وأما الحسن بن شهاب العكبري (ت : ٤٢٨) فقد كتب ديوان المتنبي في ثـلاث ليـال وباعـه بمائتي درهم.[٢]

ونسخ الشيخ شهاب الدين أبو العباس البكري (ت : ٧٣٣) صحيح البخـاري بـألف درهـم، وجمع تاريخا في ثلاثين مجلدا، وباعه بأزيد من ألف درهم.[٣]

واتخذ كثير من العلماء النسخ مهنة لتكفيهم مؤونة العيش، ومن هؤلاء أبو حامد الغزالي.[٤]

وكان بعض العلماء ينسخ كتبه بيده ويقابلها بعـد ذلـك علـى مـن اشتهر بحسـن الخـط ودقـة الضبط، فقد صحح الإمام الغزالي كتاب الصحيحين على ابن سعدويه الدهقاني (ت : ٥٠٣).[٥]

وكان ابن المنتزه يجلس عند الجامع الأموي، ويصحح الناس عليه كتبهم، ويقابلون نسخهم.[٦]

وكان بعض العلماء ممن خطه ليس بذاك يتخذ له ناسخا، فقد كان عبـد الله بـن رشـيق (ت : ٧٤٩) ينسخ للشيخ ابن تيمية كتبه، حيث كتب أكثر مصنفات الشيخ، وكان أبصر بخـط الشـيخ منـه، وإذا صعب على الشيخ شيء استخرجه هو.[٧]

وقد أشرنا سابقا إلى وجود نساء اشتغلن بالنسخ، منهنّ فاطمـة بنـت البرزالي حيـث نسـخت صحيح البخاري في ثلاثة عشر مجلدا، وصار الناس يصححون ويقابلون عليها.[٨]

وكان يشترط في الناسخ جودة القراءة عمـن ينسـخ، وحسـن الخـط المكتـوب، وصحـة النقـل وضبطه، والعلم بما ينسخ ليحدد الألفاظ والمعـاني، ويستحسـن أن يكـون ملمـا ببعـض العلـوم كاللغـة والحديث والفقه.[٩]

---

١. ابن كثير : البداية والنهاية، ٣١٣/١١. *

٢. ابن كثير : البداية والنهاية، ٤٤/١٢. *

٣. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٧٢/١٤. *

٤. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٨٥/١٢.

٥. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٨٣/١٢. *

٦. ابن كثير : البداية والنهاية، ٨٦/١٤.

٧. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٤١/١٤. *

٨. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٩٧/١٤.

٩. انظر ابن كثير : البداية والنهاية، ١٦٤/١٢.

وتمر عملية إخراج الكتب بعدة مراحل تشمل : النسخ، والمقابلة، والتصحيح، والتجليد، ثم البيع.[1]

وكان من ثمار هذا العامل تسهيل وصول الطلبة إلى ما كتبه السابقون، وانتشار المكتبات في جميع المؤسسات.

المطلب الثاني :

العوامل المعيقة

وهي العوامل التي كان لها دور في إعاقة الحركة العلمية، سواء بجميع أركانها، أو بجزء منها، وهناك ثلاثة عوامل رئيسة ساهمت في هذه الإعاقة، وهي :

أ – الغزو التتري :

لم يُبتَلَ العالم الإسلامي منذ قيام دولة الإسلام واتساع رقعتها بمصيبة أشد وأعتى من مصيبتهم بقدوم التتر، حيث القتل والحرق والتدمير والنهب.

وانطلقت هذه الفتنة في سنة ست عشرة وستمائة، وكانت البداية من نصيب بخارى، حيث دخلها التتار وقتلوا من أهلها عددا لا يعلمه إلا الله، وسبوا النساء، وبعد ذلك أشعلوا النيران في دور بخارى ومدارسها ومساجدها، حتى صارت بلاقع خاوية، ولم يكونوا ليذروا بلدا حتى يقتلوا جميع من فيه من المقاتلة، والرجال، وكثير من النساء والأطفال، ويتلفون ما فيه بالنهب إن احتاجوا إليه، وبالنار إن لم يحتاجوا إليه.

وفي مَروَ قتلوا في يوم واحد سبعمائة ألف إنسان، وساروا نحو نيسابور، وفعلوا الأمر نفسه هناك.[2]

وأما عاصمة الخلافة بغداد فقد كان الأمر فيها أشد وأعتى، ابتداء بمقتل الخليفة ومن معه، وانتهاء بقتل كل من وصلت أيديهم إليه، وقد بلغ عدد القتلى نحو مليونين، ولم يدعوا شابا أو شيخا، أو امرأة أو طفلا إلا قتلوه، وامتد التدمير نحو المؤسسات، فلم ينجُ منهم مسجد أو مدرسة أو رباط.

واستمر السيف يعمل في أهلها أربعين يوما، قتل فيها الأئمة والعلماء والخطباء، وحملة القرآن، وتعطلت الجمع والجماعات، ومن العلماء الذي قتلوا الشيخ محي الدين بن يوسف بن أبي الفرج ابن

---

[1]. انظر ابن كثير : البداية والنهاية، ١٧٢/١٤.

[2]. انظر ابن كثير : البداية والنهاية، ٩٤/١٣-٩٨.

الجوزي، ومعه أولاده الثلاثة عبد الله وعبد الرحمن وعبد الكريم، وشيخ الشيوخ صدر الدين علي النيار.

ولما انقضت الأربعون يوما بقيت بغداد خاوية على عروشها، ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس، والقتلى في الطرقات، كأنها التلول، واجتمع على الناس البلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون.[1]

ووصف ابن كثير تأثير هذه المصيبة على الحركة العلميَّة بقوله : "وبُدّلت بعد تلاوة القرآن بالنغمات والألحان وإنشاد الأشعار، وكان وكان، وبعد سماع الأحاديث النبوية دُرِّسَتِ الفلسفة اليونانية والمناهج الكلامية والتأويلات القرمطية، وبعد العلماء بالأطباء، ... وبعد الطلبة المشتغلين بالظلمة والعيارين وبعد الرؤيا بالموشح ودبيت وموالياً".[2]

واستغل أهل الرفض الفرصة فقاموا بنهب كتب بغداد، ونقل نصر الدين الطوسي كثيرا منها إلى مراغة.[3]

وقد ذكر المؤرخون أن خزائن كتب مراغة امتلأت بما نهبه هولاكو من العراق والشام، وقدَّر ما حمله بأربعمائة ألف مجلد.[4]

وأعاد التتار الكرة مرة أخرى مع مطلع القرن الثامن حيث نهبوا الصالحية، ومسجد الأسدية، ومسجد خاتون، ودار الحديث الأشرفية، ونهبت كتب كثيرة في الرباط الناصري، وقتلوا خلقا كثيرا ممن اجتمع برباط الحنابلة، وفعلوا بالمزَّة ما فعلوه بالصالحية.[5]

وهكذا قتل التتارُ العلماءَ، ودمروا المؤسساتِ، ونهبوا الكتب، وقتلوا خلقا كثيرا ممن نالتهم أيديهم.

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣/٢١٣-٢١٤ باختصار شديد.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٠٤/١٠.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٢٨/١٣.

[4]. محمد كرد علي : خطط الشام، ١٩٢/٦. وانظر معروف، ناجي : تاريخ علماء المستنصرية، ٤٢/١.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٩/١٤.

ب – التعصب المذهبي :

شهدت القرون الثلاثة الأولى جهودا حثيثة في فهم النصوص الشرعية واستخلاص الأحكام منها، فأنتجت ثروة علمية كبرى في علم الفقه، واستقرت المذاهب الأربعة للعلماء المعروفين، وكان أصحاب المذاهب ينيبون إلى الحق، ويتناظرون فما بينهم بهدف الوصول إليه.

ولكن في مرحلة الضعف والتمزق السياسي والتقليد العلمي والتفكك الاجتماعي ظهرت العصبية للمذهب، بحيث تؤدي إلى تعطيل الحركة العلمية وتمنع العالِم من ممارسة التعليم، وانشغال الفقهاء ببعضهم البعض.

فقد منع عوام الحنابلة في بغداد ابن جرير الطبري من التحديث، ومنعوا أي شخص من أن يصل إليه، وعندما توفي دفن في داره، لأن بعضهم منعوا دفنه نهارا، ونسبوه إلى الرفض ورموه بالإلحاد.[1]

وبرزت الفتن على أشدها بين الأشاعرة والحنابلة، وخصوصا فيما يتعلق بمسائل العقيدة مثل : الكلام والاستواء والنزول، ومن الفتن التي حصلت ما وقع سنة سبع وأربعين وأربعمائة في بغداد، حيث قوي جانب الحنابلة، فلم يكن لأحد من الأشاعرة أن يشهد الجمعة ولا الجماعات.[2]

وفي سنة سبعين وأربعمائة وقعت فتنة بين الحنابلة وفقهاء النظامية أدت إلى مقتل عشرين رجلا وجرح آخرين،[3] وفي سنة خمس وتسعين وخمسمائة عزم العزيز صاحب مصر (ت : ٥٩٥) على إخراج الحنابلة من مصر، والكتابة لإخوانه لفعل ذلك في بلادهم، فعاجلته المنية قبل أن يتمَّ الأمر.[4]

وبعد ذلك بسنة حرق عوام الحنابلة بمَروَ جامعا عظيما للشافعية.[5]

ويقول أحد متعصبي الأحناف وهو القاضي أبو عبد الله البلاساعوني التركي (ت : ٥٠٦) "لو كانت لي الولاية لأخذت من أصحاب الشافعي الجزية".[6]

وقد ظهر نوع من التعصب الشخصي عند بعض أهل العلم تجاه آخرين، فقد أُخرِجَ عبد الغني المقدسي (ت : ٦٠٠) من أصبهان مطرودا بسبب كلامه على كتاب أسماء الصحابة لأبي نعيم،

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٥٧/١١.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٧١/١٢.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢٥/١٢.

[4] ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٠/١٣.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٦٢/١٣.

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٨٧/١٢.

وخرج من الموصل خائفا يترقب بسبب الثورة عليه من قبل الأحناف لتدريسه كتاب الجرح والتعديل للعُقيلي.[1]

وواجه ابن تيمية السجن والنفي بسبب الحسد من قِبَل كبار العلماء في دمشق، فسُجِنَ بقلعة مصر، وتوفي في سجن القلعة بدمشق.[2]

جـ – نمو الحركة الشيعية :

ظهرت أغلب الفرق الشيعية في القرون الثلاثة الأولى، ولكن لم تقم لهم دولة قوية تتبنى هذا المذهب إلا مع مطلع القرن الرابع، عندما ظهرت في المشرق الإسلامي دولة الفاطميين دعاة المذهب الشيعي، وقد استحوذ على مصر ودخلها الخليفة المعز الفاطمي سنة اثنتين وستين وثلاثمائة[3]، ثم انتزع الفاطميون دمشق من القرامطة، وخُطب بالحرمين في مكة والمدينة للمعز الفاطمي.[4]

وكانت في الفترة نفسها -وهو القرن الرابع- قد قامت دولة البويهيين في بغداد، وذلك سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة،[5] وكانت دولة الحمدانيين في الشام تسيطر على أجزاء كبيرة منها، وقد وصف ابن كثير انتشارهم في هذه المرحلة في حوادث سنة سبع وأربعين وثلاثمائة، حيث قال :

"وقد امتلأت البلاد رفضا وسبا للصحابة من بني بُوَيه، وبني حمدان، والفاطميين، وكل ملوك البلاد مصرا وشاما وعراقا وخراسان وغيرها من البلاد كانوا رفضا، وكذلك الحجاز وغيرهم، وغالب بلاد المغرب، فكثر السب والتكفير بينهم للصحابة".[6]

وكانت دول القرامطة والإخشيدية والكافورية تقف يدا واحدة، يعين بعضها بعضا، وانضم إليهم الفاطميون بعد ذلك.[7]

أما آثار هذا النمو فهي كثيرة : إذ نشطت الفرق الباطنية من أمثال القرامطة والدرزية، والحشاشون،[8] وصاحب ذلك بدعتهم الشنعاء في سب الصحابة وإقامة شعائرهم التي تطعن في أهل

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٤٣/١٣.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٤٠/١٤، وانظر ١٤٠/١٤.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٩١/١١.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٩٥/١١.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٢٥/١١.

[6]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٤٧/١١.

[7]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٨٧/١١.

[8]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٨٧/١١. والدروز : وهم فرق باطنية تؤله الحاكم بأمر الله، وأخذت عقيدتها عن الإسماعيلية. والحشاشون : وهم طائفة فاطميّة تدعو إلى إمامة نزار بن المستنصر بالله، الندوة العالمية، الموسوعة الميسرة، ص ٢٢٣، ٢٠٣.

السنة، لذلك نشأت معارك عديدة بين أهل السنة وأهل الرفض، كانت تنتهي بالحرق والقتل والتدمير بين كلا الطرفين.

فخرج البساسيري في فتنة طالت جميع أنحاء بغداد سنة خمسين وأربعمائة بمساعدة الفاطميين، وقتل في بغداد كثيرا من العلماء أمثال : الحسن بن محمد الوني، وأبو القاسم بن مسلمة، [1] وفر كثير منهم من بغداد أمثال الخطيب البغدادي وغيره.[2]

وقامت فتنة بين الشافعية والعلوية بمرو واحترقت فيها المساجد والمدارس والأسواق،[3] وحصلت فتن كثيرة بين أهل السنة وأهل الرفض.[4]

وأيضا تغلب الفرنج أثناء ملكهم على كثير من بلاد المسلمين، وفي ذلك يقول ابن كثير : "لهذا لما ملك الفاطميون بلاد مصر والشام وكان فيهم الرفض وغيره استحوذ الفرنج على سواحل الشام وبلاد الشام كلها، ولم يبق مع المسلمين سوى حلب وحمص وحماة ودمشق وبعض أعمالها، وجميع السواحل وغيرها مع الفرنج والنواقيس النصرانية والطقوس الإنجيلية تضرب في شواهق الحصون والقلاع، وتُكفّر في أماكن الإيمان من المساجد وغيرها من شريف البقاع، والناس معهم في حصر عظيم وضيق من الدين".[5] بالإضافة لقيام الفرق الباطنية واحتلال المدن الإسلامية وانتشار بدعتهم في سب الصحابة وتكفيرهم.

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢/٨٦.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢/١٠٩. انظر فتنة الباسيري بتفصيل في البداية والنهاية، ١١/٨٢.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢/٢٥٥.

[4]. انظر ابن كثير : البداية والنهاية، ١٢/٣٣و٦٠.

[5]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١١/٢٥٦.

المبحث السادس :

التتبع التاريخي للألقاب العلمية

يمكننا تحديد **نوعين من الألقاب** : **النوع الأول** وهو الألقاب التي لا تختص بفترة معينة، بل أطلقت في جميع القرون، مثل لفظ العالم والشيخ.

وكان يطلق على طلبة العلم في القرون الأولى لفظ أصحاب، فنجد أصحاب ابن مسعود، وأصحاب ابن عباس، وأصحاب الشافعي، وأصحاب مالك، يقول الشافعي : "الليث أفقه من مالك ولكن أصحابه ضيّعوه"[1].

وأما **النوع الثاني** فهو الألقاب التي ظهرت في فترة زمنية محددة، ففي مراحل متلاحقة اختص بكل علم **مجموعة من الألقاب** يمكننا تصنيفها فيما يلي :

المطلب الأول :

ألقاب أهل القرآن

عرف منذ عهد النبي (ﷺ) من يختص ويداوم على القرآن بالمقرئ، ويطلق على المجموعة قرّاء، فقد كان يطلق على ابن أم مكتوم في المدينة المقرئ لقيامه بتعليم الأنصار القرآن، وقد كان أصحاب السرية التي استشهدت يوم بئر معونة تعرف باسم القرّاء، وعرف الذين داوموا على قراءة القرآن عند أبي موسى الأشعري باسم القُرّاء، وكان بعضهم ممن انفصل عن جيش علي -رضي الله عنه- وسُموا فيما بعد الخوارج، حيث يقول أبو وائل أحد جنود جيش علي : "فجاءته الخوارج ونحن ندعوهم يومئذ القرّاء".[2]

وأطلق أيضا على العلماء الفقهاء، فقد قال الإمام مالك عن طلق بن حبيب : "قتله الحجاج وجماعة من القراء منهم سعيد بن جبير"،[3] ومن هنا فإن لقب قرّاء صاحب أهل القرآن، ومن تخصصوا في تفسيره واستخراج أحكامه من العلماء والفقهاء.

واستمر لفظ المقرئ يطلق في القرون اللاحقة على أهل القرآن، وأطلق لقب شيخ الإقراء على من يدرس القرآن في مختلف المؤسسات.[4]

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٠/١٧١.

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٧/١٨٤.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٩/١٠٧. *

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣/١٨١.

المطلب الثاني :

ألقاب أهل الحديث

استمر لقب المحدث والحافظ عبر القرون ليدل على من تخصص وبرع في علم الحديث، ونتيجة للتراتيب التعليمية الجديدة برزت ألقاب جديدة وتطورت أخرى، وفيما يلي أهم الألقاب التي اختص بها أصحاب الحديث :

أ – شيخ الحديث : واختص هذا اللقب بمن يُدَرِّس الحديث في المؤسسات التعليمية، كدور الحديث والمدارس والترب، فكان شيخ الحديث في تربة أم صالح كمال الدين بن الشريشي[1]، وشغل شمس الدين الذهبي مشيخة الحديث في دار الحديث السكرية.[2]

وقد سبق أن ذكرنا إطلاق لفظ المملي على شيخ الحديث عند قيامه بإملاء الحديث على الحاضرين.

ب – المستملي : وهو الذي يقوم بنقل أحاديث الشيخ إلى من لا يسمعها ممن يحضر المجلس، إذ كانت هذه المجالس تمتلئ بالحضور، ولا يستطيع الشيخ أن يسمع البعيد، فاتخذ الشيخ محدثا يقوم بنقل أحاديثه، وكانت كثرة المجالس تقاس بعدد المستملين، فقد كان يحضر مجلس إبراهيم بن عبد الله الكجي (ت : ٢٩٢) سبعة مستملين كل يبلغ صاحبه.[3]

جـ – قارئ الحديث : واقترنت هذه الوظيفة بدروس الحديث التي كانت تدرس في المدارس والترب وما شابهها من مؤسسات، فقد رتب المستنصر في مدرسته قارئان للحديث يقرئان على الشيخ،[4] وهي تشبه وظيفة المستملي في القرون الأولى.

د – المحدث : وهو من الألقاب المشتركة إذ كان يطلق في القرون الأولى على من برع في علم الحديث، وضَبَطَ عددا كبيرا منها يؤهله لتصدر مجلس الحديث، ثم أصبح هذا اللقب في عصر المؤسسات يطلق على الطلبة الذين يدرسون الحديث، فرتب في دار الحديث السكرية ثلاثون محدثا برواتب ونفقة.[5]

هـ – أصحاب المحابر : وهم طلبة الحديث، ولقبوا بذلك لأنهم يصحبون إلى مجالس الحديث المحبرة والأوراق والأقلام، ليكتبوا ما يمليه الشيخ، فقد كان يحضر مجلس أبي بكر قاضي دينَور عشرة آلاف من أصحاب المحابر.[6]

---

[1] ابن كثير : البداية والنهاية، ٩١/١٤.

[2] ابن كثير : البداية والنهاية، ١٩٥/١٤.

[3] ابن كثير : البداية والنهاية، ١٠٥/١١.

[4] ابن كثير : البداية والنهاية، ١٥٠/١٣.

[5] ابن كثير : البداية والنهاية، ١٩٥/١٤. وانظر ٢٢٨/١٢.

[6] ابن كثير : البداية والنهاية، ١٠٥/١١.

المطلب الثالث :

ألقاب أهل الفقه

ذكرنا مرارا أن المدرسة هي المؤسسة الرئيسة التي تدرس الفقه، وكان يقوم بالتدريس هيئة تدريسية تتكون من المدرس ونائبه والمعيد عنه، وفيما يلي نورد ألقاب أهل الفقه :

أ – **المدرس** : وهو يطلق على الشيخ الذي يتولى تدريس الفقه في المدرسة، وكان لكل مدرسة مدرس، وقد تحدثنا عن ذلك عند ذكر المدارس، وتولى وظائف التدريس كبار العلماء،[1] وكان يطلق خلال المرحلة الأولى على المدرس ألقاب عديدة كالعالم والشيخ والفقيه والإمام.

ب – **نائب المدرس** : ويقوم على شئون التدريس حال غياب المدرس، وشغل الشيخ أبو الحسن ابن سعاد الفارسي منصب نائب المدرس في النظامية.[2]

وكان هذا اللقب أيضا يستخدم في الحلقات، فقد كان أبو المعالي الجويني ينوب عن أبيه في التدريس في حلقته.[3]

جـ – **المعيد** : وهو الذي يتولى إعادة الدرس على الطلبة، وإتمام الناقص منه، ويصحح خطأ الطلبة، وكان المعيد على درجة من العلم والفقه، بحيث يدرك مرامي الألفاظ، ويُستحب أن يكون من الصلحاء الفضلاء، صبورا على أخلاق الطلبة.

وكان هذا اللقب متداولا في المدارس والحلقات، فقد كان ابن الجوزي معيدا في المدرسة المأمونية عند إبراهيم بن دينار الحنبلي.[4]

وأعاد ابن قاضي شهبة في حلقة الشيخ تاج الدين الفزاري.[5]

وكان يخصص لكل مدرس معيد أو أكثر، فقد شغل التدريس في المستنصرية أربعة مدرسين، وكان لكل واحد منهم أربعة معيدين.[6] وكانت وظيفة المعيد تقابل وظيفة قارئ الحديث في دور الحديث.

---

[1] انظر في هذا البحث ص ١٥٣.

[2] ابن كثير : البداية والنهاية، ٤٩/١٣.

[3] ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣٧/١٢.

[4] ابن جماعة : تذكرة السامع، ص ٢٠١.

[5] ابن كثير : البداية والنهاية، ٢٦٣/١٢.

[6] ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣٢/١٤.

د – الفقيه : وهو لفظ كان يطلق أولا على شيوخ الفقه وعلمائه، ثم أصبح يطلق على طلبة الفقه، ومن يَدرُسُونه، فقد ورد هذا اللفظ في عبارات عديدة، فكان يشتغل على أبي محمد بن عبد الجبار (ت : ٤٤٩) سبعمائة متفقه، [1] وكان يحضر مجلس أبي المعالي الجويني ما يقارب ثلاثمائة متفقه.[2] وأما في المدارس فقد رتب المستنصر في مدرسته طلبة من المذاهب الأربعة من كل مذهب اثنان وستون متفقها.[3]

ورتب إقبال الشرابي في مدرسته الإقبالية ببغداد خمسة وعشرين فقيها، وجعل لهم جرايات[4].

وعموما فقد أصبح يطلق على الطلبة ألقاب بحسب ما يدرسون، فمن درس الحديث فهو محدث، ومن درس الفقه فهو فقيه، ومن درس الفلسفة فهو فيلسوف.

٤ – لقب شيخ : وقد ارتبط هذا اللقب بالمادة التي تُدرَّسُ فمن يُدرِّس القرآن يُلقب بشيخ الإقراء، ويطلق على من يدرس الحديث شيخ الحديث، والأمر نفسه في بقية المواد فنجد شيخ الطب وشيخ النحو وشيخ الحساب وشيخ الإنشاء.[5]

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

[1]. ابن كثير : البداية والنهاية، ٧٦/١٢..

[2]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣٧/١٢.

[3]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٥٠/١٢.

[4]. ابن كثير : البداية والنهاية، ١٣٩/١٣.

[5]. انظر ابن كثير : البداية والنهاية، ١٥٠/١٣، ٣١٦ و ٨٢٤/١٤.

الخاتمة

أولا: النتائج

ثانيا : التوصيات

الخاتمة

النتائج والتوصيات :

أولاً – النتائج :

أ- في مجال العرض التاريخي لعناصر العملية التربوية خلال القرون الثمانية الأولى :

١. أكدت الدراسة على التمايز بين المرحلتين : مرحلة القرون الثلاثة الأولى والتي تم حفظ حديث النبي (ﷺ) وتدوينه، بالإضافة لتدوين علوم عديدة : كالتفسير، والفقه، والنحو، وغيرها، والمرحلة الثانية ابتدأت مع مطلع القرن الرابع وتميزت بكثرة بناء المؤسسات التربوية التعليميّة وتنوعها، مما ساهم في تنشيط الحركة التعليمية.

٢. أكدت الدراسة على الخطى السريعة التي سارت بها عملية التعليم في عصر النبي (ﷺ) حتى نشأ جيل كثير العدد من المتعلمين والمتخصصين في فروع دقيقة من العلوم، إذ كان التعليم مسؤولية جميع أفراد المجتمع المسلم، فساهم كل واحد بدوره في حفظ العلوم الشرعية ونشرها.

٣. بيّنت الدراسة أن العلوم الشرعية والتي تشمل : القرآن، والحديث، والفقه، بقيت على مدى القرون الثمانية هي المواد الرئيسية في عملية التعليم مع تفاوت في تقديم إحداها على الأخرى في بعض المراحل.

فقد كان القرآن حتى عصر الراشدين هو المادة الأولى في عملية التعليم، ومع ظهور الوضع والزندقة والافتراء على النبي (ﷺ) برز علم الحديث وازداد الاهتمام به أكثر من غيره من العلوم، وبعد القرن الرابع وبظهور المدارس أخذ الفقه المكانة الأولى بين غيره من المواد، وانتشر داخل المؤسسات المتنوعة، وورد ذكر العلوم المساندة والمساعدة كالنحو، والبلاغة، والأصول، والعقائد، والطب، والحساب، والإنشاء. أما الحديث عن الهندسة والفلك والرياضيات فلم أعثر على إشارة واضحة تدل عليها.

٤. أكدت الدراسة على تداول طرائق للتعليم عديدة متشابهة عبر القرون الثمانية، أبرزها الحلقات والمجالس على اختلاف مواقعها ومواضيعها، وهناك المناظرة، والمذاكرة، والسؤال،

ومع ظهور المؤسسات الجديدة ـ ومن أبرزها المدرسةُ ـ انتقلت هذه المجالس إلى المؤسسات لتقلّ فاعليتها في الجوامع والمساجد وإن استمر عقدها هناك.

٥. كانت الصحبة في القرون الثلاثة الأولى أهم الأساليب التعليمية، فبواسطتها أخذ الصحابة عن النبي (ﷺ)، وصاحب صغار الصحابة كبارهم، وصحب التابعون الصحابة وهكذا هو الحال خلال القرون الثلاثة الأولى، ومن أهم ميزات الصحبة تلقي التعليم بواسطة المحاكاة والمباشرة والقدوة، وهذه الأساليب من أكثر الأساليب فاعلية في تحقيق قدر كبير من العلوم والمعارف والآداب.

٦. اشتهرت الرحلة بين العلماء بصفتها وسيلة مهمة لتلقي العلم ونشره وضبطه، وزيادة الحصيلة العلمية لدى المرتحلين، وتميز أهل الحديث بالإكثار من الترحال، وكانت الرحلة إما لشيخ اشتهر بالعلم، أو لبلد انتشر فيه العلماء، ومع ظهور المؤسسات وانتشارها مع مطلع القرن الرابع أصبحت الرحلة إليها من أهم الدوافع مع بقاء الرحلة إلى المدن والشيوخ كدافع مهم.

٧. أظهرت الدراسة الجهود التي بذلت خلال القرون الثلاثة الأولى لحفظ مصادر التشريع رواية وتدويناً وتفسيراً، إذ تّم جمع آراء الصحابة وفتاواهم وفقههم، ودُّون حديث النبي (ﷺ) في الكتب، ولم تكد تمضي هذه القرون حتى حفظت الأحاديث، ودونت مختلف العلوم، لذلك أطلق على هذه المرحلة بحق مرحلة الرواية والتدوين، ولتكون العلوم والمعارف التي تم حفظها وتدوينها في هذه المرحلة مصدراً يعتمد عليه كل من جاء بعد ذلك من أهل العلم وطلبته.

وأما أهل القرون التاليّة فهم عيال على أهل المرحلة الأولى إذ بذلت جهودهم غالباً في إطار العلوم والمصنفات السابقة شرحاً واختصاراً وتذيلاً واستدراكاً، وزيادات وتحريرًا، وحواشي وهوامش ومع ذلك لم تخل هذه المرحلة : من تصنيف مبتكر لم يسبق فيه من سلف.

٨. عكست الدراسة ما ورد في كتاب البداية فيما يخص دور المرأة العلمي، إذ لاحظت أن المصنف لم يشر كثيرًا إلى تعلم وتعليم المرأة في القرون الثلاثة الأولى، إلا أن الدور كان أظهر وأبرز في القرون التي تلت ذلك حتى القرن الثامن، وهذا ما ظهر في البحث إذ خصصت الباحث مبحثاً مستقلاً عن الدور التعليمي للمرأة.

ب - في مجال العرض التأريخي للمؤسسات التعليميّة :

١. أكدت الدراسة على دور المسجد التعليمي خلال القرون الثمانية، وخصوصاً في المرحلة الأولى منها، حيث كان المسجد المؤسسة الرئيسة في عملية التعلّم والتعليم، إلا أن ظهور العديد من المؤسسات التعليمية في المرحلة الثانية أدى إلى التقليل من دور المسجد، إذ أصبحت هذه المؤسسات تؤدي جميع وظائف المسجد وزيادة، سواءٌ الخطابة أم الصلاة أم التدريس أم الإفتاء، أم القضاء أم غير ذلك.

وتجدر الإشارة إلى أن أبرز الجوامع التي ظهرت عبر القرون هما الحرمان المكي والمدني، بالإضافة إلى المسجد الأقصى، والمسجد الأموي، وجامع الحاكم، وجامع المنصور، وجامع الموصل، والجامع الأزهر.

٢. ميزت الدراسة بين مرحلتين : الأولى منهما اقتصرت المؤسسات فيها على المساجد والقصور والبيوت، والمرحلة الثانية تنوعت المؤسسات فيها وكثر عددها، وكان أبرز هذه المؤسسات المدارس حيث امتدت عبر بلاد المسلمين شرقها وغربها، وقد تنوعت هذه المدارس من حيث الحجم والمذهب وعدد الطلبة.

٣. ظهرت أسماء جديدة للمؤسسات مع مطلع القرن الرابع كالمدارس والترب والخوانق والمشاهد ودور القرآن والحديث، وحظيت المؤسسات الصوفية بالنصيب الأكبر من هذه المؤسسات، وقد تولى التدريس في هذه المؤسسات كبار العلماء.

٤. بينت الدراسة ازدهار المكتبات، وظهورها على أشكال ثلاثة : المكتبات العامة وهي ما تسمى خزائن الكتب، والخاصة وهي التي تخص شخصاً بعينه، والمكتبات الملحقة بالمؤسسات إذ قلما نجد مؤسسة تخلو من مكتبة.

٥. أثبتت الدراسة دور الدولة في بناء المؤسسات وتنشيط الحركة العلمية، كذلك مشاركة أفراد المجتمع في إنشاء هذه المؤسسات والتسابق إلى وقفها، مما أثمر أعداداً كبيرةً من العلماء الذين انتشروا في البلاد والمدن الإسلامية، وأتاحت هذه المؤسسات لكافة فئات المجتمع، تلقي العلوم وعلى أيدي كبار العلماء ومشاهيرهم.

٦. مع ظهور المؤسسات ظهرت ألقاب علمية جديدة، إذ أُطلق على طلبة المدارس الذين يَدرسون الفقه فقهاء، وعلى الذين يَدرسون الحديث محدثين، وعلى من يَدرس الفلسفة فيلسوف، وظهر مع المدرس من يعينه في تداريسه كالنائب الذي يتولى وظائفه حال غيابه،

وكالمعيد الذي يقوم بإعادة الدرس على الطلبة، وأطلق على مدرسي العلوم الأخرى لقب شيخ بحيث يسمى مدرس الحديث شيخ الحديث وكذا النحو والحساب والبلاغة وغيرها وكان لشيخ الحديث نواب ومقرئون يعينونه في التدريس.

٧. كانت الأوقاف هي المورد الرئيسي لعملية التربية والتعليم وكانت مصدر رزق للمدرسين والفقهاء والمستخدمين في هذه المؤسسات.

٨. لقيت الحركة الصوفية عناية كبيرة في ميدان التعليم من قبل الأمراء والسلاطين، فأنشئت العديد من المؤسسات المخصصة لهم، والتي تشمل الرعاية والعناية لهم بجميع أشكالها.

٩. وكان للواقف وكتاب الوقف السلطة الأولى في تحديد المناهج والمدرسين والمذاهب والأنظمة وغيرها من التراتيب المتعلقة بالمؤسسة.

جـ ـ في مجال العرض التأريخي للعوامل الفاعلة في حركة التعليم :

١. أكدت الدراسة من خلال استعراض أهمية العلم ومكانة العلماء، التطبيق العملي لذلك من خلال سيرة النبي (ﷺ) على تآزر هذه العوامل لتكوين جيل كامل من العلماء والحفاظ.

٢. بينت الدراسة أثر تفرق الصحابة في الأمصار على نشر العلم، وتكوين جيل من التابعين تلقوا علم الصحابة وقاموا بنشره، حتى حُفظت لنا سنة النبي(ﷺ) وآراء الصحابة وفتاواهم، وأدى تعدد هذه الأمصار إلى تكوين أصحاب لكل صحابي، يأخذون فقهه ويبلغون اجتهاداته وينشرونها، وأدى كذلك إلى تنشيط الرحلة في طلب العلم بسبب تفرق أحاديث المصطفى(ﷺ) بتفرق أصحابه.

٣. وكما شهدت القرون الثلاثة الأولى الخير والعلم والتميّز، فإنها لم تخل من ظهور فتن وفرق وثورات انعكست بشكل كبير على الحركة العلميّة سواء من حيث ذهاب كثير من العلماء في هذه الفتن، أم قيام التشويه والدس والتحريف على القرآن والسنة وآراء الصحابة واجتهاداتهم.

٤. أكدت الدراسة على أثر تشجيع الخلفاء والسلاطين والأمراء في زيادة حركة التدوين، وتنشيط نقل العلوم، سواءٌ كان هذا التشجيع يمثل المساعدات المالية التي تقدم لأهل العلم وطلبته، أم المؤسسات التي تبنى للعلم، أو دفع حركة التأليف بتشجيع تصنيف الكتب ونقلها ونسخها ونشرها، وترجمة الكتب التي صنفت بلغات أخرى.

٥. أكدت الدراسة أيضاً على أثر الغزو التتري على حركة التعليم، بحيث شملت هذه الآثار قتل العلماء والطلبة وتدمير المؤسسات، وحرق الكتب ونهبها، وتخريب البلدان، حواضر العلم والتي من أشهرها بغداد ودمشق في تلك المرحلة.

٦. بينت الدراسة اثر التعصب الفقهي السني من جانبين : الجانب الإيجابي والذي تمثل في التسابق نحو بناء المؤسسات الخاصة بالمذهب، ورفد حركة التأليف في معرض بيان رأي المذهب في المسائل المختلف فيها، والجانب السلبي والذي تمثل في الاقتتال بين أصحاب المذاهب، وانتشار الكراهية بينهم ومنع بعضهم البعض من التدريس والإفتاء.

ثانيًا – التوصيات :

من خلال هذه الدراسة خلصت إلى مجموعة توصيات، أُجمِلُها في يلي :

١. إجراء دراسات من قبل الباحثين، قائمة على الاستقراء التأريخي للآثار التربوية والتعليمية، من أجل حصر هذه الآثار، لتكون مرجعاً تربوياً للباحثين في ميدان الدراسات التأريخية التربوية.

٢. إجراء دراسات تاريخية : مقارنة بين كتب التاريخ، للخلوص إلى صورة دقيقة جلية عن الآثار التعليمية والتربوية، بعيداً عن الوهم والخطأ، الذي قد يقع بسبب عدم دقة الأخبار والروايات.

٣. إيلاء كتب التاريخ الإسلامي أهمية في دراسات الباحثين في هذا البرنامج، لأهمية الماضي في صناعة المستقبل، ومن الكتب المقترحة لإجراء دراسات عليها : تاريخ الأمم والملوك للطبري، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، تاريخ دمشق لابن عساكر، والكامل في التاريخ لابن الأثير.

٤. تبني دراسات تاريخية شاملة ومقارنتها مع الدراسات المعاصرة في مختلف العلوم التربوية .

٥. دراسة الآثار التربوية من خلال الوثائق التاريخية وكتب الوقف، لما تضمنته من مادة غنية تعطي صورة واضحة عن المسيرة التربوية التعليمية.

٦. دراسة الآثار التربوية أثناء خلافة الدولة العثمانية، لما تشكله هذه المرحلة من أهمية في تاريخ التربية الإسلامية، وذلك لأنها الأقرب إلينا، ولنستبين واقع التعليم في مرحلة ضعف الدولة وأثر ذلك عليها.

٧. العمل على إحياء الوقف الإسلامي للمؤسسات، وتقديم الرعاية الكاملة للعلماء وطلبة العلم الشرعي.

الفهارس العامة

ثبت الآيات القرآنية

ثبت الأحاديث النبوية

ثبت المؤسسات التعليمية *

أ – دور القرآن :

ب – دور الحديث :

جـ – المدارس :

* اعتمدت في فهرست المؤسسات على ذكر رقم الصفحة في الموضع الذي عرِّفت فيه المؤسسة، وأما المؤسسات التي لم أعثر على تعريف لها فقد اكتفيت بذكر رقم الصفحة التي ذكرت فيها أول مرة.

الجوامع والمساجد

المكتبات

مكتبة العاضد الفاطمي	٢٠٢
مكتبة الفاروقي	٢٠٣
مكتبة القاضي الفاضل	٢٠٤
المكتبة الفاضلية	٢٠٣
مكتبة المدرسة العادلية الكبيرة	٢٠٤
مكتبة المدرسة الناصرية	٢٠٤
مكتبة المدرسة النوريّة	٢٠٤
مكتبة الأمير نوح بن نصر الساماني	٢٠٢

التُّرَب

تربة ستيتة	١٩٣
تربة الإمام الشافعي	١٩٤
تربة أم صالح (المدرسة الصالحيّة)	٢٢
التربة الصوفيّة	١٩٣
تربة القاضي عثمان	١٩٤
تربة آل القلانسي	١٩٣
تربة نور الدين زنكي	١٩٣

الخوانق

خانقاه سرياقوس	١٦٦
الخانقاه السمياطية	٢٠٠
الخانقاه الصلاحيّة	٢٠٠

الرُّبُط

الزوايا

المشاهد

مؤسسات أخرى

ثبت الأعلام *

أ –

* اعتمدت في فهرست الأعلام على ذكر رقم الصفحة التي أحلت فيها الترجمة على أحد كتب التراجم، وأما الصحابة فقد ذكرت رقم الصفحة التي ذُكر فيها الصحابي أول مرة، وأما الأعلام الذين لم أتمكن من إحالة تراجمهم فقد اكتفيت بذكر رقم الصفحة التي ذُكر فيها أول مرة.

ب

ث

ج

خ

س

ش

ص

غ

ف

م

ن

هـ

و

ي

ثبت المصادر والمراجع والرسائل

أولاً – ثبت المصادر :

* القرآن الكريم.

١ – ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد (ت :٦٣٠)
الكامل في التاريخ، د. ط، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥.

٢ – البخاري، محمد بن إسماعيل (٢٥٦ هـ)
الصحيح المسند (بشرح فتح الباري)، الطبعة الثانية، دار الريان، القاهرة، ١٩٨٨.

٣ – ابن بطوطة : محمد بن عبد الله الطبخي (ت : ٧٧٩)
رحلة ابن بطوطة، د. ط، دار التراث، بيروت، ١٩٦٨.

٤ – الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (ت : ٢٧٩)
الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، د. ط، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤.

٥ – ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن بن يوسف (ت : ٨٧٤)
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق : محمد حسين شمس الدين، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢.

٦ – التهانوي : محمد علي الفاروقي
كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق لطفي عبد البديع، د.ط، المؤسسة المصرية، القاهرة، ١٩٦٣.

٧ – الجاحظ، عمرو بن بحر (ت :٢٥٠)
التاج في أخلاق الملوك، تحقيق : أحمد زكي باشا، الطبعة الأولى، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩١٤.

٨ – ابن جماعة، بدر الدين بن إبراهيم (ت : ٧٣٣)
تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم، د.ط، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

٩ – ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (ت : ٨٥٢)
إنباء الغمر بأبناء العمر، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦.

١٠ – ـــــــــــــــ
الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، تحقيق : محمد سيد جاد الحق، الطبعة الثانية، دار الكتب الحديثيّة، القاهرة، ١٩٦٩.

١١ - ____________

فتح الباري شرح صحيح البخاري، الطبعة الثانية، دار الريان للتراث، القاهرة، ١٩٨٨.

١٢ - الحسيني الدمشقي (ت : ٧٦٥)

ذيل تذكرة الحفاظ، د.ط، دار إحياء التراث العربي، القاهرة، د.ت.

١٣ - الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت : ٦٢٦)

معجم البلدان، الطبعة الثامنة، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥.

١٤ - ابن حنبل الشيباني، أحمد بن محمد (ت : ٢٤١)

مسند أحمد بن حنبل، د.ط، المكتب الإسلامي، دار صادر، بيروت، د.ت.

١٥ - الخطيب البغدادي، أحمد بن علي (ت : ٤٦٣)

الرحلة في طلب الحديث، تحقيق : نور الدين عتر، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٥.

١٦ - ____________

تقييد العلم، تحقيق : يوسف العش، الطبعة الثانية، دار إحياء السنة، د.م، ١٩٧٤.

١٧ - الخطيب التبريزي، محمد بن عبد الله (ت : ٧٣٧)

مشكاة المصابيح، تحقيق : ناصر الدين الألباني، الطبعة الثالثة، المكتب الإسلامي.

١٨ - ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت : ٨٠٨)

مقدمة ابن خلدون، تحقيق : درويش الجويدي، الطبعة الأولى، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٥.

١٩ - خليفة، حاجي (ت : ١٠١٧)

كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون، د.ط، وكالة المعارف الحلبية، اسطنبول، ١٩٤١.

٢٠ - الداوودي، شمس الدين محمد بن علي (ت : ٩٤٥)

طبقات المفسرين، الطبعة الأولى دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣.

٢١ - الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت : ٧٤٨)

تاريخ الإسلام، تحقيق : عمر بن عبد السلام، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٧.

٢٢ - ________

تذكرة الحفاظ، د.ط، دار إحياء التراث العربي ـ القاهرة، د.ت.

٢٣ - ________

سير أعلام النبلاء، الطبعة العاشرة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٤.

٢٤ - الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (ت : ٥٠٢)

المفردات في غريب القرآن، د.ط دار المعرفة، بيروت، د.ت.

٢٥ - الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله (ت : ٧٩٤)

الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة، تحقيق سعيد الأفغاني، د.ط، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٣٩.

٢٦ - الزرنوجي، برهان الدين

تعليم المتعلم طريق التعلُّم، تحقيق مصطفى عاشور، د.ط، مكتبة القرآن، القاهرة، ١٩٨٦.

٢٧ - السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين (ت : ٧٧١)

طبقات الشافعيّة الكبرى، الطبعة الثانية، دار المعرفة، بيروت، د.ت.

٢٨ - السجستاني، أبو داوود سليمان بن الأشقت (ت : ٢٧٥)

سنن أبي داوود، الطبعة الأولى، دار الكتب الثقافيّة، بيروت، ١٩٨٨.

٢٩ - السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت : ٩٠٢)

التوبيخ لمن ذم التاريخ، د.ط، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٩.

٣٠ - ________

وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، تحقيق بشّار عوّاد ومعروف وآخرون، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٥.

٣١ - السمعاني، عبد الكريم بن محمد

أدب الإملاء، تحقيق : شفيق محمد زيعور، الطبعة الأولى، دار اقرأ، بيروت، ١٩٨٤.

٣٢ - السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت : ٩١١)

الوسائل إلى معرفة الأوائل، تحقيق : إبراهيم العدوي وعلي عمر، د.ط، دار الخانجي، القاهرة، د.ت.

٣٣ - الشوكاني، محمد بن علي (ت : ١٢٥٠)

البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، د.ط، دار المعرفة، بيروت، د.ت.

٣٤ - ابن الصلاح، أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن (ت : ٦٤٣)

علوم الحديث، تحقيق : نور الدين عنتر، د.ط، دار الفكر، دمشق، د.ت.

٣٥ - الطبراني، سليمان بن أحمد (ت : ٣٦٠)

المعجم الكبير، تحقيق : حمدي السلفي، الطبعة الثانية، د.ن، د.ت.

٣٦ - ابن عساكر، علي بن الحسن (ت : ٥٧١)

تاريخ مدينة دمشق، تحقيق : محب الدين العموري، الطبعة الثانية، دار الفكر، بيروت ١٩٩٥.

٣٧ - ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي (ت : ١٠٨٩)

شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق : لجنة إحياء التراث العربي، د.ط، دار الأفاق الجديدة، بيروت، د.ت.

٣٨ - العمري، ابن فضل الله (ت : ٧٤٩)

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، القسم الخاص بمصر والشام، تحقيق : دورثيا كرافوكسي، المركز الإسلامي للبحوث، د.م، ١٩٨٦.

٣٩ - الغزالي، محمد بن محمد (ت : ٥٠٥)

إحياء علوم الدين، الطبعة الثانية، دار الخير، بيروت، ١٩٩٣.

٤٠ - ______________

آداب الألفة والأخوة و الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق، تحقيق : عصام الحرستاني وزميله، الطبعة الأولى، دار عمار، عمّان، ١٩٩٦.

٤١ - ابن فارس، أحمد بن زكريا

معجم مقاييس اللغة، تحقيق : عبد السلام هارون، الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١.

٤٢ - الفراهيدي، الخليل بن أحمد (ت : ١٧٥)

كتاب العين، تحقيق : مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، د.ط، دار الهلال، بغداد، د.ت.

٤٣ - ابن قاضي شهبة، أبو بكر بن أحمد بن محمد (ت : ٨٥١)

طبقات الشافعية، الطبعة الأولى، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٧.

٤٤ – ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت : ٢٧٦)

تأويل مختلف الحديث، تحقيق : عبد القادر عطا، الطبعة الأولى، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٩٨٨.

٤٥ – ابن كثير، عماد الدين إسماعيل بن كثير (ت : ٧٧٤)

البداية والنهاية، تحقيق : د. أحمد ملحم وآخرون، الطبعة الثالثة، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ١٩٨٧.

٤٦ – ابن ماجه، محمد بن يزيد (ت : ٢٧٥)

سنن ابن ماجه، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، د.ط، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د.ت.

٤٧ – الماوردي : علي بن محمد (ت : ٤٥٠)

نصيحة الملوك، تحقيق : خضر بن خضر، الطبعة الأولى، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٩٨٣.

٤٨ – المحاسبي، الحارث بن أسد (ت : ٢٤٣)

رسالة المسترشدين، تحقيق : عبد الفتاح أبو غدّة، الطبعة الثامنة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، ١٩٩٥.

٤٩ – المزي، جمال الدين أبو الحجاج يوسف (ت : ٧٤٢)

تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف (مع النكت الظراف)، تحقيق : عبد الصمد شرف الدين، الطبعة الثانية، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣.

٥٠ – ________________

تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق : بشار عوّاد معروف، الطبعة السادسة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٤.

٥١ – المقريزي، تقي الدين احمد بن علي (ت : ٩٤٥)

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، طبعة بولاق.

٥٢ – ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم (ت : ٧١١)

لسان العرب، د.ط، دار صادر، بيروت، د.ت.

٥٣ – ابن النديم :

الفهرست، تحقيق : محمد نبيل غنام، الطبعة الأولى، مركز الأهرام، القاهرة، ١٩٨٨.

٥٤ – النسائي، أحمد بن شعيب (ت : ٣٠٣)

سنن النسائي (بشرح السيوطي)، الطبعة الثانية، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٢.

٥٥ - النعيمي، عبد القادر بن محمد (ت : ٣٠٣)

الدارس في تاريخ المدارس، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠.

٥٦ - النيسابوري، مسلم بن الحجاج (ت : ٢٦١)

صحيح مسلم (بشرح النووي)، د.ط، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت، د.ط.

٥٧ - ابن هشام، أبو محمد عبد الله بن هشام (ت : ٢١٣)

السيرة النبويّة، تحقيق : محمد ميحي الدين عبد الحميد، د.ط، الفكر - بيروت، ١٩٨١.

ثانيا - المراجع :

١- الأبراشي، محمد عطية :

التربية الإسلامية وفلاسفتها، الطبعة الخامسة، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، ١٩٨٦.

٢- أبيض، ملكة :

تاريخ التربية وعلم النفس عند العرب، الطبعة الأولى، مطبعة الإنشاء، دمشق، ١٩٨٦.

٣- ___________

التربية والثقافة العربية الإسلامية في الشام والجزيرة، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠.

٤- أحمد، لطفي بركات :

في الفكر التربوي الإسلامي، الطبعة الأولى، دار المريخ، الرياض، ١٩٨٢.

٥- الألباني، محمد ناصر الدين :

صحيح سنن أبي داود، الطبعة الأولى، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٩.

٦- ___________

صحيح سنن ابن ماجه، الطبعة الثالثة، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨.

٧- أمين، محمد محمد :

الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، د.ط، دار النهضة العربية القاهرة، د.ت.

٨- الأهواني، أحمد فؤاد :

التربية في الإسلام، الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر، د.ت.

٩- بدران، عبد القادر :

منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، د.ط، المكتب الإسلامي، دمشق، د.ت.

١٠- الجندي، أنور :

التربية وبناء الأجيال في الإسلام، د.ط، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢.

١١- حجي، حياة :

السلطان الناصر محمد بن قلاوون، ونظام الوقف في عهده، الطبعة الأولى، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٩٨٣.

١٢- حسن، إبراهيم حسن :

تاريخ الإسلام، الطبعة الرابعة عشرة، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٦.

١٣- حسن، أمينة أحمد :

نظرية التربية في القرآن، د.ط، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥.

١٤- الخشت، محمد عثمان :

خطب الصحابة ومواعظهم، الطبعة الأولى، دار المختار الإسلامي، القاهرة، ١٩٨٥.

١٥- الخطيب، إبراهيم ياسين :

دور التعليم في تحرير بيت المقدس إبان العصر الأيوبي، د.ط، د.ن، عمّان، ١٩٩٣.

١٦- الخطيب، محمد خليل :

خطب المصطفى (ﷺ) د.ط، دار الاعتصام، القاهرة، د.ت.

١٧- الخطيب، مصطفى عبد الكريم :

معجم المصطلحات التاريخية، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦.

١٨- دحدوح، سليمان ناصيف :

الصحابي يسأل والنبي (ﷺ) يجيب، الطبعة الأولى، دار البشائر، بيروت، ١٩٩٥.

١٩- الذهبي، محمد حسين :

التفسير والمفسرون، الطبعة الثانية، د.ن، ١٩٧٦.

٢٠- دهمان، محمد :

معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، د.ط، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٠.

٢١- روزنثال، فرانز :

علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح العلي، د.ط، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٦٣.

٢٢- زرزور، عدنان محمد :

علوم القرآن، الطبعة الثانية، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٤.

٢٣- الزهراني، محمد مطر :

تدوين السنّة النبوية، نشأته وتطوره، الطبعة الأولى، دار الهجرة، الرياض، ١٩٩٦.

٢٤- أبو زهرة، محمد :

محاضرات في الوقف، الطبعة الثانية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧١.

٢٥- زيدان، جورجي :

تاريخ آداب اللغة العربية، الطبعة الأولى، دار الجيل بيروت، ١٩٨٢.

٢٦- شاكر، أحمد محمود :

الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث، الطبعة الثالثة، دار التراث، القاهرة، ١٩٧٩.

٢٧- شاكر، محمود :

التاريخ الإسلامي، الطبعة السابعة، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١.

٢٨- الشيباني، عمر محمد تومي :

فلسفة التربية الإسلامية، د.ط، المنشأة الشعبية، طرابلس، ١٩٧٥.

٢٩- صليبا، جمال :

المعجم الفلسفي، الطبعة الأولى، دار الكتب، بيروت، ١٩٧١.

٣٠- طه، تيسير :

أساليب تدريس التربية الإسلاميّة، الطبعة الأولى، دار الفكر، عُمان، ١٩٩٢.

٣١- عبد العال، حسن :

التربية الإسلاميّة في القرن الرابع الهجري، د.ط، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت

٣٢- عبد الله، عبد الرحمن صالح :

المرجع في تدريس علوم الشريعة، الطبعة الأولى، د.ن، عُمان، ١٩٩٤.

٣٣- عبد المهدي، عبد الجليل :

المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي، الطبعة الأولى، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٨١.

٣٤- عبود، عبد الغني :

في التربية الإسلامية، الطبعة الأولى، دار الفكر التربوي، القاهرة، ١٩٩١.

٣٥- عتر، نور الدين :

منهج النقد في علوم الحديث، الطبعة الثانية، دار الفكر، دمشق، ١٩٧٩.

٣٦- عدوي، مصطفى :

الصحيح المسند من فضائل الصحابة، الطبعة الأولى، دار ابن عفان، الخبر، ١٩٩٥.

٣٧- العسلي، كامل جميل :

وثائق مقدسيّة تاريخية، الطبعة الأولى، مكتبة التوفيق، عمان، ١٩٨٣.

٣٨- علي، أحمد :

ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد، الطبعة الجديدة، دار الفارابي، بيروت، ١٩٩١.

٣٩- العلمي، أحمد :

وقفيّة صلاح الدين، د.ط، إدارة الأوقاف العامة، القدس، ١٩٨١.

٤٠- العمري، أكرم ضياء :
بحوث في تاريخ السنة المشرفة، الطبعة الثالثة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٥.
٤١- أبو العوض، عاطف شكري :
الزندقة والزنادقة، د.ط، دار الفكر، عمان، د.ت.
٤٢- أبو غدة، عبد الفتاح :
الرسول المعلم (ﷺ) وأساليبه في التعليم، الطبعة الأولى، مكتب المطبوعات، حلب، ١٩٨٢.
٤٣- ________
صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل، الطبعة الرابعة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ١٩٩٤.
٤٤- الفرحان، اسحق :
التربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة، الطبعة الأولى، دار الفرقان، عمان، ١٩٨٢.
٤٥- قنوجي، صديق بن حسن :
أبجد العلوم، د.ط، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٧٨.
٤٦- الكبيسي، محمد عبيد عبد الله :
أحكام الوقف في الشريعة الإسلامية، د. ط، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٧.
٤٧- كحالة، عمر رضا :
معجم المؤلفين، د.ط، مكتب المثنى، بيروت، ١٩٥٧.
٤٨- كرد علي، محمد :
خطط الشآم، الطبعة الثانية، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧١.
٤٩- ماجد، عبد المنعم :
نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، د.ط، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ١٩٦٧.
٥٠- المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت :
التربية العربية الإسلامية المؤسسات والممارسات، المجمع الملكي، عمّان، ١٩٨٩.
٥١- مرسي، محمد منير :
التربية العربية الإسلامية وتطورها في البلاد الإسلامية، الطبعة الثانية، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٣.

٥٢- معروف، بشار عوّاد :

الذهبي ومنهجه في كتابة تاريخ الإسلام، د.ط، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٧٩.

٥٣- معروف، ناجي :

تاريخ علماء المستنصرية، الطبعة الثانية، مكتبة العاني، بغداد، ١٩٦٥.

٥٤- ــــــــــــ

مدارس قبل النظامية، د.ط، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٧٣.

٥٥- ــــــــــــ

علماء النظاميات ومدارس الشرق الإسلامي، الطبعة الأولى، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٣.

٥٦- المنجد، صلاح الدين :

مأساة سقوط دمشق ونهاية الأمويين، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٨١.

٥٧- ــــــــــــ

كتاب وقف القاضي عثمان بن أسعد المنجا، د.ط، المعهد الفرنسي بدمشق، ١٩٤٩.

٥٨- النباهين، علي سالم :

نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨١.

٥٩- النجار، عبد المجيد :

فقه التدين، فهما وتنزيلا، الطبعة الأولى، رئاسة المحاكم الشرعية، قطر، ١٩٨٩.

٦٠- النحلاوي، عبد الرحمن :

أصول التربية الإسلامية وأساليبها، الطبعة الأولى، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٠.

٦١- الوشلي، عبد الله قاسم :

المسجد وأثره في تربية الأجيال ومؤامرة أعداء الإسلام عليه، الطبعة الأولى، مكتبة الرسالة، بيروت، ١٩٨٨.

٦٢- يالجن، مقداد :

توجيه المتعلم في ضوء التفكير التربوي الإسلامي، الطبعة الأولى، دار المريخ، الرباط، ١٩٨٢.

ثالثاً – الرسائل الجامعية :

١ – الآنسي، أحمد علي :

البعثات التعليمية إلى اليمن في عهد النبي (ﷺ) وأثرها في مسيرة التعليم الإسلامي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، ١٩٩٥.

٢ – الضامري، عبد الرحمن إبراهيم :

مجالس النبي (ﷺ) التعليمية في العهد المدني، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، ١٩٩٥.

٣ – الفالح، حسن الفالح :

أسواق العرب في الجاهليّة والإسلام، حتى نهاية القرن الثالث، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، ١٩٩٥.

٤ – القضاة، سناء أحمد فلاح :

دور المرأة العربيّة في الإسلام، من البعثة حتى نهاية العصر الراشدي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، ١٩٩٥.

٥ – الكيلاني، محمد عرسان :

مسيرة التعليم الإسلامي في الجامع الأموي خلال العصر الأموي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، ١٩٩٦.

٦ – مطالقة، أحلام محمود :

أثر انتقال الصحابة إلى الأمصار في توسيع دائرة الفكر التربوي الإسلامي في عهد عمر ابن الخطاب، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، ١٩٩٥.

The chronicle of the Education Process as in
The Al Bedaia wal- Nehaia by Al-hafez ben khatheer.

Prepared by : **Zahi Nimer Sa'eed Abdul'lah.**

Supervisors : **Dr . Abdel Naser Abu Al-Basal (legal supervisor).**

: **Dr . Mohammed Fakhri Mugdadi (Educational supervisor).**

Summary :

This study aimed to answer the following three questions :

How did the components of the educational process develop through the first eight centuries after Al-Hijrah ?

What were the changes that took place in the educational learning institutions during the same period ?

What were the facts which affected the educational learning process during those centuries ?

This study is based on the book of (AL-Bedayawal-Nehai`a), The Beginning and the End for Al-Hafez Iben Katheer.

The answer came in two main chapters, preceded by an introductory, and followed by a conclusion; The introductory chapter was devoted to identify AL-Hafes Iben Katheer and his manner of composing the book. (AL - Beda`awal - neha`a).

The first chapter was dedicated to displaying the Islamic educational effects in its three centuries, including the profiteering (peace and blessing of Allah be upon him) and his followers, may Allah bless them, and the followers and who followed them.

This chapter displayed the aims of education and its methods, and about the institutions and the effective acts of educational effects and then the general characteristics of learning during the its three centuries.

The second chapter included the Islamic educational effects from the fourth century to the end of the eighth century.

The speaking about the centers which appeared in this period included the School Generally the private school particularly .Al-Hadees and The Holy Qura'an homes.

Al-Turab, Al-Rubat, Al-Mashahed, Al-Zawa'ai (private mosques) Al-Khawanek and the library (ies) and the private Mosques and the Mosaues .

The places forteaching the kidsincluded the speaking about topics and the methods of teaching, and the educational rolea of woman, and some effective acts in the edncational effects and the scientific names (surnaues) which appeared.

The glossary conntained the most important results and suggestions which the researcher registed that there is adistinction between two stages. The ist include the ist three centuries of Al-Hijra, The secoud extends from the beginning of the fourth century to the last third part of the eighth century of al-Hijra.

The most significeint aspects of this distinction was represented in the efforts which were done through the first stage of keeping the proghet mohammad saying and his fellows' legal suggestions and their opinions (Al-Ejtihadat) of the followers and their followers for writing them down to let Science and knowledge which were kept and written down in this stage became asource which who comes after from the science and its studnts depend on.

The second stage characteristed with appearing institutions which were not known in the first three ceturies like schools, Door Al Hadeeth, Qura'an The holy Al-Turab AL-khawanek, Al-Rubat and soon.

But the most important suggestions that the researcher came up with were that carrying out many of historical educational studies for the mothers of Islamic history books like The histary of kings and nations by Al-tabary, The History of baghdad, by Al-khateed-Al-Baghdady and The history of Damascus, by iben-Asaker .

To arrive for obvious accurate view about the educational effects, away from the conceits and mistakes which may occured because of the inaccurate of choosing the Narrations and Sayings (Al-Khbar) and leaving them without examinig or checking.